كلمة المجلة

يسر مجلة « الاقلام » ان تولد مع مولد المجتمع الاشتراكي الجديد في العراق ، لتلبي حاجة فكرية ملحة ، ولتكون صوتا يبرز المضمون الثقافي والاجتماعي للحركة العربية ، بما وراءها من تراث اسلامي غني ، وما أمامها من مثل قومية وقيم انسانية وفكر مبدع جديد يمثل العصر ، ويرقى به الى الآفاق العليا ٠

ولقد بقي العراق يفتقر الى المجلة ذات المستوى الرصين ، والرسالة الواعية ، المجلة التي تملك من حيوية الهدف ، وغنى الاطار الفكري ، وعلو المستوى ، ما يجعلها قادرة على البقاء ، بحيث يتاح لها ، مع انصرام الاشهر والسنين ، ان ترتفع وتتفوق ، وتحقق أهدافها الادبية والعلمية والاجتماعية ٠

وأول ما تحرص عليه مجلة « الاقلام » حرية الفكر ، فالكاتب المتمكن الناضج في نظرها كنز من كنوز الوطن ، كلما اتحنا له فرص التعبير الحر عن رأيه اعتنينا به واتسعت آفاقنا الثقافية ٠ ولذلك نحرص على أن يمنح الكتاب حقهم الكامل في التعبير عن انفسهم ٠ على أننا نؤمن بأن الحرية ملازمة للمسؤولية الكاملة ، مسؤولية الفكر بازاء الحقيقة ، أو مسؤولية المفكر والاديب والعالم بازاء المجتمع العربي ٠ وهذه المسؤولية تتضمن ترفع الكتاب عن الوقوع في أدب التيارات المتحللة التي شاعت في الغرب مثل نشر ادب الجنس على سبيل المثال ، لان هذا الادب لا يصدر عن الحرية وانما

هو نتاج من استعبدته الغريزة الدنيا • ومسؤوليتنا ازاء الفرد العربي تجعلنا نأبى ان نحبب اليه الرذيلة ونزين الشهوات •

بل الحرية هي التي تملي على الكاتب أدبا بناء يسمو بالضمير العربي ، ويرسخ قيم الثقافة الاصيلة ، وينير المظلم من صفحات تاريخنا ، ويساعد الفرد العربي على الايمان والترفع ، ويحارب التقليد والابتذال ويملأ نفوس القراء تفاؤلا وقوة •

ومن ثم فان « الاقلام » ستفتح صفحاتها لكل حامل قلم يؤمن بان للفكر العربي الحديث رسالة ومسؤولية • وذلك يشمل كل ما قد يحب الكاتب ان يكتب فيه من البحث الادبي والعلمي ، الى مقالات النقد والتقييم ، الى القصيدة والنشيد ، الى المسرحية والاقصوصة ، فان وراء كل باب من هذه الابواب مجالا واسعا لتعميق الثقافة العربية ، وارساء قيم ناضجة للفكر ، وابراز الشخصية القومية وما تملك من حيوية واصالة •

ولسوف تفتح « الاقلام » صدرها للحركات الجديدة في أدبنا ، وتعنى بدراستها ونقدها وتوجيهها ، بحيث تحافظ على جوهرها وما هو أصيل فيها ، دون ان تسف الى التصنع والابتذال • ونحن نؤمن ان من الطبيعي ان تنشأ الحركات الفكرية الجديدة في المجتمع الجديد • وكل ما نحرص عليه ان تحافظ هذه الحركات على الروح العربية ، في انسجام كامل مع أهداف المجتمع الاشتراكي القومي • وانه ليسر « الاقلام » أن تكون منبرا يرفع صوت الشباب المثقف ، ويأخذ بايدي ذوي المواهب من الناشئين ، ليعرف انتاجهم ، وتتاح لهم فرصة المساهمة في بناء كياننا الثقافي والعلمي •

ومما ستعنى به « الاقلام » ترجمة الفكر الاجنبي الى العربية ، متوخية في ذلك ان تبرز الترجمات في اطار عربي يحافظ على اصول لغتنا ، منتقية من نتاج المترجم ما يغني حياتنا الفكرية ، ويعيننا على الحياة والنمو والتجدد • ومعنى ذلك اننا سنمتنع عن ترجمة ما يضر بنا من أدب التيارات المتحللة والادباء المتشائمين • لان باب الترجمة ، مثل أي بـاب آخـر مـن أبواب الفكر ، ضروري في بناء المجتمع الاشتراكي فلا يصح ان تنفذ منه بذور الانحلال والتفسخ الى حياتنا العربية •

ولسوف تعنى المجلة عناية خاصة بأبحاث النقد على مختلف المستويات، وهي ، على ذلك ، ترحب بما يكتب الادباء من أبحاث ومقالات وتعليقات في هذا الباب ، وكل ما ترجوه ان يحافظوا على الموضوعية والامانة العلمية ، والترفع فوق السباب والتنابز • فليس الهدف من النقد تعداد العيـوب والنقائص والتشهير بالكتاب ، وانما المقصد منه رفع المستوى الفكري لما يكتب وينشر بحيث ينتفع الكاتب والقاريء والمجتمع جميعـا • ومن الله التوفيق •

بغـداد (لجنة المجلة)

اللغة العربية والعصر

الدكتور مصطفى جواد

بدأ عصر يقظة اللغة العربية الاخيرة فى أواسط القرن الثالث عشر للهجرة النبوية الجليلة ، وكان عصر اليقظة هذه موافقا للثلث الاول من القرن التاسع عشر للميلاد ، بدأ ذلكم العصر في مصر بترجمة الكتب الافرنجية العلمية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية الى اللغة العربية ككتاب « منتهى الاغراض فى علم شفاء الامراض » من تأليف بروسيه وساتسون الطبيبين الفرنسيين الكبيرين ، وترجمة يوحنا عنحوري ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤م . وكتاب « ضياء النيرين فى مداواة العينين » من تأليف لوراس أحد أطباء العيون الانكليز ، وترجمة أحمد حسن الرشيدي ، وكتاب « مطلع شموس السير فى كرلوس الثانى عشر » من تأليف فولتير الكاتب الفرنسي الكبير الشهير وترجمة محمد أفندي مصطفى البياع أحد خريجي مدرسة الالسن ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٥٧هـ = ١٨٤٢م وهو تاريخ كرلوس الثانى عشر ملك السويد « ١٦٩٧ ــ ١٧١٨ » وكتاب « الروض الازهر فى تاريخ بطرس الاكبر » تأليف فولتير أيضا ، ونقل أحمد عبيد الطهطاوى ، و « اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى أوربا » من تأليف روبرتسون أحد المؤرخين الانكليز ، نقله من الفرنسية الى العربية خليفة محمود ، أحد خريجي مدرسة الالسن أيضا ، و « الدراسة الاولية في الجغرافية الطبيعية » من تأليف فيلكس لامروس ، احد العلماء الفرنسيين ، نقله من الفرنسية الى العربية أحمد حسن الرشيدى المقدم ذكره آنفا ، و « الجغرافية العمومية » من تأليف مالت برن من العلماء الفرنسيين، نقله من الفرنسية الى العربية رفاعة رافع الطهطاوى ، و « تنوير المشرق بعلم المنطق » من تصنيف دومارسيه ، ونقل خليفة محمود المذكور فى الكلام على اتحاف الملوك .

ولا أود أن أرسل عنان القلم لذكر أسماء الكتب المترجمة غير التى ذكرت خشية الاسآم والاملال ، ففى كتاب « تاريخ الترجمة والحركة

الثقافية » تبيان لها ولموضوعاتها المختلفة(١)، فقد شمل النقل عامة العلوم حتى الطب البيطرى ، وقد سماه المترجم « علم البيطرية » . وكان المترجمون من الشاميين والمصريين ، ولم تكن الثقة بعباراتهم كاملة ، فندب لتصحيح ترجمتهم وتحريرها ، شيوخ أزهريون ، ولم نعلم كيف كان هؤلاء الشيوخ الفضلاء يزاولون التصحيح والتحرير ، فان الاصلاح اللغوى لترجمة الكتب العلمية والكتب الفنية ينبغي له أن يكون مبنيا على حفظ مقاصد المؤلف ومعانيه ، قبل كل شيء ، يقول الشيخ مصطفى حسن كساب محرر الكتب المترجمة في مدرسة الطب البيطرى ، في تصدير أحدها : « وقد سميت هذا الكتاب روضة الاذكيا فى علم الفسيولوجيا . ويقول فى تقديم كتاب آخر فى هذا العلم : « فجاءت ــ يعنى الرسالة ــ بعون الله مرتبة المبانى ، مهذبة المعانى وسميتها البهجة السنية فى اعمار الحيوانات الاهلية»(٢).

ومذ ذلك العصر اتصل الغرب بالشرق ، اتصالا علميا وكانت النهضة العلمية الغربية قوية كالغارة الشعواء ، والتقدم العلمى كالسيل الجارف ، فكثرت المخترعات كثرة هائلة ، ووفرت المبتدعات وفارة طائلة (٣) ، وتنوع نتاج العقول ، واختلفت الوان المعقول ، وتفتقت الاذهان عن علوم وفنون عجيبة غريبة ، نظرية وعلمية ، والشرقيون وخاصة العرب غارون غافلون عنها ، ومشغولون بما متاهم الدهر به من سلطان جائر ، وجد عاثر ، وتشتت وتفرق ، وارتكاس وانتكاس فى العلم والفن والادب والثقافة عامة ، ما عدا الذى أشرنا اليه من نهضة الترجمة فى مصر ، ونضيف اليه استيقاظا فى لبنان ، لا يعنينا ذكر مصدره .

وكانت الدولة العثمانية هى المهيمنة على عامة أصقاع العرب وأقطارهم وبلدانهم حتى الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وكانت أقرب الدول الشرقية الى أوربا ، فقد امتدت فتوحها الى أواسط أوربا ، ولكنها بقيت متخلفة فى الحضارة والعلوم والفنون سوى الخط والرسم ، ولما بهرتها النهضةالعلمية الاوربية والنهضة الفنية لم تجد في لغتها التركية ما يوازيها فعمدت الى اللغة العربية كما عمدت قديما الى الاسلام وفقهه وحديثه وآدابه فأختارت منها أسماء للمسميات الاوربية على حسب ادراكها لمعانى تلكم الاسماء ، وعلى نحو ما فهمته من استعمالها قديما عند العرب ، فأختارت « التفتيش » والمفتش والمدير والادارة والمباشر والمستنطق والضابط والملازم وقائم المقام والمتصرف واللواء ومير لواء « امير اللواء » والفريق والصنف للمدرسة والجيش ، والمراتب والسفارة ، والممتاز والافتخار والمرصع والمشير والمشيرية والمستشار ، والعزة والرفعة والسعادة والفخامة والفضيلة والخزينة بدلا من « الخزانة » ، والوكالة للمحاماة ، والوكيل للمحامى ، والمتمايز من الرتب ، والمدعي العمومي ، والعضو والمعاون ، والمقيد والقيد ، والواردات والمصرف والمصارفات ، والاوراق والتحريرات والمعارف ، والمعلومات والاملاء ، واللسان « للغة » والاعلام ، والاعلامات ، والاخطار

والاخطارات ، والطبع ، والمرتب والترتيب للحروف ، والاستئناف والتمييز ، والبداية ، والجزاء والاجراء ، والضبط « لكتابة المحكمة » ، والمنحل « للشاغر » ، والكشف ، والمخابرة أى المنابأة ، والشعبة ،والمكتب « لمدرسة الصبيان والصبايا » ، والموزع ، والرسوم والرسومات ، والتحقيقات ، والمركز ، والصحة ، والولاية والقضاء والناحية ، والهيئة والضابطة » والنفر « للواحد » ، واليكون « للحساب » ، والقلم والدائرة « للكتابة وديوانها » ، والاعدادي « للدرس » ، الرؤساء الروحانيون ، وعلم الثروة « للاقتصاد » والادبيات « لعلم الادب » ، والمبصر « لمرشد المدرسة »، والاناث « للطالبات » ، والذكور « للطلاب » ـ أعنى البنات والبنين ـ ، والشهادة ، وأركان الحرب والرديف والاحتياط واللوازم ، والجراح ، والبيطر « لخيل الجيش » ، والفرقة « لعدد معين من الجند » ، والصندوق « لبيت المال » فى مدينة أو بلد ، وأمين « لخازن بيت المال » ، والنفوس « لاحصاء السكان » ، والبحرية ، والموازنة « بين الواردات والمصروفات »، والحاصلات للجباية ، والمعاش ، وغيرها .

واشتقوا « المحكمة » والآمر والمحاسب والمحاسبة والمطبعة واللياقة والمتحيز للمتميز وابتدعوا الابتدائية والرشدية والالفية والبلدية والداخلية والخارجية والمالية والعدلية والضبطية والرسمية والقرطاسية واليومية والآمرية والمأمورية ، والجزائية وغيرها ، وما لم يهتدوا الى اسمم له فى العربية نقلوه بلفظه كالتلغراف والغزتة « للجريدة » والفابريقة « للمعمل » والمدالية « للوسام » والقنال(٤) « للنهر الصغير غير الطبيعى » والماكنة والماكنيست « لصاحبها » ، والجاندرمه والشيفرة « للمترجم » ،والبوستة والقونسل والجناستيق والاستاتيستيق « للاحصاء » والبانق « للمصرف » والتراماواى والقوزموغرافيا والقرانتنه « لدار العزل الصحى » وغيرها مما لا يحضرنا الآن .

ان التعليم والترجمة وما سمى « الصحافة » نهضت فى البلاد العربية في نصف القرن الاخير نهوضا سريعا ، فترجمت الكتب العلمية والكتب الفنية والكتب الادبية للتعليم والتدريس ، وانتشرت الصحافة فى البلدان العربية بجرائدها ومجلاتها ونشراتها الاخرى ، فنقلت الوان المعارف ، ومختلف الفنون حتى الشؤون العسكرية والبلاغات الحربية ، فضلا عن الاخبار السياسية والانباء العالمية والحوادث البشرية ، وكان من غريب ما حدث في هذا الامر أن كثيرا من النقلة والمترجمين اغتروا بمعرفتهم اللغات الاعجمية كالفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية ، ولم يتقنوا اللغة العربية ولا تبحروا في علم مصطلحاتها ومولدها ، فترجموا الكلمات العلمية والالفاظ الفنية كيفما اتفق لهم ، الا افرادا أقلاء كجمعهم(٥) ، لايجوز لنا أن ننكر احسانهم للنقل وفضلهم فيه ، وكان واجبا على المسيئين للترجمة والنقل أن يتقنوا العربية كما أتقنوا اللغة الاعجمية ، ولكنهم استهانوا

بالعربية ـ قاتلهم الله ـ مع اعتماد شطر من أرزاقهم عليها ، فجاءت ترجمتهم شوهاء ورهاء مرهاء ٠

وتسمح أهل الصحافة وتساهلوا في كثير مما ينشرونه ، في نحو العربية وصرفها وبيانها ، لان من عادتهم السرعة ، فضلا عن اسراعهم النقل والترجمة، فشاعت تراكيب ركيكة ومصطلحات فجة ، ان جاز أن تسمى مصطلحات (٦) وفشا الفساد في العربية ، وخصوصا ما ترجم اليها مما يسمى « الروايات » أي القصص والحكايات ، وشاع استعمال الناشئة للفاسد من التراكيب والمساء استعماله من الكلم ، كقولهم « كم هو جميل وكم هي جميلة ؟ » بدلا من « ما أجمله وأجمل به وما اجملها وأجمل بها ، وما كان أجملهما ! » و « الرتل الخامس » بدلا من « الرسل الخامس » و « هدف الى الغاية » بدلا من « رمى اليها واستهدفها(٧) وتوخاها وقصد اليها » و « استهتر بالقانون » بدلا من استهان وتهاون به ، وخالفه وخرج عنه وتعدى حدوده ، مع أن الاستهتار بالقانون هو العناية به والتمسك به كل العناية والتمسك، ولا يزال هذا الفساد مستداما ، حتى أصبحنا تسمع من يقول « فلان يسافر أمس وفلان يجتمع أمس هو وفلان » أو يقول عصرا « الرئيس يؤدي صلاة الجمعة في المسجد الفلاني » مع أن صلاة الجمعة تصلى قبل العصر ،باستعمال المضارع الذي لا صلة له بالماضي ، للزمن الماضي البحت ، كان المضارع اذا جاز استعماله لهذا المعنى في لغة أعجمية وجب أن يستعمل كذلك في العربية، وكذلك القول في « عكس رغبات الشعب » ويراد به « أعرب عنها وصورها ومثلها وأبانها وأوضحها وحكاها » مع أن العكس هو القلب والنكس ورد الاول على الآخر والجذب بضغط الى الارض والصرف ، فهذا من التعابير الافرنجية التي لا تسيغها ولا تسوغها العربية ، أرأيت لو تعلم الناشيء أن « عكس مقصده » يعني أعرب عنه وصوره ثم قرأ قول جمال الدين محمد بن سالم الحموي القاضي الفيلسوف : « وفي المحرم من هذه السنة (٥٧٢هـ) توفي القاضي كمال الدين الشهرزوري وعمره ثمانون سنة ، وكان في الايام النورية اليه قضاء القضاة والتحكم في الدولة ، وكان السلطان الملك الناصر [صلاح الدين يوسف بن أيوب] متولي الشحنكية بدمشق أيام نور الدين (فكان كمال الدين يعكس مقاصده ويكسر أغراضه ويعترض عليه في أموره) لتوخي كمال الدين الاحكام الشرعية فلما صار الملك الناصر الى ما صار اليه من الملك وافتتح دمشق صار كمال الدين أحد قضاة بلاده ، ولم يؤاخذه على ما صدر منه في حقه بل أكرمه واحترمه ، واستشاره وعظمه » (٨) ٠ فانه يفهم من قوله «يعكس مقاصده ويكسر أغراضه» عكس ما أرادوا ، وضد ما قصدوا ، فماذا يفعل ؟

ومن ذلك قولهم : « كان يحارب ضد العدو » يريد أنه « كان يحارب العدو » فأستعملوا كلمة « ضد » التي ظنوها جائزة في اللغة الاعجمية ، فأدت الجملة ضد معناها ، لان من معاني الضد « العدو » فاذا حارب عدو

العدو ، صار مصافيا ومسالما للعدو وموافقا وموائما لا مقاوما له • وما من أحد ينكر أن « باب المجاز والاستعارة » مفتوح في اللغة العربيــة قديمـا وحديثا ، ولا يضيرها أن تستعير من اللغات الاخرى مجازات جليلة واستعارات جميلة ، على شريطة أن لا تكون نابية منافية لطبيعتها ، مباينة لاذواق أهلها، عسيرة على مداركهم • ولقد اقتبست عربية العصر جملة مجازات واستعارات من عدة لغات ، وشاعت فيها لكونها سائغة ، جميلة الخيـال ، رشيقـة المعنى •

وفي أثناء ركود العربية وضمورها وتخلف العرب في العلوم والفنون والآداب ، استحدثت في الغرب ألوف آلات ومئات أدوات وآلاف اختراعات، وعشرات ابتداعات ، وبعثت الغربيين على وجدان أسمـاء لطـائفة منهـا واشتقاق أسماء لطائفة أخرى أو تركيبها ، ومن الواجب ان يذكر هنا أن اللغات الاعجمية تركيبية واللغة العربية إشتقاقية ، فالمخترعات والمبتدعات والمستحدثات الغربية الاخرى يغلب على أسمائها التركيـب وشبهـه وهو النحت ، والنحت هو أخذ اسم واحد من كلمتين بعد طرح ما يمكن طرحه منهما للتخفيف ، وما وجد من النحت في العربية نزر جدا لا يتعدى ما ورد في النسب وقلما يخرج عن الشعر كقولهم « فلان العبشمي وفلان العبقسي » نسبة الى عبد شمس وعبد القيس ، وقد جاء العبشمي في قول الشاعر :

وتضحك مني شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا !

ومن الباحثين من لم يعلم أن اللغة العربية اشتقاقية فيلوى بلسانه ، ويتشدق ببيانه ، هازئا بمن لا يعد النحت من خصائص العربية ، وانما حمله على هزئه جهله لطبيعة اللغة العربية(٩) ، وكل ما ثبت عندنا من النحت عدة رموز جملية مستحدثة ترمز الى العبـارات كرمز الحـروف الى المـواد الكيميائية كقولهم « سبحل فلان أي قال سبحان الله ، وحوقل : قال لاحول ولا قوة الا بالله ، وطلبق : قال أطال الله بقاءه ، ودمعز : قال أدام اللـه عزك» ، ولولا أن هذه الجمل الرمزية كانت من الشهرة والتكرار بالمكـان المعلوم ما استجازوا لها هذا الاختصار ، فالنحت من خصائص اللغـات الآرية الهندية – الاوربية ، ومخترعه في العربية هو ابن فارس العالم اللغوي المشهور مؤلف كتاب مقاييس اللغة العربية والمجمل في اللغة والصاحبي في فقه اللغة ، وغيرهن ، وهو فارسي الاصل ، واللغة الفارسية نحتية تركيبية كسائر اللغات الآرية ، وقد حدته لغته الاصلية على أن يلصق أهم خصائصها باللغة العربية ، من غير أن يعلم ان اللغات في العالمين اجناس ، متباينـة كتباين أهليها ، فأصل الفرس غير أصل العرب ، واللغة العربية من جمهرة اللغات السامية لا من جمهرة اللغات الهنديـة الاوربيـة ، ولكل جمهـرة خصائص وصفات ، ونعوت وعلامات ، وحروف وأصوات خاصة بها •

وهذا ابن جني أبو الفتح عالم الدنيا في الصرف وغيره من علوم العربية

قد ألف كتاب الخصائص في خصائص العربية وتكلم على عامة أحوالها ومجالاتها ونحوها واعرابها وأدواتها ومناحيها ودقائقها ونكتها وبداعتها وبراعتها وأسرارها وعجائبها وصفاتها ونزعاتها الطبيعية ، ولم يذكر أن « النحت » والتركيب من أصولها ولا من خصائصها ، وكان معاصرا لابن فارس الفارسي حق المعاصرة وكلاهما من أهل القرن الرابع للهجرة ، ابن جني في بلاد العرب وابن فارس في بلاد الفرس ·

ولو كان التركيب المزجي والنحت من خصائص اللغة العربية ما ألفينا التنزيل العزيز يميل بالمركب المزجي الى أوزان عربية رشيقة فأصار «ميكائيل» الى ميكال ، و «جبرائيل» الى « جبريل » وحمل الزنجبيل على السلسبيل ، والسجيل على الشريب ، وهي من المركبات المزجية في لغاتها ، والخصيصة في اللغة تعني قاعدة عامة مطردة في كثير من مفردات اللغة وتراكيبها ولا تعني كلمات معدودة أو تسميات محدودة أو مستعارة مقصودة ، وينبغي لنا أن نذكر في هذا المقام ان للعربية خصيصة الكسع واضافة الكواسع وهي الحاق حرف أو حرفين او ثلاثة بآخر الكلمة ، كالفعم والفعمل ، والحلق والحلقوم ، والضيف والضيفن والابن والابنم ، والعندليب والزمهرير ، والشقحطب(١٠) ، وهو كما في القاموس للفيروزآبادى « كسفرجل [في الوزن] : الكبش له قرنان أو أربعة كل منها كشق حطب جمعه شقاحط وشقاطب » · وجاء في لسان العرب « شقحطب : كبش شقحطب ذو قرنين منكرين كأنه شق حطب · أبو عمرو : الشقحطب : الكبش الذي له اربعة قرون ·الازهرى : هذا حرف صحيح » ، وأصله في الصحاح للجوهري « كبش شقحطب أي ذو قرنين منكرين كأنه شق حطب » · فهذا التأويل البعيد هو الذي أطمعهم في اعتداد النحت موجودا في اللغة العربية ، أعجبهم التأويل « شق حطب » ولم تعنهم سخافة المعني ، كأن الحطب مألوف الشق وكأن الشق يشبه القرن دائما مع أن الحطب هو ما أعد من الشجر شبوبا للنار ووقودا ،ومنه الشوك على اختلاف أنواعه ، فمن الحطب ما يجوز أن يشبه القرن ، فلماذا لم يقولوا «قرن شقحطب» و «قرون شقاطب أو شقاحط» ؟ بل قالوا : « كبش شقحطب » فوصفوا الكبش لا القرن ؟ لا شك في أن تأويلهم وتحليلهم متهافتان ، فيجوز أن تكون كلمة شقحطب مكسوعة بحرف أو أكثر كما كسع لفظ « العندليب » و « العندليل » بمعنى واحد ، جاء في لسان العرب » والعندليل : طائر يصوت ألوانا ، والبلبل يعندل أى يصوت ، وعندل الهدهد : اذا صوت عندلة ·· العندليب : طائر أصغر من العصفور ، قال ابن الاعرابي : هو البلبل ، وقال الجوهرى : هو الهزار(١١) ، وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : عليكم بشعر الاعشى فانه بمنزلة البازى يصيد ما بين الكركي والعندليب ، وهو طائر أصغر من العصفور ، وقال الليث : هو طائر يصوت ألوانا · قال الازهرى : وجعلته رباعيا لان أصله (العندل) ثم مد بياء وكسعت بلام مكررة ثم قلبت باءا ، وأنشد لبعض شعراء غنى :

والعنادليل اذا زقا في جنة   خير وأحسن من زقاء الدخـــل

والجمع العنادل » • فان لم يكن الشقحطب مكسوعا كالعندليل والعندليب فهو مأخوذ من لغة أخرى وكان كلمتين فجعله العرب كلمة واحدة كالسلحفاة والزمردة والزغردة والبرنسا والبرنساء(١٢) ، وورد في لسان العرب « والبرنسا والبرنساء: ابن آدم ، يقال:ماادري أي البرنساء هو؟ويقال: ما أدري اي برنساء هو وأي برناساء هو وأي البرنساء هو؟ معناه : ما أدري أي الناس هو ؟ والبرنساء : النـاس ••• والـولد بالنبطيـــة برونسا » • فاللغويون العرب اعتلوا « البرنسا » و« البرناساء » كلمة واحدة مع أنها في الاصل كلمتان هما « بر » السريانية الآرامية بمعنى « الابن » و « ناشا » السريانية الآرامية بمعنى الناس(١٣)، فالمعنى « ابن الناس » أي ابن الانسان • والحمد لله على أنهم لم يجعلوها منحوتة من « بر النساء » أي أحسن اليهن ورعاهن على تأويل ان الرجل يرعى المرأة في الغالب فهو بار النساء !! •

وانما بسطنا الكلام هنا على « النحت » تمهيدا لكلامنا على مشكلات لغة العصر المحتاجة الى التوسع والتحرر والانطلاق لتقوم بما عليها من مصطلحات في العلوم والفنون والآداب لا تحصى كثرة ، ولا تستقصى ، لان الحضـارة الغربية لا تزال تسرع الخطا وتطوي مسافات الاختراع والابداع والابتداع طيا ، فمئات الكتب العلمية وعشرات الكتب الفنية على اختلاف العلوم والفنون قد أوجب التعليم الحديث والتحضر والتمدن دراستها وتعلم ما فيها وتدريسها وتعليم ما فيها ، في الكليات والمعاهد والمدارس في جميع الاقطار العربية ، وعامتها ذوات مصطلحات جديدة بالنسبة الى مسمياتهـا ، وكان المعلمـون والمدرسون والاساتذة يترجمـون تلك المصطلحـات كل على حـدة وبتفـرد واستقلال ، وكان قليل منهم يرى صعوبة الترجمة لاستلزامها اتقان اللغة العربية والعلم بمفرداتها ، وهو ما لا يطيقونه فكانوا يعربون المصطلحـات العلمية والمصطلحات الفنية ، والمصطلحات الادبية أيضا ، ويتهمون العربية بالعجز والتقصير ، والتخلف في المسير ، فحدثـت من كل ذلك بلبلة في المصطلحات والآراء وفي مستقبل اللغة العربية ، ونشأة فكرة ان اللغة العربية عاجزة عن القيام بما يستوجبه العصر العلمي الحديث من الآراء والاسمـاء وكثر في اللغة العربية السقط والغلط لما ذكرنا آنفا من أن المتقنين للغـات الاعجمية للشعوب المتمدنة لم يلزموا أنفسهم اتقان اللغة العربيـة تهاونـا بها واستهانة بأهلها مع انها كانت — ولا تزال كذلك — مرآة الحضـارة وسناد الامة العربية ، وعماد القومية ، وحفاظ التراث العلمي القديم والآداب العربية على تباين موضوعاتها ، وضروبها وأنواعها ، وظهرت في الصحـف والمجلات وكتب القصص «والروايات» لغة عربية جديدة ، فيها مجاز مقتبس جديد ، واستعارة مقتبسة جديدة ، وألوان من التعابير ، كان فيها الغث

والسمين ، والخطأ والصحيح ، والجميل والقبيح ، فضلا عن المصطلحات التى اتحدت معانيها ومقاصدها واختلفت ألفاظها والدلالات عليها في اللغة العربية •

وحملت الغيرة على الامة العربية ولغتها آحادا من العلماء والادباء الفوقة على نقد المصطلحات الركيكة والمعربة واقتراح الاستبدال بها مع ذكر البدل، وعلى نقد التعابير الفاسدة ، والكلمات المستعملة في غير مواضعها ،والاشتقاقات المباينة لطبيعة اللغة العربية ونشرت فى ذلك مقالات في الصحف والمجلات وألفت رسائل وكتب ، ونشأ جدال بين العلماء والادباء أنفسهم في الموضوع بعينه ، ورأى أولو الامر في الدول العربية ان انشاء مجامع للغة العربية قد أصبح ضرورة وحاجة ماسة لابد منها ، ولا مندوحة عن قضائها ، فأنشىء المجمع العلمى العربى بدمشق ، ثم أنشىء المجمع العلمى العراقى ، ونشر كل مجمع لنفسه مجلة تعالج مشكلات اللغة ، وتقترح مصطلحات جديدة ، وتقوم ما فسد من التعابير ، وتدعو الى أن اللغة العربية مليئة(١٤) بما يراد منها في اداء المعاني الحديثة على اختلافها ، وكثرتها ، وتسمية ما تحتويه الحضارة الجديدة والاختراعات والابتداعات من ألوف أسماء ، في مختلف العلوم والفنون والآداب ، وقد ألفت ونشرت كتب في ذلك ورسائل مشهورة متداولة ، وكانت أقطار من البلاد العربية متخلفة كثيرا عن هذه النهضة اللغوية لشدة وطأة الاستعباد المسمى خداعا بالاستعمار(١٥) الذى هو شبيه بالاستثمار في أصل اللغة ، ومن تلك الاقطار « المغرب » ، وما كادت تشم رائحة الاستقلال السياسى حتى أخذت تنشىء مراكز للتعريب وتريد بها جعل المصطلحات الاعجمية عربية الالفاظ ، وعقدت مؤتمرات له ، ونشرت معجمات للمصطلحات منها معجم الكيمياء ومعجم الفيزياء ومعجم الرياضيات و « الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية » ، وقد نشرت فيما نشرته بالطبع « المستدرك في التعريب » وهو معجم فرنسى عربى ، للكلمة المستعملة في مختلف الامور والشؤون ، وقد كتبت عليه « مصلحة التعريب التابعة للمكتب المغربى للمراقبة والتصدير » بالدار البيضاء •

وأطرف ما ألف في معالجة اللغة العربية العصرية كتاب فرنسى اللغة جامع شامل ، ألفه الاستاذ فنسنت مونتي Vincint Monteil الفرنسى ونشره سنة « ١٩٦٠ » وسماه « العربية الحديثة » L'arabe modrne وقد رجع في تأليفه الى مئة(١٦) وثلاثة وستين مرجعاعربيا ومئةوواحد وستين مرجعا أعجمي اللغة فجاء الكتاب في ثلاث مئة وست وثمانين صفحة من القطع الوسط ، فهو أوسع كتاب في هذا الباب منذ ظهور مشكلة اللغة العربية العصرية حتى اليوم ، وقد تكلم فيه على الكلمات المولدة والانبعاث اللغوى والقومية العربية وصعوبة الكتابة العربية بحروفها المعلومة والطباعة والتجديد والتيسير ، والاصوات العربية وأحرف العلة والاعراب والنطق والمستعار والاغلاط والاوهام والنصوص اللغوية وتأثير اللهجات والادب الشعبى والسبيل

الاقوم ، والثقافة العربية المزدوجة والنقل والترجمة والتعليم والتدريس للعرب وباللغة العربية والاشتقاق ومجاله ، وتخصيص الهيكل اللغوى فى العبارة والصفات الناشئة عن النسبة والتأنيث والازدواج والجمع والنحت والاصول والحدود والدواخل والكواسع والتعريب أى نقل الكلمات الاعجمية الى أوزان عربية فى الغالب والدلالات والمعانى والاصلاح اللغوي والرمزية والايماء ، والكواسع اللاتينية « اللطينية » للمصطلحات وخاصة الكيميائية ، والوضع والتسجيل والمجامع العلمية والمجامع اللغوية العربية والمؤسسات الثقافية و « الصحافة » ، والمؤتمرات العلمية العربية ، والمعجمات ،واضطراب الدلالات ، واحصاء الحدود واعتبار التحديد ، والترادف ، والتعدد المعنوى وأسماء الالوان وتأليف الكلام وتركيبه ، والتصريح والتلميح والتعريض والجواز والحدس والتساهل والاتساع والنفى والحصر والزمان والصورة والمظهر ، الى غير ذلك مما يطول تعداده وخصوصا الاساليب ومنها أسلوب الخطابة وأسلوب « المحاضرات » وأسلوب الصحافة وأسلوب النشر وأسلوب القضاء ، واسلوب الاقتصاد واسلوب الجدل واسلوب التأديب والتهذيب وأسلوب النقد الادبي والاسلوب العلمي والاسلوب الفلسفي وأسلوب الاقتصاص وأسلوب الخطاب والاسلوب الفنى والاسلوب الحكائى والاسلوب الشعرى ٠

ولعلى أن أهتبل فرصة لاقتباس شيء من الكتاب ونشره فى هذه المجلة مع التعليل أو التعقيب ، فان هذا الموضوع المهم الخاص بمستقبل العربية لا يعالج بمقالة واحدة ، ومن الله تعالى التوفيق ٠

---

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، تأليف جمال الدين الشيال «ص ٤٩ وما بعدها» نشرته دار الفكر العربى سنة ١٩٥١ وطبع فى مطبعة الاعتماد بالقاهرة ٠

(٢) المرجع المذكور ٠

(٣) اشترط اللغويون في استعمال « الطائل » للكثرة والفائدة أن يكون في منفية كأن يقال : هذا لا طائل فيه ولم يحل منه لطائل ، ومع ذلك لم يلتزم المولدون قولهم ، فكيف نلتزم ذلك في « الطائلة »؟

(٤) فاتهم ان يضعوا له كلمة « القناة » العربية فانها جاء في أحد معانيها بمعنى القنال الفرنجية ٠

(٥) الافراد جمع قلة للفرد ، وان كان مخالفا للقياس الذى وضعوه ، من كون « فعل » الصحيح الاحرف لا يجمع على أفعال ، الا ما شذ كفرخ وأفراخ وزند وأزناد ، الا أن واقع

الاستعمال وكثرة الامثال نقضا هذه القاعدة ·

(٦) يشترط في المصطلح أن يتفق عليه عارفان او اكثر منهما ، ولا يجوز للواحد وحده أن يسمي ما يستعمله هو نفسه مصطلحا ·

(٧) ورد « استهدفه » في نهج البلاغة على رواية قياسا على وجود « مستهدف » اسم مفعولٌ ، في الكتاب المذكور ، راجع مجمع البحرين للطريحي ·

(٨) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب « ٢ : ٤٩ ـ ٥٠ نشر الدكتور جمال الدين الشيال بالمطبعة الاميرية المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ » ·

(٩) راجع كتاب « دراسات في فقه اللغة العربية ص ٣٠٧ »·

(١٠) ممن اخذ بمذهب ابن جني في وجود النحت في الكلم العربي ظهير الدين أبو علي الحسن بن الخطير الفارسي المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٨ وهو فارسي الاصل أيضا وان ادعى انه من ولد النعمان بن المنذر ، سأله البلطي عما وقع في الفاظ العرب على مثال شقحطب فقال : هذا يسمى في كلام العرب « المنحوت » ومعناه ان الكلمة منحوتة من كلمتين كما ينحت النجار خشبتين ويجعلها واحدا ، فشقحطب منحوت من (شق) و (حطب) · فسأله البلطي أن يثبت له ما وقع له على هذا المثال اليه ، ليعول في معرفتها عليه ، فاملاها عليه في نحو عشرين ورقة من حفظه وسماها (كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب) · « معجم الادباء ج ٢ ص ٦٦ » ·

(١١) البلبل مثل العصفور في الحجم ويختلف عنه في اللون وطول الذيل ، والهزار معروف في العراق وهو أكبر من العصفور ولا يختلف عنه في اللون ويصوت الوانا والحانا شهية الى السمع ·

(١٢) في المعرب لابن الجواليقي طائفة من المركبات المزجية الاعجمية ، كالابريق والسكرجة والاصطفلينة والبرسام والبستان والبندرقة والبرطلة والبارجاه والبازيار والتجفاف ·

(١٢) في المعرب لابن الجواليقي طائفة من المركبات المزجية الاعجمية ، كالابريق والسكرجة والاصطفلينة والبرسام والبستان والبندرقة والبرطلة والبارجاه والبازيار والتجفاف ·

(١٣) المعرب « ص ٤٥ » وغيره · وجاء في الصفحة ٦٨ من المعرب « قال أبو حاتم قال الاصمعي : بر : ابن »·

(١٤) المليئة : القديرة والمستطيعة والوافية الكافية ، ومذكرها الملي ، فليس معناها « الملأى » كما يستعمله كتاب العصر ، وكذلك « الملي » فليس معناه « الملآن » ·

(١٥) الاستعمار كلمة قرآنية في فعلها وقد دنس استعمالها هؤلاء الغربيون فوضعوها في غير موضعها ، قال تعالى في سورة هود « وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب » الآية ٦١ ·

(١٦) دأبت مجلة المجمع العلمي العراقي على كتابة المائة بهذه الصورة أخذا بالتجديد المفيد ونبذا للتقديم الباعث على اللبس في القراءة مع خلوه من الفائدة ·

نظرية العدالة الاجتماعية في الفكر السياسي العربي الاسلامي

الدكتور فاضل زكي محمد

تقوم نظرية العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية على مقومات أصيلة. وهذه المقومات تنبع من روح الحضارة العربية الاسلامية .

ونظرية العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية ترمي في حقيقتها الى تحقيق هدف أعلى وذلك هو انصاف الفرد وانصاف المجموع والذى ينجم عنه سعادة الفرد وسعادة المجموع معا وفي آن واحد. ونظرية العدالة الاجتماعية حين تعنى بأمر وسعادة المجموع ، وبالافراد وسعادتهم ، فانها تعتبر هؤلاء الافراد كالاجزاء المتماسكة في البنيان المرصوص الذى يشد بعضه بعضا .

ونظرية العدالة الاجتماعية تنظر الى المجتمع نظرة كلية شاملة . وبعبارة أخرى ان العدالة الاجتماعية لا تقتصر على جانب او جوانب معينة من حياة المجتمع وانما تضم كل جوانبه بما فيها العدالة الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والسياسية .

فالعدالة في مفهومها الاجتماعي معناها ان يأخذ كل فرد حقه ونصيبه في مجتمعه من دون أن يؤثر او يصطدم ذلك بحق ونصيب الفرد الاخر بوجه خاص وحق ونصيب الافراد الاخرين بوجه عام . وخير تفسير للعدالة الاجتماعية في مفهومها الشامل هو القول بأن المجتمع الذى يقوم التعامل فيه على أساس أن ينال كل فرد فيه حقه ونصيبه في الحياة دونما اجحاف وانكار لهذا الحق ، ودونما اعتداء أو أذى عليه ، هو مجتمع يقوم في حقيقته وواقعه على التعاون والتكافل والحق والخير . ومثل هذا المجتمع الذى يسوده التعاون والتكافل والحق والخير هو مجتمع الحضارة والانسانية .

والعدالة في مفهومها الاقتصادى تعني تكافوء الفرص أمام الافراد وتمنع قيام الاستغلال من اية جهة في المجتمع . ذلك ان العدل الاقتصادى في روح الشريعة العربية الاسلامية هو ان يتنعم الافراد جميعا في الثروة العامة لا ان يتنعم البعض القليل على حساب الاغلبية الساحقة في المجتمع .

وبعبارة أخرى ، ان المجتمع في الفكر العربي الاسلامي من زاويته الاقتصادية لا يبيح لاى فرد ان يعيش على حساب الاخرين • لان المجتمع ، كما قلنا ، هو بمثابة البنيان المرصوص الذى يشد بعضه بعضا • الكل يعمل ما عليه لاقامة وادامة هذا البنيان ، وان أية زلة من قبل أى فرد ستترك اثرها فى العمل على تقويض اركان هذا المجتمع •

أما العدالة فى معناها القانوني فتعني ان يعامل جميع الافراد معاملة متساوية امام القانون • أى ان القانون ، بعبارة اخرى ، لايجوز ان يطبق على فريق دون فريق او فرد دون اخر • ثم انه اذا اسيء تطبيق القانون على فرد او مجموعة وشعر ذلك الفرد او تلك المجموعة باجحاف فى معاملتهم ، فمن حقهم والحالة هذه ان يعرضوا ظلامتهم كي يدرس امرهم ووضعهم القانوني مجددا : وكل ذلك ليسترد صاحب الحق حقه • ومن هنا يتبين ان العدالة من الناحية القانونية والعملية توجب ان يكون القاضي موضوعيا حياديا •

اما من الناحية السياسية ، فالعدالة الاجتماعية فى الفكر العربى الاسلامي تعنى الحرية وتعني حق مناقشة آراء الاخرين ونقدها نقدا بناء يحقق الصالح العام • وفى كل هذه الاحوال يكون حق المنتقد مضمونا ، اى دون ان يجلب عليه ذلك اعتداء اية جهة : حكومية كانت أم أهلية •

والذى يهمنا هنا هو ان نوضح معنى العدالة الاجتماعية من زاويتها السياسية ــ بصورة خاصة ــ طالما ان محور هذا البحث يدور حول العدالة الاجتماعية ــ السياسية •

ان السؤال الذى يحتل أهمية خاصة فى هذا المجال هو كيف تقوم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين (او الراعي والرعية) فى ظل العدالة الاجتماعية السياسية ؟ وبعبارة موجزة ، ان أى بحث تفصيلي يجيب على العلاقة بين الراعي والرعية وبالتالى على مضمون العدالة الاجتماعيةالسياسية يستلزم منا البحث في مقدمات نظرية الحكم في التفكير العربي الاسلامي • والواقع ان نظرية الحكم فى النطاق الذى ترسمه العدالة الاجتماعية السياسية تتخذ من المبادىء التالية اركانا اساسية لها • وهذه الاركان الاساسية هى :

(١) الحرية السياسية • وتعتبر الحرية فى نظرية الحكم العربى الاسلامى الركيزة الاولى لاحلال العدالة الاجتماعية بوجهها العام •

وحينما نحلل مفهوم الحرية فى نظرية الحكم العربى الاسلامى نجد انها تقوم على القاعدة التى تقول ان الحرية جزء اساسى من تقدم وسعادة الافراد والمجموع فى وقت واحد • فالفرد لا يستطيع ان يتضلع فى مسئولياته السياسية تجاه حكومته ومجتمعه خير تضلع الا اذا فتحت امامه ابواب الحرية •

كل ذلك من جهة ومن الجهة الاخرى فان الحرية كما جاءت فى المفهوم

العربى الاسلامى لا تعنى انها حرية لا تخضع لتنظيم ولا لفلسفة عامة • على العكس فان الحرية السياسية تنظمها فلسفة عامة تقوم فى أساسها على القانون المتمثل فى الشريعة الاسلامية •

ومن أهم ما تؤكد عليه هذه الشريعة هو ان الحرية السياسية يجب أن تكون موجهة نحو الفضيلة والخير الانسانى • ومن هنا نستطيع ان نقول ان الحرية التى تقوم على الفضيلة والخير هى حرية تقبل الصراحة ـ لا المراوغة ـ فى العمل السياسى ، والاستقامة ، لا المخاتلة والمباغتة • وهذا بعينه هو المقياس الخلقى فى الفكر العربى الاسلامى للعمل السياسى وللحرية السياسية •

وتضم الحرية السياسية :

(أ) حرية الافراد • والمقصود بها تبادل الاراء وتقليب وجهات النظر وابداء كل رأيه دونما خوف أو رهبة ويطلق على الادلاء بالاراء «بالاجتهاد» •

(ب) حرية المجموع • وتعنى ان تفاعل الاراء فى المجتمع الاسلامي الذى يقوم على الحرية يؤدي الى تكوين رأي عام يمثل المجموع • وهذا بحد ذاته ما يسمى بالارادة العامة • والجدير بالذكر هنا ان الارادة العامة لها المكان المحترم من حيث انها هى التى تقرر من يتولى رياسة الامة ما رسمته الشريعة الاسلامية الانسانية •

وحسبنا ان نشير هنا الى ان هذا النوع من الحرية يمثل اسمى انواع العدالة السياسية التى هى جزء من فلسفة العدالة الاجتماعية العامة • وعلى هذا الاساس جاء القانون الاسلامى المتمثل فى القرآن الكريم ليقول « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل • » وجاء قول مؤسس الدولة العربية الاسلامية الرسول محمد (ص) ما معناه ان السعادة تظل ملازمة الامة ما بقيت تحكم بالحق والعدل • وقد رأى الفيلسوف العربى ابن خلدون ان العدل السياسى يعمل على تحقيق التقدم • فهو يقول ان الدولة التى تقوم على العدل لها ان تأمل تحقيق الرقى والحضارة • وعلى العكس فان الدولة التى تقوم على الظلم لها ان تأمل الانحطاط السريع فالفناء •

(٢) المساواة بين الافراد والطبقات • والمساواة فى الحياة السياسية العربية الاسلامية تعنى ان لا تمييز بين الافراد على أساس الجاه او الغنى • وتعنى كذلك ان لا تمييز على أساس اللون او العنصر • كما تعنى ايضا المعاملة المتساوية امام القانون • وبتعبير ادق ان ليس هناك فرق بين الانسان والانسان فى الحياة الاجتماعية والسياسية الا بما يمتازون على غيرهم من كفاءة وخدمة للمجتمع •

والذى يحلل هذه القيم والآراء يجد ان النظرية السياسية العربية الاسلامية تقوم على الخير وتؤمن بقيمة الافراد وتعمل على اسعادهم • وحسبنا ان نشير هنا ان هذه القيم هى بحد ذاتها ركائز اساسية لمفهوم العدالة الاجتماعية العام • ولهذا جاء الدستور الاسلامى ليؤكد ان لا فرق

بين اعجمي وعربي الا بالتقوى . والمقصود بذلك من الناحية السياسية المساواة في المعاملة القانونية والسياسية ، أي عدم التمييز بين الافراد الا بمقدار « تقواهم » أي صلاحهم واستقامتهم وخدمتهم لربهم ولانفسهم ومجتمعهم . ولهذا كله ايضا جاء المفكرون والساسة ليؤكدوا أهمية هذه الناحية في الحياة السياسية . ومن يتمعن في دراسة الخطاب الذي القاه الخليفة المفكر ابو بكر ، عقب بيعته ، يتبين كيف ان مبدأ الانصاف في الوقوف بجانب المظلوم وأخذ الحق من الظالم يمثل اعلى درجات المساواة السياسية نظرية وتطبيقا . فقول الخليفة ابو بكر « الا ان اضعفكم عندي القوي حتى اخذ الحق منه ، وأقواكم عندي الضعيف حتى اخذ الحق له » ، بمعنى ادق ، هو توكيد للمساواة في اعلى درجاتها بوجه خاص ، وتحقيق لهدف انساني سام وذلك هو العدالة الاجتماعية بوجه عام .

(٣) المسئولية . وتعتبر المسئولية في نظرية الحكم العربي الاسلامي ناحية مهمة وركنا اساسيا من اركان هذه النظرية . ولا يمكن تفهم المسؤولية السياسية في المفهوم العربي الاسلامي الا بالنظر اليها كسلسلة متكاملة الحلقات . ومعنى ذلك ان المسئولية العامة تتداخل في المسئولية الخاصة . وهذا ما يجعلنا ننظر الى المجتمع النظرة الى البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا . ومن هنا نفهم ايضا ان الفكر السياسي العربي الاسلامي يقوم على فكرة اسعاد الفرد في مجتمعه السياسي ويوجهه نحو الطريق الذي يؤدي به الى خدمة مجتمعه في وقت واحد . وهذا بالطبع لا يتأتى الا بتربية الفرد سياسيا تربية يقدر فيها اهميته بحيث يشعر انه فرد في مجتمع متكامل له حقوقه من جهة وله واجباته تجاه مجتمعه من جهة أخرى . وبهذا يتحقق المعنى الحقيقي للحكمة القائلة « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ان ما تقدم يؤدي بنا الى القول ان المجتمع وفق نظرية الحكم العربي الاسلامي هو مجتمع متماسك قاعدته « التكافل الاجتماعي » . اى ان الفرد يكفل المجتمع والمجتمع يكفل الفرد . كل هذا من جهة . ومن الجهة الاخرى فان المسئولية السياسية لا تنحصر في القائد السياسي دون المواطنين وانما هي مسئولية القائد والمواطن معا . وهذه ناحية مهمة جديرة بالدرس والتمحيص . لانها في جوهرها تقوم على منطق الحرية والترابط بينها وبين المسئولية . ذلك ان القائد السياسي لا يستطيع ان ينفرد في مسئوليته دون ان يستند على تأييد ورضا المواطنين . وهذا الرضا بحد ذاته ما هو الا مسئولية المجتمع السياسي العامة في الدولة . وهو تماما الوجه السياسي من العدالة الاجتماعية . ولهذا نجد ان ابن خلدون المفكر العربي المشهور قد أكد على هذه الناحية بحيث رأى ان العلاقة وثيقة بين تحمل المسئولية وبين الرقي والعمران . كما رأى الفيلسوف الفارابي نفس هذه الناحية ايضا . وهذا يتبين لنا من قوله بما معناه ان السلطة التي تفتقر الى الحكمة

والتعقل والمسئولية هي سلطة تؤول الى الخراب والدمار • ويسمي الفارابي مثل هذا النوع من السلطة بالسلطة الجاهلة • اما السلطة التي تقوم على الحكمة والتعقل والمسئولية فانها سلطة تؤول الى الرقي والسعادة • وبينما يربط ابن خلدون بين المسئولية وبين تقدم الامة ورقيها ، نجد ان ابن باجة يرى ان ايفاء الحاكم بمسئوليته يجب أن يكون الاســاس في التمييز بين القيادة والحكومة الصالحة والطالحة • ويلتقي الماوردي مع ابن باجة في هذه الزاوية بالذات ، الا انه يضيف فيؤكد على ان الحاكم العادل يجب أن يكون مطاعا من قبل الرعية •

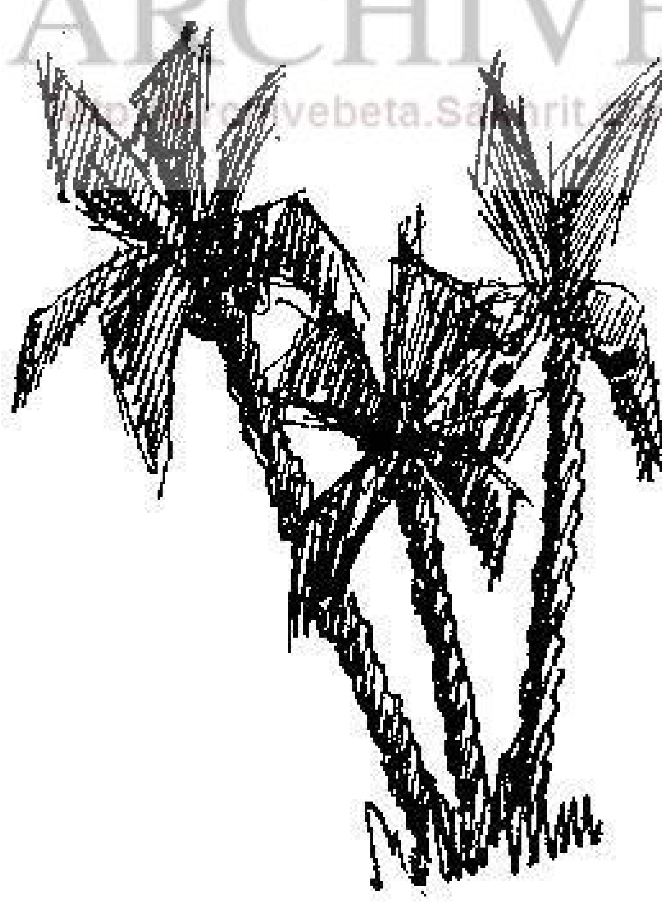
وهكذا يمكن القول على ضوء ما تقدم ان حكم الحاكمين يجب ان يقوم على توزيع المسئولية بينه وبين المحكومين او المواطنين • فمسئولية الحاكم تتجلى في أن يكون حكمه منبثقا من فلسفة تجعل منه كفرد وتجعل من كل فرد آخر ان يعمل في نطاق دائرتين : دائرة مسئوليته الخاصة تجاه نفسه والتي توجب عليه ان يعلم حقوقه ودوره في المجتمع ، ومسئوليته العامة تجاه مجتمعه والتي توجب عليه معرفة واجباته تجـاه مجتمعه السياسي بوجه عام •

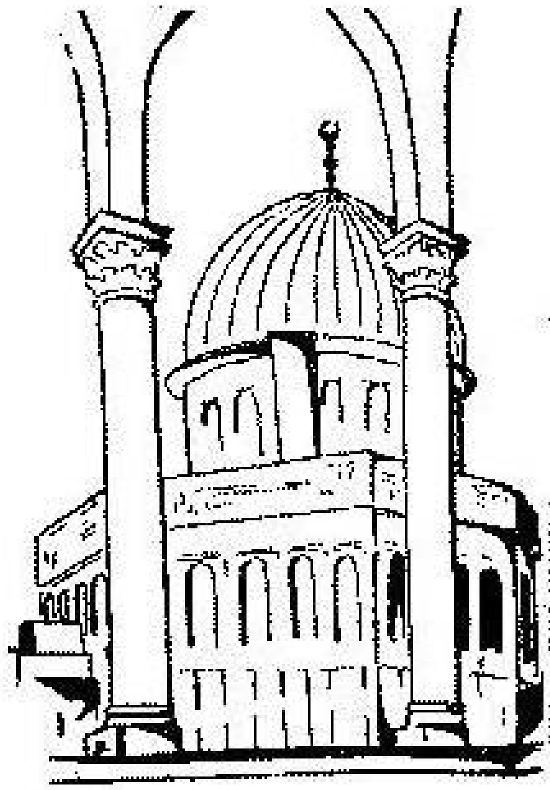
(٤) القيادة الجماعية • وتتمثل القيادة الجماعية في نظرية الحكم العربي الاسلامي « بمبدأ الشوري » • ومبدأ الشوري يعني ادبيا تبــادل الرأي • أما معناه السياسي فهو التفكير الجمعي في معالجة وحل المشاكل السياسية • والقيادة الجماعية تقوم على مبدأ ذي أهميــة كبرى في حياة المجتمع السياسية • فهو يمنع الاستئثار بالسلطة من قبل أي فرد ، من ناحية ، وهو يعمل الى الوصول الى القرارات التي تقل فيها الاخطاء ويزداد فيها التروي والمناقشة وتقليب وجهات النظر المختلفة •

وحسبنا أن نشير هنا ان مبدأ الشوري او القيادة الجماعية يمثل لنا الحكم الذي يقوم على التوافق والرضا بين الحاكم والمحكوم وهذا ما يجعل من النظرية العربية الاسلامية نظرية تقوم على الحرية والاتفاق • ولهذا نجد ان مؤسس الدولة العربية الاسلامية الرسول محمد (ص) قد اكد على ذلك تأكيدا كليا • فيروي لنا ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » ، ان الرسول محمد (ص) لم يكن ليكتفي بتطبيق مبدأ الشوري في جميع قراراته وحسب ، وانما أكد عليه كمبدأ أساسي من مبادىء نظرية الحكم الاسلامي • ويروي لنا كذلك الرازي في كتابه « مفاتيح الغيب » ، « ان الرسول محمد (ص) امر بالشوري لا لانه محتاج الى آراء من يستشيرهم ، ولكن لاجل انه اذا شاورهم في الامر اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الاصلح ، فتصير الارواح متطابقة متوافقة على تحصيل اصلح الاوجه فيها • » • والواقع ان تأكيد الرسول القائد جاء تنفيذا للقانون الاسلامي أو الشريعة الاسلامية حيث تقول الاية الكريمة : « وشاورهم في الامر » •

وهكذا نجد ان « نظرية العدالة الاجتمــاعية » بالنظر لما تحتويه من

افكار سياسية غنية ،تستدعى التتبع المتواصل والدراسة العلمية المستفيضة للتعرف على كل دقائقها وزواياها بغية بناء مجتمع عربي حديث قوى اصيل يستمد قوته واصالته من قيم حضارته العربية الاسلامية السامية ٠





« مقتطفات من قصيدة لم تنشر للشاعرة السيدة أم نزار الملائكة المولودة في بغداد سنة ١٩٠٨م المتوفاة في لندن بعد عملية جراحية لم تنجح سنة ١٩٥٣ . وكانت قد نظمت هذه القصيدة خلال الحرب التي خاضتها الجيوش العربية لانقاذ فلسطين سنة ١٩٤٨ »

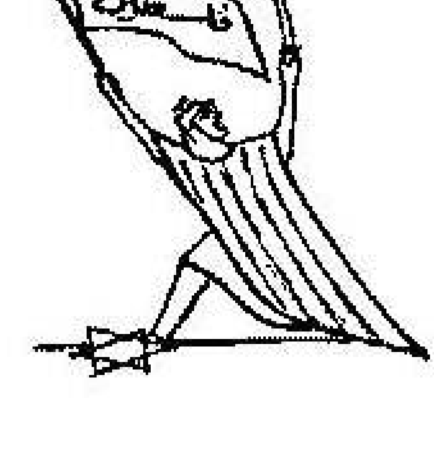
إباء الأشلاء

السيدة أم نزار الملائكة

شددي العنف على الباغين اذلالا وقهرا
شددي الضيق على الطاغين زيدي القيد عسرا
لا تليني لأفاع أمعنت لدغا وغدرا
لا تسرقي للمضلين وان جاءوك أسرى
دمريهم حطمي طغيانهم حتى يخروا
أرهقيهم أبدلي أحلامهم يأسا وخسرا
جرعيهم أكؤسا من بغيهم تطفح مرا
امنحيهم من فلسطين عناء مستمرا

●

أمة البأس أعيدي ربوات البأس حمرا
أطبقي الكفين هدي الرجس تقتيلا ودحرا
لا ترقي لصهاييين عتوا في القدس شرا
أبعدي الرأفة عن افئدة تطفح طهرا
ليس للرأفة بعد الان أن تعقب خيرا
قتليهم فالاذلاء يرون اللين خسرا
أظهري الحق على الباطل تبيانا وزجرا
ليس ما تأتين الا النبل والعدل الاغرا
اذكري الاهوال تنهال على الساحات سكرى
اذكري الاطفال تساقط ارهابا وذعرا
اسألي القدس ينبئك بما كان ومرا
اسأليه مسجدا مسترهقا يشكو وديرا



اسألي الغمة والليل الدجي المكفهرا
اسألي الاشلاء فالاشلاء بالقصة ادرى
كيف مر الدهر بالقدس وكيف ارتد نكرا
كيف رفت ومضات النسور بالساحة حيرى

●

عاصف سوف يعم السوح تصخابا وذعرا
عاصف سوف يحيل الكون ـ اما اهتيج ـ قفرا
أي فلسطين الا فلينشبوا نابا وظفرا
وليمدوا شرك الطغيان طيا ثم نشرا
وليمنوا طغمة الشذاذ في القدس مقرا
ليس من شأن دماء العرب ان تذهب هدرا

●

لن تكوني ، كعبة الاسراء ، للعادين وكرا
لن تصيري للمغيرين على الامجاد جسرا
أنت سجلت على غرة بأس العرب سفرا
أنت وطدت من الامجاد حصنا مشمخرا
أنت انت النصر والعزة انت النبل طرا
فليصوا مسمع الدنيا تفاهات وهجرا

●

من أباح الغاب للاغراب كي يهديه حكرا ؟
من دعا الغربي ان يلعب في الصحراء دورا ؟
ايها الغرب دع الغدر فقد حملت امرا
خذ طريق الحق واجنح للهدى واستدن غفرا
كيف خنت القدس فاستهدفته صدرا ونحرا ؟
كيف اغريت على سكب الدم الطاهر غدرا ؟
هذه الدار لها اهل أرادوا العيش نضرا
هذه السوح فراديس سمت عزا وطهرا
هذه الجنات كانت للهدى مغدى ومسرى
كيف تنصاع الى صهيون او توليه أمرا ؟

●

عالم الظلم استفق فالشرق يستوفز وترا
طال ليل العبث واجتثت فروع الصبر قسرا
لم نعد نقوى على الطغيان تضليلا وسترا
سوف نزجيها لظى حمراء تصلي الغرب سعرا
كان ما قد فات من حلم سما بالعرب فخرا

انه الظلم يحيل القلب مهما لان صخرا
انها الغمرة تجتاح النهى ترديه سكرا

●

أي فلسطين وان عانيت ارهاقا وجورا
انها خاتمة الالام أشجاها ممرا
لملمي الاشلاء ولتضفي على الغمة سترا
ولتجيلي الطرف في البيد تري في البيد أمرا
ها هي الساحات افواج توالى اثر اخرى
ها هي الابطال قد ضجت الى الهيجاء حسرى
فلتعديها فلسطين ليوم النصر ذخرا

●

ساحة الاسراء لن تلفي بك الفتنة بحرا
لا تسائي لن يكون الهدي للشرك مقرا
احمد منقذك الاسمى سيولي العرب نصرا
فيك من انوار عيسى ما يحيل الليل فجرا
وعلى آفاقك الزهر سنا النصر استقرا
فاملأي الاكواب اضعافا وردي السهم عشرا
وامنحي هذي الصهاينة بقعر البحر قبرا
أوردنيها مورد الهلكة او ترتد حسرى
ادفنيها في هوى الذل وساءت مستقرا
اقذفيها في جحيم تحشر الغاوين حشرا

التراث والتراب المغربي

أنور الجندي

في معركة التحدي ورد الفعل ركز « الفكر المغربي » اهتماماته الضخمة على ماضي المغرب وامجاده ، وعلى التراب المغربي ووحدته ، واحتضن التراث والتراب وأشاد وتغنى الكتاب بهما ردا على الدعوات الباطلة التي أثارتها دعوات التغريب والفرنسة الفكرية ، وصيحات الازدراء والسخرية التي وجهت الى « التاريخ » و « الارض » المغربية .

وقد برز من أجل هذا في كل قطر من أقطار المغرب دعاء أقرب ما يكون الى الادب القومي الاقليمي المحض ، غير أنه لم يكن اقليميا بالصورة التي تتنكر لعروبة المغرب ، أو لوحدته ، أو للوحدة الكبرى ، أو للثقافة العربية الاسلامية . وانما كانت هذه الاشادة بالامجاد الاقليمية « ضرورة » من ضرورات الدفاع عن الحرية ، والدعوة الى التحرر من أغلال الفرنسة وتجريد المغرب من مقوماته ومحاولة ادماجه في قومية أخرى غير قوميته . واذا كانت تونس دائما تذكر القرويين ، كما يذكر المغرب الزيتونة ، كانت الاقطار المجزأة اسميا تتلاقى في آلامها وأحداثها ، ولا تتخاصم أو تتناكر لوحدتها الشاملة .

ولقد جرت الدعوة الى كتابة الادب القومي : « أدب المغرب الغني بمناظره الطبيعية الخلابة ، وهذه وديانه وخلجانه وهضابه وسهوله وجباله وغاباته ، وقد كسته الطبيعة وحبته بجمالها الفاتن الذي يلهم من الصور البيانية والاخيلة الشعرية ما تعجز عن التعبير عنه ريشة أمهر المصورين ، وما لو استلهمه أدباؤنا لجاءوا بالمرقص المطرب ، والمعجز المفحم ، الذي يسمو بهم الى مرتبة الخلود .. »(١) .

وتبدو صورة الحب للتراب المغربي في مناجاة علي مصطفى المصراتي لطرابلس : « طرابلس الغرب اسم حلو عذب ، سمعته لاول مرة من أمي وأبي وهما يقصان على مسامعي تاريخ هذا البلد ، وقصص البطولة فيه ، وأدوار الجهاد الوطني لابنائه ، وكانا مشردين مهاجرين فرا من اضطهاد

الاستعمار الظالم مع آلاف المهاجرين وقوافل القادمين على الابل والاقدام قاطعين الصحراء اللافحة، تاركين وطنا مغصوبا قادمين الى أرض مصر الحبيبة قبلة الاحرار • » •

وتحس دائما من كتاب المغرب اعتزازا به ، فهو عند (عبد الله كنون) المغرب الذى فتح الاندلس ، وركز راية العروبة في أرضها ، وحماها وذاد عنها مدى القرون الثمانية التي خفق علمه عليها ، وأسس أكبر دولة عرفها شمال أفريقيا ، اذ كانت تمتد ما بين حدود مصر الغربية الى جنوب أوربا ، وامتازت حضارته بما تحتفظ به من عناصر عربية أصيلة ، فانها وان كانت بحكم نشأتها على الصعيد الافريقي وحول البحر الابيض المتوسط ، لا تخلو من بذور تكوين أولية ترجع الى هذه البيئة الخاصة ، الا أن تأثرها بحضارة دمشق أيام حكم الولاة كان أقوى ، وزادها التفاعل مع حضارة قرطبة أيام حكم المروانيين ، فاصطبغت بالصبغة العربية التي لم تزايلها بعد ، ولئن بقيت الى عهد المرابطين آخذة ومعطية فانها في عهدي الموحدين والمرينين ، كانت صاحبة اليد العليا في الاندلس التي تنطق آثارها المتخلفة عن هذين العهدين بأنها وليدة العظمة الموحدية والعبقرية المرينية ، وعلى ذلك فانه حين كانت موجات دول المماليك التركية تتدفق على مشرق البلاد العربية كان مغربها يتمخض عن دول عربية حسنة الرعاية للتراث العربي والحفاظ عليه •

× × ×

ويجري تمجيد « تونس » على لسان الحبيب بورقيبة ، فهي التي تطل من شرفتها المغربية على أوربا وعلى الشرق ، وسواحلها تستقبل الرجال والاراء المتواردة من الشاطئين ، وهي مرتفع ينتصب حاجزا وسط البحر عندما تعصف فيه عواطف يثيرها البشر ، هذه المكانة الجغرافية الاستثنائية هي بلا شك التي حبت تونس بشخصيتها القوية ورسمت لها مصيرها ، فهي أداة وصل ، وفي امكانها أن تقوم سدا بين العالم الشرقي والعالم الغربي•

وتربة تونس مثقلة بدماء المعارك التي دارت فوقها عبر التاريخ ، وقد تجابه فيها أول الامر الغرب اللاتيني أو الجرماني مع الشرق الفينيقي أو الاسلامي قبل أن يمتزجا •

× × ×

وعنى الكتاب ببحث كلمة (المغرب) • فيرى عبد الوهاب منصور أن الاجداد أطلقوها على ما يقابل المشرق في عرفهم ، وان كانوا لم يحددوا حدوده الشرقية بدقة ، فهو عند فريق منهم يبتدىء من الضفة الغربية لوادي النيل وعند فريق ثان من عقبة السلوم ، وعند فريق ثالث من خليج سرت ، ـ حد إقليمي برقية وطرابلس ـ

وقد يتوسعون في هذا الاطلاق قليلا ، فيجعلون كلمة المغرب شاملة لكل الاراضي الواقعة بالحوض الجنوبي للبحر الابيض المتوسط ، كالاندلس

والجزائر الشرقية (الباليار) وجزائر صقيلية وسردينيا وقرسقة ، كما يجعلون كلمة مغاربة شاملة لسكان هذه الاقطار جميعا فاذا أطلقت غير مضافة ولا موصوفة ، فهي الاراضي التي يتكون منها القسم العربي لشمال أفريقيا فقط ٠

وقد أطلق الجغرافيون على هذه الاراضي أسماء كثيرة من فجر التاريخ الى أيامنا ، مثل ليبيا وأفريقيا الصغرى ، والسلسلة الاطلنطية ، والبوبرية ، وبلاد البربر ، ودعته الهيئات القومية بالمغرب العربي ٠

× × ×

ويرى عبد الكريم غلاب أنه لابد من الايمان بأن همة أهل المغرب قد صنعت منه محطة استقبال وارسال ، وجعلت منه مركز الثقل للحضارة المتجهة نحو الاندلس وحماية هذه الحضارة من فكرة الاسترجاع التي ظلت تراود الاسبانيين ثمانية قرون ، وقد كان دور المغرب هاما في تحمل حماية الفردوس المفقود أربعة قرون أو تزيد ٠

ويقول : نقلنا من حضارة الرومان كل ما لا يدخل في باب الاستعمار ونقلنا علوم اليونان عن طريق العرب ، ونقلنا حضارة العرب ودينهم ولغتهم وأدبهم ، وساهمنا في كل وسائل الحضارة ، ثم رحلنا بحضارتنا هذه مجتازين ، مضيق الحوض الى الاندلس وجنوب فرنسا ، وحمينا هذه الحضارة ما يقرب من ثمانية قرون ، مؤثرين ومتأثرين ، ودعمنا أسس هذه الحضارة في المغرب العربي : في الجزائر وتونس وليبيا ، وانتقلنا بحضارتنا وديننا ولغتنا الى الجنوب ، الى السنغال والسودان ، وكل الحملات التي وجهت لبلادنا باءت بالفشل حتى كان تأخرنا الحضاري سببا في تخلصنا من وسائل المقاومة المادية ، عند ذلك قهرنا وما خضعنا ، ثم بدأنا نقاوم حتى تخلصنا من الاستعمار ٠

× × ×

ولم ير اعجاب وتقدير واعتزاز كاعتزاز المغرب بأعلامه ومؤسساته ، فتونس أحد معاقل العالم الاسلامي الثلاثة (الزيتونة) أنجبت ابن خلدون وابن رشيق وابن شرف وسحنون وأسد بن الفرات ٠

والمغرب ، يفخر بابن تومرت الذي سجل (وحدة المغرب) ، وبالقرويين حيث محمد الايراني يدرس أصول الموسيقى لطلاب من كافة أنحاء العالم في أواخر القرن الثالث عشر ، ومحمد بن سليمان مخترع كرة الدوائر الفلكية المشهورة ، وعبد الله اليفرني ٠

ولقد حظي ابن خلدون بجاه عريض ، وكتبت عنه مئات الابحاث : هذا العلامة مؤسس علم الاجتماع الذي يمثل وحدة المغرب أصدق تمثيل ، انتقل من بلاط تونس الى بلاط فاس ، ومن اشبيلية الى بجايه ، ومن تلمسان الى غرناطة ، ولكنه لم يفرض نظريته في الحياة السياسية واكتفى بأن دونها ، وهو يمثل أبرز خصائص الفكر في الشمال الافريقي : فكرة الشمول ٠

والمغرب العربي هو الذي أثر في العالم الجديد منذ القرن السادس عشر حيث دخلت الحضارة العربية أمريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين أكتسحوا ذلك العالم الجديد ، فقد نقلت البرازيل ، خلال ثلاثة قرون متوالية ، تأثير المدنية الاندلسية فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الاصقاع ·

والمغرب هو الذي فرض نفوذه على البحر الابيض المتوسط الذي كان رومانيا فأصبح طوال العصور الوسطى بحرا عربياً بجزره وسواحله ·

× × ×

ولا ينسى الفكر المغربي أن يشيد بفضله على الثقافة العربية الاسلامية، فمنذ وقت بعيد أخذت الثقافة المغربية الاسلامية طابعا خاصا متميزا عن طابع المشرق في الخط المغربي ، فكان هناك قلم مغربي خاص ، وفي الفن الاسلامي طابع خاص ، وفي الثقافة الدينية المالكية ، وفي الناحية الفكرية ذات النزعة السلفية ، ومدرسة القيروان ومدرسة فاس ·

كما لا ينسى أهل تونس أن يفخروا بماضيهم الفينيقي والقرطاجني ·

أما الاندلس فان الفخر به عظيم ، وهو لا ينسى أبدا ، هذا التاريخ وهذا المجد ·

ويقاوم الفكر المغربي محاولة الفصل بين حلقات ماضيه ، فهي قبل الاسلام وبعده حلقات من أمجاده ، لذلك لا يرضى عن الغربيين حين يحاولون الربط بين الفترة اللاتينية السابقة للاسلام ، وفترة النفوذ الفرنسي بعد ١٨٣٠ مهملين ثلاثة عشر قرنا من التاريخ المغربي ، وعندهم أن التاريخ هو « ذاكرة الامة » · ولا مستقبل للامة اذا لم تكن واعيـة للماضي · ولا يتصور الفكر المغربي « الثقافة المغربية » الا ضمن الثقافة العربية الكبيرة تحتضنها وتغذيها وتتفاعل معها ، كما لا يتصورها الا متفتحة على ثقـافات البحر الابيض المتوسط تتفاعل معها كذلك في حوار لا ينقطع » ·

ومن المغرب العربي انطلقت شعلة الثقافة الى قلب افريقيا والجنوب الغربي من أوربا (الاندلس) .فكونت في شبه جزيرة أيبريا حضارة وأخذت من الاسلام دينه ولغته ، ومن الاندلس حضـارة وعلمـا ، ومن الجنـوب الافريقي عادات وعقائد وموسيقى(٢) ·

وأساطيل ، وأصبحت لغة القرآن هي اللغة الدولية للتجارة والعـلم والاسطول الموحدي الذي كان يضم ٤٠٠ قطعـة ، أصبح أول اسـطول في المتوسـط ·

ولا ينسى الفكر المغربي العربي الاسلامي : القيروان رابعة العواصم العربية الكبرى في نشر الثقافة ، حيث انتقلت منها الى السودان الغربي والى الاندلس لغة العرب وثقافة الاسلام ، ومن أهل القيروان نبغ أقطاب اللغة والادب كالقزاز والحصري وابن رشيق ، وقد ورثت الزيتونة القيروان ولا ينسى المغرب أبطاله ومجاهديه عبد القادر وعبد الكريم وعمر المختـار

وماء العنين وأعلامه في الاندلس من أمثال موسى ابى الغسان يقول عبد المجيد ابن التهامي « أتعرف أيها الطفل العربي ، كم تمنيت أن يكون في كل عواصم الاسلام تمثال لموسى أبي الغسان الغرناطي (فارس غرناطة) تمنيت ذلك اذكاء لشعورنا القومي ، واشارة الى العصر الذى ازدهرت فيـــه العروبة والاسلام » ٠

ويرد الفكر المغربي على آراء المستشرقين : نعم ، طال أمد الاستعمار الروماني والبيزنطي والوندالي في البلاد ، ولكنه لم يستطع أن ينال من معنوياتها ، أو يقضي على شخصيتها ٠

فالمغرب رغم ارتضائه الاسلام دينا والعروبة لغة ، ظل دائما معتدا بوجوده الخاص ، ناشدا مكانه تحت شمس العروبة ، وهو منذ القـديم كذلك ، وانك لتجد في كتب ابن جبير وابن خلدون وفي شعر ابن هاني من الادلة الواضحة على تمسك المغربي بوطنه ، وحبه لبلاده ، وتفضيله لها حتى على الاوطان الشقيقة مما لا تجده في آثار أدباء الامم المعاصرة لهم ، هـــذه الروح القومية هي التي دفعت المغرب العربي الى الاستبسال في سبيل الغرب عن كيانه طيلة القرون الوسطى الاوربية كلها ، بعد أن توالت عليه هجمات عديدة من دولتين شديدتي التعصب هما اسبانيا والبرتغال(٣) ٠

× × ×

وعندما غمرته التيارات الحديثة ، استطاعت طبيعة المغرب أن تتمرد على هذا الغزو الموجه ، لتثبت قوة الاستمرار الحضارى والثقافي ، ولتقضى على ارادة العزلة التي حاولت التيارات الاستعمارية أن تفرضها على المغرب ٠

× × ×

ولا ينسى الفكر المغربي هجوم فرسان مالطة على طرابلس ، وهجوم الاسبان على تونس وغزوة لويس التاسع ضـد الحفصيين ، والاستعمار الايطالي ٠٠ ولا فاجعة (ماى ١٩٥٤) ومعركة سطيف ٠

---

(١) مجلة الانيس ــ المغرب م ١٩٥٢ ٠

(٢) عبدالكريم غلاب : دور المغرب في الوحدة ٠

(٣) الحركات الاستقلالية في المغرب (علال الفاسي) ٠

السياسة والقومية في شعر الهنداوي

الدكتور يوسف عز الدين

كان العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية المسلمة وكان الدين الرابطة التي تربط بين العرب بالدولة . ولاجله كان العرب يتجاوزون عن الاساءة اليها والدعوة الى الانفصال عنها لانها كانت رمز الاسلام والمدافعة عنه وهي رمز الخلافة الاسلامية ووحدة المسلمين وبهذا الشعور كان العرب يؤازرون الدولة وينودون عنها ويقاتلون في سبيلها فاذا ما حدث حادث لها يضسج الشعراء العرب بالدفاع عنها والذود عن حياضها فعندما احتلت دول البلقان سلانيك قال خيري الهنداوي .

يا واطئا ذاك التراب ترفقا — فلقد شكا من وطئك الاسلام
رفقا بوطئك انما تحت الثرى — قوم وان هانوا عليك كرام

نبأ تلعثمت الرواة بنقله — وتعثرت بطروسها الاقلام
ام البلاد عليك من متوجع — قطن العراق تحية وسلام

وقد بقي العرب مع الدولة العثمانية يذودون عنها ببسالة حتى شهد جمال باشا نفسه وقال انهم (ادوا واجبهم بمنتهى الشجاعة والاخلاص) .

وحفظ لنا التراث الادبي سفر هؤلاء الشعراء فمنهم الرصافي وكاظم آل نوح وعبدالرحمن البناء ومحمد علي اليعقوبي ومحمد مهدي البصير ومحمد حسن ابو المحاسن وجميل صدقي الزهاوي كما وقف رجال الدين على مختلف نزعاتهم وقومياتهم يذودون عنها بالفتاوى والجهاد فقد جاء صالح الحلي الى بغداد ليحرض الناس لمؤازرة الدولة وذهب الحبوبي مع المجاهدين ومات كمدا لخسارتهم ونجد اثر هذه النزعة واضحة في شعر محمد رضا الشبيبي وعبدالمطلب الحلي وشكري الفضلي ومحمد حبيب العبيدي وعطا الخطيب .

اما الهنداوي فلم نجد له ما نظمه في هذا العهد تلك الكثرة التي حدثنا عنها رفائيل بطي في كتابه الادب العصري ولقد اتلفها كما اتلف غيره من

الشعراء شعرهم عندما دخل الانكليز بغداد او لعل العنصر الدينى لم يكن عميق الاثر فى نفسه بالمقارنة الى غيره من الشعراء ٠

وقد كان العرب مع الدولة العثمانية وآزروا جمعية الاتحاد والترقى ثم اخذت تيارات القومية تتسرب الى نفوسهم عندما بدأت الدولة تفرق بين القوميات الاخرى واخذ الحزب الحاكم يقابل العرب بالاحتقار والتهديد بالقتل والموت واتخذوا منها موقفا غير الموقف السابق ولكنهم لم يفكروا بالانفصال عن الدولة رغم من شنق منهم ومن اوذى من رجالهم وسجن من احرارهم وقد كان فى الجمعية كثير من العرب من امثال ناجى شوكة وياسين الهاشمى ورستم حيدر وفهمى المدرس ومحمد رضا الشبيبى ٠٠٠ وباختلاف الجمعية اخذ العرب فى التفرق فيما بينهم واختلفوا فى اقطارهم كما اختلفوا فى القطر الواحد عندما انقسموا الى احزاب وقد ساء الهنداوى هذا الامر فقال :

غشى الظلم اقطار العراق بحزبه	على حين قد افنى قواها التعصب
وشق على ذاك الابي هوانها	فقام يداوي جرحها ويطيب
وما زال يسعى مدنيا بخطابه	قلوبا لاخرى شط منها التقرب

ويبدو اثر الاعتزاز بالعرب وبالقومية فى اكثر شعره الذى حفظهويتفوق الاثر العربى كثيرا على الاثر الاسلامى فهو ينتصر للدولة العثمانية ويذود عنها بشعره ولكنه يستند فى مهاجمة اعدائها على التاريخ العربى وعلى المجد العربى وعلى العرب فهو يخاطب فتاة سلانيك الاسيرة بقوله ٠

يا هذه كفى الدعاء فقومنا	لو تعلمين عن الدعاء نيام
ما القوم الا سحب صيفارعدت	ثم انجلت بالريح وهى جهام
لا تستغيثى ليس (معتصم) بنا	كلا ولا فينا يعد همام

ولم اجد له شعرا تمسك فيه بالوحدة الاسلامية والاستناد على الدولة لانها مسلمة انما استند على قومه العرب وهو يذود عن الدولة العثمانية بقوله:

لو انقومي شاهدوا اليوم الذى	كثر الصراخ به وطار الهام
لاروا بني البلقان كيف ضرابهم	بل كيف يثبت في الوغى المقدام
قومي اذا اشتد الضراب تخالهم	نشوى وما غير الضراب مدام

وقد كان الهنداوى حريصا اشد الحرص على التاكيد على كلمة العرب وعلى قومه وانهم اساس نهضة المجد فقال :

املي بقومي سوف ننهض نهضة	للمجد يقصر دونها الصمصام
تبقى وان خلق الزمان جديدة	لم ينتقض لجديدها ابرام

وقد كان هناك اتجاهات فى الشعر العربى الاول الاتجاه الذى سار على طريقة القرن التاسع عشر والثانى الاتجاه الجديد الذى تبناه المجددون منهم

والذين تأثرت في شعرهم الحركات الفكرية والاراء الحديثة وساروا ومقتضى حياتهم الحديثة ومن هوءلاء الرصافي والزهاوي والشبيبي والازري فقد اطربهم العصر خاصة بعد اعلان الدستور العثماني واخذوا يندون بالحكم المطلق وقد عد رفائيل بطي السيد خيري من شعراء الشباب الذين تأثروا بالتيار الفكري الجديد وقال عنه (ولما تألفت جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العثمانية اوقف الاديب الشاب قلمه في نظم القصائد وكتابة الفصول في تحبيذ خطتها والدعوة لمبدأها حتى اذا ما انشقت على نفسها واسس حزب الحرية والائتلاف ظل هو ثابتا على مبدئه مدافعا عن جمعية الاتحاد منددا بخصومها الى ان تجلى له خطأه بانكشاف ضمائر الاتحاديين في اعمالهم وارادتهم بالعرب شرا فرجع عن فكره وانضم الى المجاهدين العرب في سبيل التحرر والخلاص)٠

وقد كان اعلان الدستور بداية وعي جديد للعرب والعراقيين فقد انتشرت الصحف واخذت ترد اليهم الانباء التي لم يكونوا قد سمعوا بها فأثارت في نفوسهم انفعالات جديدة ودخلت المجتمع تيارات جديدة وتفتح الناس على حوادث جديدة كانت بعيدة عنهم اذ اخذت هذه الجرائد تنشر انباء العالم واخباره وما يحدث على الكرة الارضية ٠

وقد كانت حفلات جمعية الاتحاد ثم انقسامها وفتح فروع لها في البلاد العربية وملاحقة الناس على الانضمام اليها كلها امور وجهت الناس توجيها جديد ونبهتهم الى ما كان اكثرهم غافلين عنه ٠

* * *

تكلمت عن السياسة والقومية في شعر المرحوم السيد خيري الهنداوي وجئت على موقفه من الاتجاهات الاسلامية وجمعية الاتحاد والترقي التي وجدها بعد ذلك سارت في خط لم يرضه فازور عنها وابتعد ويبدو ان الشاعر لم يرض الدولة لاننا وجدناه في الحرب العظمى الاولى سجينا في القلعة ولما تقدمت قوات الجيش البريطاني حاول المسوءولون التخلص منه بالقتل والقاء جثته في نهر دجلة بيد ان الفوضى التي عمت بغداد من جراء تقدم الانكليز سهلت له الهرب قبل أن يدخلها الجيش الفاتح فأختفى في دار من دور قريب له في المهدية ليقضي حياة في سجن اختياري كاد هذا السجن ان يودي بالبقية الباقية من صبره وجلده فقد حاول مرات ان ينتحر ليتخلص من سجنه هذا وقد نظم في سجنه قصيدته زينب وخالد التي فيها يخاطب الدهر فيقول :

هو الدهر في اهليه ما شاء يلعب ... فسيان عندي بشره والتقطب
يريني على عد الليالي عجائبا ... فلم ادر من اي العجائب اعجب
فلا خير الا وهو بالشر مقرن ... ولا يسر الا وهو بالعسر مصحب

وقد وصف السجن الذى سجن فيه بالقلعة وكيف اخذ اليه وما قاساه من العذاب من سجانيه فقال :

ففاجاه من جند جنكيز ثلـــة ... وجاءوابهقسرا الى الحبس يسحب
وزج بجب يكمه العين ظلمـة ... هو القبر ضيقا اومن القبر يقرب
تعذبه الظـلام جوعـا نهـاره ... وفى الليل يقفوه الغرام يعذب

وقد علل سبب سجنه فى هذا السجن الذى كان اقرب الى الجب المظلم الكئيب يحبه لوطنه وللعراق ولانه لم يكن يسمح بالتهجم عليه وعلى ابنائه لانه كان الدرع الواقى والمجن الذى يذود عن احساب ابناء الوطن العزيز فقال :

لقد كان صبـا بالعراق واهله ... يثور اذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن احسابهم وحقوقهـم ... ويطعن في صدر العدو ويضرب
وهل ريبة ان ذب عن مجد قومه ... فتى عن بنيات العلا لا ينكـب
اعدلا يرى الاقوام حبس ابن حرة ... يغار على مجد العراق ويغضـب
اذا كان فى حب الديار جريرة ... فكل فتى فوق البسيطة مذنب

ثم يدخل الانكليز العراق ويطلق سراحه ويأمن الخائف ويهدأ المذعور ويصدق بالوعود التي سمعها من الدولة المحتلة على لسان الجنرال مود الذي قال جئنا العراق محررين لا فاتحين ويندفع بكل قواه فكتب فى تأييد الانكليز مقالا يطفح بالاعجاب والتقدير للجيش الانكليزى والقوات الفاتحة فيعين موظفا فى حكومة الاحتلال غير ان الامور بدأت تتكشف له يوما بعد يوم وبدأ الالم يهصر قلبه وليس له من سبيل للتعبير عن هذا الالم حتى تأتيه الفرصة بين يديه عندما يعقد الاحرار الثائرون في الحلة موءتمرا ينددون فيه بالاحتلال البريطاني ويطالبون بالحرية والاستقلال وفاء للعهود التى قطعها على نفسه الجيش المحتل وكانت مراحل الثورة تغلى فى الجامع الكبير فى الحلة وقد أراد الحاكم الانكليزى ان يتخلص من هذه الورطة فأوعز للسيد الهنداوى بالذهاب الى الجامع لتهدأة الحال معتمدا على مكانته بين الناس ·· دخل الهنداوى والالم مكبوت فى قلبه واللوعة تتردد فى صدره فأثارت الحماسة العارمة كوامنه فأرسل نفسه على سجيتها واذا باتونه الخامد بركانا يلقى حممه على المحتلين المستعمرين· كانت مفاجأة لم يكن يتوقعها الحاضرون انها فرصته الذهبية فقد عاد الى روحه والى مشاعره والى أمانيه فأزاح كابوسا كان يجثم على صدره وشعر بالرضا والاطمئنان عندما وجد نفسه مع الاحرار في هنجام منفيا ·· اثار المنفى في نفسه احاسيس الحنين الى ايـامه الحلوة العذبة الممتعة على ضفاف الفرات وبدأت الذكريات تنثال عليه وتذكر نسيمات دجلة البليلة وايام لهوه ومرحه فيها فقال :

اين هنجـام من مرابـع انس — رنق القوم صفوها ترنيقـــا
فوق شط الفرات حيث يرف الـ — ماء عذبا والظل رطبا صفيقا

ولكنه مع ذلك نجد الحماسة ونجد الاباء ونجد الاندفاع فى سبيل وطنه دون ان يخشى النفى والسجن بل هو يرحب كل الترحيب به وبكل الخطوب ما دامت تؤدى الى حرية الاوطان فقال :

مرحبا بالخطوب ان هى كانت — سببا موصلا الينـا الحقوقـا
واحـب الخطوب عندى حبس — فيه تسطيع بالكرام اللحوقـــا
ان فى الحبس للفتى فيسبيل الـ — حق مجدا يعلو به العيوقـــا
لا ابـالى اذا خدمـت بـلادى — أأسيـرا رأيتنـى أم طليقـــا

وهذه القصيدة من غرر شعره ففيها العواطف الصادقة العميقة ولو طال سجن الهنداوى لجاء بالشعر الذى يخلد هذه العواطف السامية كما خلدها البارودى عندما نفى الى سيلان بعد خيبة ثورة عرابى فى مصر ·

وشعر المنفى دائما يكون معبرا صادقا عن اصدق المشاعر وانبل الاحاسيس وخير مثال شعر شوقى فى الاندلس وشعر البارودى فى سيلان وشعر الهنداوى فى هنجام ·



رسالة الى الشاعر العربي الناشىء

السيدة نازك الملائكة

« الى الشعراء الناشئين الذين كتبوا الي يسالونني كلمة توجيه ونصح تعينهم على درب القوافي »

ن. م.

أيها الشاعر اليافع ،

كتبت الي على غير ما معرفة ، تسألني أن أوجهك في دروب اللحن ، ومزالق الوزن ، والتيه الجميل الذي يسمونه لغة الشعر . وقد أحسست نفسك المتفتحة ان حماسة الشعر تجمعك بي ولو لم ألتــق بك ، وأن انسانية الجمال الرفيع ، وقربى الفن ، وروحانية النغم ، حرية بأن تكون بطاقتك التي تقدمك الي ، وكان اندفاعك الطيب هذا جميلا ، لما ينبىء عنه من اصالة الشاعرية ولهفة الطموح . واستلمت رسالتك وتريثت أشــهرا وسنين لا أجيب عنها . ولم يكن ذلك عن سوء لقاء مني لك ــ فقد تلقيت الرسالة محتفية ــ وانما كان سببه حرصي على أن أعطيك جوابا وافيا تنتفع به في تجنب ما يحف بك من مزالق شعرية ، وما كان ذلك يتاح لي الا بعد انصرام هذه الاشهر والسنين التي أنضجت تجربتي الخاصــة وبصرتني بطبيعة الظروف الاجتماعية التي تحف بالشعر في وطننا العربي اليوم . ومثلها لا يحكم عليه في يوم أو اسبوع ، وانما لابد له أن ينمو في النفس الملاحظة كما تنمو البذرة ، بطيئة مترفقة ، لا يستعجلها شيء غير دافع الحياة. وها أنا أجيبك على رسالتك لعلك تجد في رأيي ما يعينك على ارتقاء هــذا الطريق الروحاني الصاعد الى ذرى الخيال وقمم الفكر والجمال .

* * *

وأول ما ينبغي لك أن تدركه أنك شاعر ، وأن للشعر وظيفة خيرة يؤديها الى الحياة والكون . لقد لمس الله نفسك لمسة النغم لكي تكون نبعا من منابع القوة والجمال في هذا الوجود ، شأنك في ذلك شأن ضوء القمر الذي يذرع المسافات الغامضة في ظلمات الليل ، وشأن الانهار الباردة التي تنحدر وتغسل الغبار والجدب والعقم والجفاف ، وشأن فجر ندي يطلع على الدنيا فيصحيها من سباتها . وانما نشبه الشعر بهذه القــــوى لانه ــ مثلها ــ عنصر من عناصر الطبيعة له سطوتها وسحرها . ولقد منحت

القدرة على الرؤية المدركة والتعبير عنها لتكون صوتا من أصوات الله الكريمة في الوجود ، وظيفتك ان تدل على منابع الجمال في الاشخاص والاشياء • وما لم تدرك من أنت ، ولماذا وهبت الشاعرية فلن يتاح لك أن تبلغ الرسالة •

أنت يا شاعر طائر الجمال في هذا الوجود ، تبحث عنه في الطبيعة بما تصوره في شعرك من مظاهرها ودلالاتها وأسرارها ، وتبحث عنه في النفوس بما يأسرك من صفائها وعمقها وجدها وحالاتها النفسية وتناقضاتها وأهوائها ، وتبحث عنه في المواقف ، في صور البطولة والفداء والتضحية ، في حنان الامومة وسخاء البذل العاطفي ، في نبل التعاون ، وكرامة الصدق ، وعظمة الصمود ، وروعة الصبر ، وجمال العدل • ان الجمال يأسر روحك حيثما وجدته فتتغنى به ، وتحتشد له في شعرك الصور المتغومة والاجواء • ومن حق هذا الجمال عليك أن تخلص له ، فاذا فعلت تفتحت أمام بصيرتك قوى مذهلة تزيد شاعريتك تالقا واقتدارا • وسرعان ما سيتكشف لك القانون الاعظم في حياتك وحياة الانسانية وهو أن الاخلاق أعلى صور الجمال في الخليقة • وانما الفرق بين الاثنين ظاهري وحسب • أما الجمال فهو شيء محسوس يدركه البصر ، وأما الاخلاق فهي الجمال المعنوي الذي لا يرى وانما تتحسسه النفس المرهفة ويدركه العقل • ولذلك كان ادراك الجمال المحسوس أيسر على الاغلبية من ادراك الجمال الاخلاقي • وأما أنت يا شاعر فقد وهبك الله قدرة الرؤية ، فأنت تلمح الخافي والمبهم والبعيد ، ومن ثم وقعت عليك رسالة البيان والتعبير والكشف ، تلين بها النفوس الغليظة ، وتكشف الحجب عن العيون التي تنظر ولاترى، وتبذر في القلوب والعقول بذور الخير والمحبة والعمل والقوة •

ولابد لك ، عند هذا المفرق ، أن تلاحظ أن رسالتك لا تشبه رسالة الواعظ اطلاقا ، لان هذا يدعو الى الاخلاق دعوة صريحة بالترغيب والترهيب والبرهان والمثل • وأما أنت فشاعر لا تعظ بل تغني ، ولا تدعو الى شيء وانما تنفعل وتحيا وتتدفق • ان وسيلتك هي الصور الاخاذة ، والرموز الموحية ، واللغة الشفافة التي تكشف بالظلال والالوان أكثر مما تكشف بالكلمات • ومواعظك ، لا تؤدي مغزاها صريحا وانما تمنحه للقارىء المرهف الذي يلتقطها من أنحاء القصائد وجوها • وبسبب هذا ينبغي لك أن تتعلم كيف ترقى الى مستوى التعبير عما تنبض به ذاتك الصامتة العميقة في ساعات الكشف والمعاناة دون أي التفات الى السامع أو القارىء أو المجتمع • ان الشاعر القومي الاعظم هو الذي يعبر عن نفسه فيجيء شعره معبرا عن قومه جميعا ، وعن الانسانية نفسها • ففي أعماق النفس المتخلقة الصادقة تمحي الحدود بين الفرد والمجتمع ويصبح الواحد كلا ، والكل واحدا •

واعلم ، أيها الشاعر الناشىء ، ان الشعر معاناة روحية موصولة ، يصحب فيها الشاعر ذاته ، ويعيش متفتح النفس بحيث يتبض قلبه مع

الطبيعة والحياة بكل ما فيهما من عمق ومعنى • ومثل هذه المعاناة الخصبة لا تستطيع أن تعيش في الضجيج ، وانما لابد لها من الصمت والعزلة والفراغ ، لكي تنبثق ورودها ويتضح عطرها • ولذلك تحتاج الى أن تتيح لنفسك شيئا من انفراد تستسلم فيه الى التأمل ، وحياة الفكر ، واحتشاد الشعور • ومن لم يمنح نفسه ترف الاحلام وسكون العزلة لم يستطع أن يسمع صوت الله في نفسه • ومن ثم لم يستطع أن يبدع الشعر العظيم • وليست هذه دعوة الى ما يسمونه بـ « البرج العاجي » ــ وهو اصطلاح مترجم عن الانكليزية ــ لان عزلة الشعر لا تقتضيك أن تقضي عمرك وحيدا ، وانما نريد أن تجد لنفسك وقتا في اليوم أو اليومين تنصرف فيه الى عالمك الروحي والفكري لتجمع ورود ذاتك • وسرعان ما ستنهض في نفسك عوالم سحرية ومثل والحان ما تلبث حتى تضفي على الوجود غلالة من الخير والجمال والموسيقى • ولابد لك خلال ذلك من الصلة المستمرة بالحياة والناس حولك ، فان ذلك هو الشرارة التي تلمس شاعريتك فتلهبها وتلهمها • وأنت انسان شاعر ، مكانك بين الناس ، على طريق العمل والهدف والحياة •

* * *

ثم بعد أن تناولنا هدفك ورسالتك في الكون ، ننتقل الى الحديث عن الخلق النموذجي للشاعر وهو الخلق الذي يزينك ويساعدك في حياتك الشعرية معا • والقاعدة الذهبية التي ينبغي أن تتمسك بها هي أن تضع لنفسك مقياسا شعريا عاليا كل العلو بحيث يقتضيك الوصول اليه دأبا وسهرا قد يستمر العمر كله ، فكلما ارتفع مستوى شاعريتك احسستها ما زالت دون ذلك المقياس واندفعت تلتمس الوسائل للارتفاع ، وبذلك تستمر في الصعود الى أعلى خطوة خطوة • فاذا التزمت هذه القاعدة كانت لها نتائج ثلاث خطيرة ذات أثر كبير في نمو شاعريتك ، وسمعتك وأنا أدرج هذه النتائج ليتاح لك تأملها :

١ ـ هذا المقياس العالي سيحميك من الغرور الذي هو الصفة الشائعة في أوساط الشعراء الضعفاء • فكلما أعجبتك قصيدة لك تذكرت مدى بعدك عن مقياس الجودة فارتددت الى التواضع والتقييم السليم لنقص شعرك ، وبذلك تتهيأ للارتفاع خطوة في قصيدتك التالية • ان احساسنا بالضعف هو الخطوة الكبرى نحو تصحيحنا له ، وانما الصعوبة في أن نصل الى ذلك الاحساس • والغرور ، أيها الشاعر الموهوب ، عدوك اللدود ، ليس لك عدو اخطر منه ، فهو يتآمر عليك في صمت لكي يقتل موهبتك ويبدد قواك الشعرية • وما من شاعر عظيم قط الا كان أميل الى رؤية معايب شعره من رؤية محاسنه ، وذلك من دون أن تضعف ثقته بنفسه ذلك الضعف الذي يقتل الحيوية ويميت القدرة • ولسوف يسوقك هذا المقياس العالي الى أن

تتفوق على أقرانك وشيكا فيعينك ذلك على استكمال ثقتك بنفسك وثباتك على طريق التواضع والعمل ٠

٢ ـ سيمنعك مقياسك العالي من أن تندفع الى الرد على كل ناقد يقول كلمة حق في شعرك يشير فيها الى ضعف أو يصحح خطأ ٠ فان هذه خصلة شاعت اليوم في صفوف زملائك الناشئين فتجد الواحد منهم يتربص بالصحف فما يكاد ناقد يكتب توجيها له حتى يدبج مقالا فضفاضا يبرر فيه معايبه بالحق والباطل وقد يهاجم الناقد ويشكك في نزاهته ٠ ومثل ذلك المسلك من الناشيء يدل على الغرور والطغيان معا ، دون أن يخلو من قبح الثناء على النفس وهوانه ٠ أما أنت فان نموذجك العالي سيجعلك مستعدا دائما لرؤية موضع الحق في كلام النقاد الذين يتناولون شعرك ، وربما عكفت على دراسة مآخذهم عليك لعلك تنتفع بها في تقويمها ٠ وقد تجدها اراء سطحية أو متجنية، فلا يغير ذلك من مسلكك الهادىء الواثق ، ولا يدفعك الى الرد وذلك لانك تدري انك ناشيء لا تخلو نظرتك من الفجاجة والحماسة ، ولان خلقك الطيب ينفرك من الدخول في مجادلات عقيمة على صفحات الصحف تفسد القارىء العربي وتضييع وقته ، ولانك تمقت أن تكون أنت الذي يدافع عن شعرك وتؤثر أن يجيء ذلك من سواك ٠ وبعد فأنت تدري انك تحتاج الى الوقت في تثقيف نفسك ، وارهاف قدرتك على الرؤية والتعبير ، واختزان الصور والمشاعر ، فكم تخسر حين تنفق الوقت في كتابة مقال تدافع فيه عن نفسك ٠ أليس ابداع قصيدة جديدة خيرا لك وأنبل من ذلك ؟

٣ ـ والنتيجة الثالثة لعلو مقياسك هي أنك ستجد نفسك زاهدا في نشر شعرك الاول ، وبخاصة في ديوان مستقل ٠ لانك تخشى أن تنصرم السنين وتنضج شاعريتك فتندم على ديوانك الاول وتراه مزريا بك ٠ ولسوف تجد حولك دائما من يزين لك النشر المبكر ، لانك تعيش في عصر تجوع مطابعه وتبحث جرائده اليومية عن أي شيء تملأ به فراغ صفحاتها فلا فرق عندها بين الورد والبصل ٠ فمن لم تكن له شخصية قوية تحميه من اغراء المطبعة وقع فيها ٠ ولسوف تتعلم ، تدريجيا ، ان تميز الجهة التي يصح أن تقبل منها التشجيع والدعوة الى النشر ٠ وأما قبل ذلك فستكون قاسيا في نقد نفسك فلا تتردد في اتلاف أية قصيدة عاطلة من القيمة ، أو باردة الروح ، أو قلقة الجو ، ليسير طريقك الشعري الى أعلى دائما لا يتوقف ولا يحيد ٠

على أن المقياس العالي قد لا يكفي لحمايتك من الاحابيل الخفية المبثوثة في الوسط الادبي حولك ٠ واخطر تلك الاحابيل ما اتخذ شكل الفكرة الادبية الشائعة ولذلك ينبغي لك أن تعيش منتبها ، فلا تقبل أية فكرة متداولة الا بعد النظر فيها والتثبت من صحتها ٠ فمن ذلك الفكرة القائلة بأن

الشاعر لا يقوى على رؤية عيب في قصائده ولا على تفضيل واحدة على أخرى لانه يحبها جميعا كما يحب أولاده . ان شيوع هذه الفكرة في أوساط الشعراء قد يشل قدرتك على فحصها ، والواقع انها مظهر واضح لما يتصف به بعض الشعراء من سذاجة الجهل وغرور الضعف الادبي . وأما الشاعر الموهوب المدرك فانه قد يؤثر من شعره قصيدتين أو ثلاثا ثم يتلف كل ما عداها مما نظم في عام كامل ، وليس ذلك عن قسوة منه ، وانما انه ينظر الى الذرى العالية ويرفض الوقوف على السفوح فلا يرضى بما هو دون الجودة . ولعلك تلاحظ ان تشبيه القصائد بالاولاد تشبيه فاسد مغرور ، لان الله الذي يخلق الاولاد أكمل قدرة وأعظم فنا منا نحن الذين نصنع القصائد .

ومن هذه الافكار السطحية الشائعة في الوسط الادبي قولهم ان صدق الشاعر في التعبير عن عواطفه هو السر الاعظم في ابداعه . فكأنهم بهذا يضعون الصدق على مستوى الجمال ، وكأن الشاعر يستطيع أن يبلغ مستوى الابداع بمجرد ان يعبر عن نفسه تعبيرا صادقا . وحذار أيها الشاعر الناشىء من أن تصدق هذه الخرافة الشائعة ، فانك قد تكتب القصيدة الصادقة كل الصدق ثم لا تستطيع أن ترفعها عن مستوى الركاكة وضعف التأليف وسقم المحتوى . لا بل انك قد تكتب القصيدة الصادقة في تصوير مشاعرك ثم لا تكون قصيدتك صادقة فنيا . وسبب ذلك أن الصدق الفني الذي يرفع القصيدة شيء لا صلة له بصدق الشاعر في وصف احساسه . وانما الصدق الفني أن تعبر القصيدة عن معاني الحياة الكبرى في خطوطها العريضة ، ومثل ذلك لا يستطيعه الا شاعر ناضج ، لان الشاعر الناشىء قد يكون فج المشاعر بحيث يتعارض احساسه مع الدلالة العميقة للحياة والكون . أضف الى ذلك انك قد تكون أحيانا فرحا فتجلس لتصف شعورك بالشعر حتى اذا فرغت وجدت بين يديك قصيدة كئيبة الروح يقطر الدمع من كل كلمة فيها . وتعليل ذلك انك وأنت فرح لا تخلو من أن تجد في قعر نفسك كآبة فكرية عائمة تلح أن تعبر عنها . ففي أعماق النفس تعيش حالاتنا النفسية جميعا وتختلط تجارب الفرح والحزن والغضب والرضى اختلاطا يجعل تعبيرنا عنها جميعا صدقا خالصا لا ريب فيه .

* * *

ثم نتناول دراستك التي تتهيأ بها لمستقبلك الشعري ، وأول بند ينبغي لك أن تدرجه فيها هو دراسة العروض العربي ، فاذا أحسست في نفسك علامات الموهبة الشعرية فبادر الى اقتناء كتاب أو كتابين جيدين في علم الاوزان واشرع في دراستهما . وحذار من أن تصغي الى ما شاع في عصرنا من أن الشاعر الملهم يولد عالما بالاوزان فلا يحتاج الى دراستها ، فان هذه فكرة مترجمة من الآداب الغربية ، وقد أساءت الى شعرنا اساءة واضحة . ولو صحت لكان معناها ان سبعين بالمائة من شعرائنا اليوم غير

موهوبين لانهم جميعا يرتكبون أغلاطا عروضية غير هينة ٠ والمضحك أن هؤلاء الذين يرتكبون الغلط العروضي هم أحيانا الذين يفخرون بانهم لم يدرسوا العروض ٠

ومصداق الامر في هذا الموضوع ان الشاعر الموهوب يستطيع أن يضبط الاوزان بكثرة ما يقرأ من الشعر السليم ، ولو دون أن يحفظ أسماء البحور وتفصيلاتها ، وانما المحذور أن هذه القراءة ينبغي أن تبلغ من السعة والكثرة درجة قلما يطيقها شاعر معاصر ٠ فضلا عن أن في عروضنا العربي أوزانا غير قليلة لا تجد لها استعمالا الا ما ندر في زوايا الكتب ، فمهما كان حظك من الاطلاع ، بقي علمك بها لا يكفي لمعرفتها وضبطها ٠ ومن ثم فان الطريق المختصر الى ضبط الاوزان أن تبدأ حياتك بدراستها لكي تفرغ منها وتتفرغ للابداع الشعري ٠ وستجد نفسك مقتدرا على تصرف عظيم في الاوزان والضروب والتشكيلات بما مرنت سمعك الشعري وارهفت ذائقتك ٠ وستتاح لك ــ وأنت تكتب قصائدك الاولى ــ حرية كبيرة في اختيار الوزن الملائم لها ٠ والطريقة المثلى لدراسة العروض ان تجرب النظم ــ لمجرد التمرين ــ على مختلف البحور وتشكيلاتها وما يلحق بها من أوزان وأشكال مثل الدوبيت والبند وسواها ٠ وستجد في تمارينك هذه لذة شعرية لا يعرفها الا من مارسها وحذار من أن تصغي الى سخرية المعاصرين من فنون التشطير والتخميس والاجازة ونحوها فانها قادرة على أن تنشط شاعريتك وتعينك على فهم أجواء القصائد التي تشطرها أو تخمسها ٠ وأنا أنصح لك بأن تجرب هذه الفنون والاساليب والاشكال جميعا خلال سنواتك الشعرية الاولى ، لغرض التمرين ولانماء قدرتك على اخضاعها للافكار الحديثة المعاصرة ٠ ولعلك تدرك ان هذا الشعر المنظوم للتمرين لن يستحق النشر ــ الا نادرا ــ فاذا كنت شاعرا موهوبا فستحتفظ بتمريناتك الشعرية في دفتر للذكرى ، ترجع اليه التماسا للمتعة والتذكار ٠

ولعلك تسأل : اذا كانت هذه الاوزان غير مستعملة في شعرنا المعاصر فما نفعها لي ولماذا انفق وقتي في التمرن عليها ؟ والجواب انك لا تدري لعل وزنا منها يمس وترا خصبا في نفسك فتستخرج منه ــ بعبقرية فيك ــ شكلا شعريا جديدا يهز عصرنا ويشيع الضياء فيه ؟ ان دراسة العروض الكامل ستصقل حاستك الشاعرة وتمنحك قدرة موسيقية لا تتخيلها ٠ ولن يستطيع ابداع الاساليب الجديدة في الوزن الا من درس العروض دراسة جدية ٠ وما تراه من غلط ونشاز وركاكة في الشعر المعاصر فهو يرجع الى جهل أغلب شعرائنا بالاوزان وانخداعهم بفكرة الشاعر الملهم الذي يولد عالما بالعروض فلا يحتاج الى دراسة ٠

ولا أظنك الا سائلا عن الشعر الحر وما تتخذه من موقف ازاءه ، فاعلم ان هذا الشعر ليس الا أسلوبا استحدثناه في رصف أجزاء ثمانية من

أوزاننا العربية ، فهو يرتكز الى التفعيلات العربية والى الشطر وقواعد التدوير والزحاف والعلل والضروب والوقف وسواها مما تجد في عروضنا(١) • ومن زعم لك أن هذا الشعر ليس موزونا فهو لا يخلو أن يكون أحد اثنين : اما جاهل بالعروض العربي ، وأما واهم لايميز بين الشعر الحر الموزون والنثر المسمى خطأ بـ « قصيدة النثر » • وفي الحالتين تستطيع أن تفحم هذا الزعم بمجرد أن تتناول قلما وورقة وتقطع الشعر الحر الى التفاعيل العربية الدارجة على طريقتنا المعروفة •

ومع ذلك فان عليك أن تدرك أن الشعر الحر ، على صورته العروضية الصافية التي دعونا اليها ، يكاد يصبح نادرا في شعر الناشئين لان كثيرا منهم وقعوا منه في شرك مبتذل قادهم اليه جهلهم بالشعر العربي ، وضعف مواهبهم ، ونقص ثقافاتهم • وهؤلاء قد حرموا عصرنا فرصة طيبة يتذوق فيها اسلوبا جديدا فرعناه من أسلوب الشطرين • وقد أدى شعرهم الركيك المفعم بالغلط الى استفزاز الرأي العام الادبي فاتخذ منه موقف المعادي ، وراح الجانبان يتبادلان السباب فكانت معركة في غير معترك يوجه العتاب فيها الطرفين •

ماذا اذن يكون موقفك ، وأنت تقف على أول درجات الشعر متحمسا مخلصا راغبا في أن تجمع بين التجديد المعاصر وروح الوزن العربي ؟ عليك أولا أن تتذكر ان الشعر الحر — في صورته المثلى — لا يهدف الى القضاء على أسلوب الشطرين ، وانما هو أسلوب مكمل له ، فيه استرسال وانطلاق يجعله ملائما لبعض موضوعات عصرنا ، ومن ثم فان الاقتصار عليه ، ونبذ الشطرين لا يخدم الشاعر المعاصر على أي وجه وانما يسيء اليه اساءة كبيرة• واعلم ثانيا ان الشعر الحر ليس أسهل من شعر الشطرين ، كما يتوهم كثير من الناس ومنهم الشعراء الناشئون ، وانما هو ، في حقيقته ، اصعب • ووجه صعوبته واضح فأنت في الشطرين تملك للشطر طولا ثابتا لا يتغير في القصيدة كلها ، فيساعدك هذا الثبات ، وتكرر نموذجه ، على حفظ الوزن من الشطط والخروج • أما في الشعر الحر فان عليك أن تنوع أطوال الاشطر بزيادة عدد التفعيلات وانقاصها ، بشرط أن تحافظ على وحدة الضرب في القصيدة فلا تخرج عليه • وهذه الحرية — مثل كل حرية — لايقدر عليها الا المتمكنون من الشعر والعروض • وخير دليل على ما نقول ان الشعراء الذين كانوا قبل الشعر الحر ينظمون فلا يغلطون في العروض ، أصبحوا في الشعر الحر ينظمون ويغلطون غلطا شنيعا مثل فدوى طوقان ونزار قباني وصلاح عبد الصبور • فاذا كان هؤلاء الشعراء ذوو الموهبة والثقافة قد تعثروا على طريق الحرية ، فكم ينبغي لك أن تتأنى في خوض غمار هذا البحر ؟ وانما الشعر الحر ميدان الشاعر الناضج الكبير ، فحذار من ان تبدأ به حياتك الشعرية • ان المزالق تنتظرك في دروبه ، فاحرص على أن تملك ناصية أسلوب الشطرين امتلاكا تاما قبل أن تجازف بكتابة

قصيدة حرة واحدة •

ثم أنت تحتاج ، بعد العروض ، الى معرفة اللغة العربية وقواعدها ، لا لانها هدفك المباشر ، وانما لانها اداتك ، ووسيلتك الى التعبير • فبادر منذ البدء الى دراسة النحو دراسة تقيك عثرات القلم ، ودراسة اللغة وأساليب صياغتها وقياسها ، مع شيء من اطلاع على اصول البلاغة • ولسوف تواجه ، وأنت في هذه الدراسة ، اغراء قويا بأن تهملها ، يأتيك هذه الاغراء من أعماق نفسك كلما لاحظت ان جانبا من الاساليب النحوية والبلاغية واللغوية قد مات في عصرنا ولم يعد له استعمال ، ويأتيك الاغراء نفسه من دائرة الشعراء اليافعين العرب حولك • وحذار من أن تلين لمثل هذا الصوت ، لان دراسة القديم العربي دراسة جدية هي التي ستفجر في نفسك القدرة على ابداع صيغ جديدة وأساليب عصرية تلائم الذهن العربي الحديث • وما من مجدد أصيل قط الا وقد درس القديم دراسة عميقة بحيث ينبثق الجديد انبثاقا عفويا فلا يفقد الصلة بالتراث العربي ، ولا يقصر عن التعبير عن الروح المعاصرة للقارىء العربي •

وسوف تدرك وشيكا ان صلتك باللغة العربية ، كلما اتسعت وعمقت ، اضفت على شعرك أبعادا رائعة من الخصوبة والابتكار والحرارة ، حتى ترتفع قصائدك الى أعلى ذرى الجمال والرهافة • وانما الشعر الحق سكرة لغوية تتحول فيها لغة القاموس الى أنغام واضواء وظلال ، فترتبط كل لفظة بما حولها ارتباطا خفيا وكأنها تحول كائنا مملوء بالحياة والخضرة • وكثيرا ما يجد الشاعر الموهوب في قصيدته صيغا والفاظا جديدة ما كان يخطر له يوما ان يستعملها ، وانما ولدت في نفسه في لحظات الفورة الشعرية • ومن ثم فان ذخيرتك من ألفاظ اللغة وقواعدها تصبح عظيمة القيمة والتأثير ، لانك ، وانت في حماسة الابداع ، لا تكاد تفكر وانما تستسلم الى هذه النشوة التي تدفع الكلمات الى قلمك دفعا وكأن قوة خفية تملي عليك • فاذا كانت حصيلتك من اللغة ضعيفة ركيكة لم يرتفع الى وعيك الا ما هو ضعيف ركيك • ومن ثم كانت حاجتك العظيمة الى أن تمتلك ناصية اللغة منذ بداية حياتك الشعرية ، لكي يكبر قاموسك مع شاعريتك عاما بعد عام ويفرش لك طريق القوافي وردا واخضرارا •

ثم نصل الى الحديث عن دراستك الكبرى : دراسة الشعر والادب • وأول ما ستصادفه مما يحيرك انك ستجد حولك تيارين اثنين يصطرعان احدهما يدعو الى الاقتصار على قراءة الشعر العربي دونما التفات الى سواه ، والاخر يقف في أقصى الطرف المقابل مناديا بنبذ القديم العربي والاستقاء من منابع الشعر الغربي • فاعلم ، ايها الشاعر الناشىء ، ان كلا هذين الجانبين مخطىء في دعوته ، وانما عليك ان تفتح قلبك وروحك للقراءتين معا ، شعرك العربي يربطك بكيانك الروحي ، وموضع عواطفك ، ومنبع موهبتك ، والشعر الاجنبي يفتح لك نوافذ سحريةمن المعاني والمذاهب والاساليب فضلا

عما يساعدك عليه من اتخاذ موقف عربي من هذه الحضارة الاجنبية التي وفدت الينا وجرفت حياتنا كلها دونما هوادة ·

ولنفحص الموقفين بشيء من التفصيل · اما اقتصارك على قراءة الشعر العربي فانه لن يكفيك زادا شعريا معاصرا ، لان هذا الشعر يصور حياة تختلف في تفاصيلها ومظهرها عن حياتنا العربية اليوم ، وان لم تختلف في روحها وجوهرها ، ثم أنه مكتوب بلغة تختلف الى حد ما عن لغتنا المعاصرة ، وان كانت هي عربيتنا نفسها ، وذلك التطور طبيعي في اللغات الحية جميعا · ومن ثم فان هذا التراث العظيم الذى تحدر الينا من الاباء والاجداد لا يكفي وحده لالهام شاعر عربي يستجيب لحياة هذا العصر · وانما لابد لك ، يا شاعر العصر ، من أن تقرأ شيئا من تراث الغرب الشعري وتراث الامم الشرقية المجاورة لنا لتتفتح لك عوالم جديدة ، وتملك القدرة على نظرة حديثة الى الحياة والشعر ·

ومن حقك ، وانت عربي ، ان تشعر بألم يأخذ بنفسك ، عندما تدرك هذه الحقيقة الموجعة · وسوف تسأل في حرقة : لماذا لا يكفي شعرنا القومي لخلق شاعر معاصر بينما يستطيع الانكليزي – مثلا – ان يقتصر على قراءة شعر اجداده ثم يكون شاعرا عصريا عظيما ؟ أترانا متخلفين أدبيا عن الغربيين ؟ وحذار يا شاعر من ان تترك هذا السؤال يذل روحك العربي ، وانما عليك ان تجابهه وتعطيه جوابه · ان ذلك ليس نقصا في آدابنا ، ولا تفوقا من الغربيين علينا ، وانما سببه البسيط ان الغربي يملك تاريخا حديثا مجيدا بينما كانت قروننا الستة الماضية في هذا الوطن العربي قرون كوارث ومحن ونكبات · أما نحن فقد انشغلنا بما نحن فيه عن ابداع الجديد ومسايرة الحضارة وانعزلنا عما حولنا حتى هبط الشعر العربي الى ما تعرف من صنعة الفترة المظلمة وركاكة أدبها وشعرها · وأما الغرب فقد كان اذ ذاك يجابه ضياء العصور الحديثة وتبدع فيه العقول والمواهب علما وفنا وحضارة ، وبذلك اتيحت للشاعر هناك فرصة ينمو فيها مع العصر قرنا قرنا ، فيبدع المئات من الدواوين وتتطور الافكار والصور والاساليب والموضوعات في شعره ، وتتسع دائرة ثقافته وتكبر قدرته التعبيرية · ومن ثم فانه قد وصل الى عصرنا يحمل في ذهنه ونفسه هذا التراث الخصب يغرف منه ويبدع الجديد المعاصر · بينما خرج الشاعر العربي من دياجير الفترة المظلمة فاذا امامه حضارة وهاجة عجيبة جاءته مفاجئة فأذهلته بأضوائها وعوالمها فهو لا يجد في ماضيه ما يعينه على التعبير عنها ، ومن ثم فان صورها وتهاويلها ما زالت لاتجد لديه التعبير الذى يفيها حقها · ومن ثم فان من المفيد له ان يطلع على شعر الغربي الذى عاصر هذه الحضارة منذ عدة قرون ، ليتعلم منه بعض الدروس ، وبخاصة في حقل الجمع بين الفكر المعقد الحديث ، وروح الشعر · ولكن حذار ، يا شاعر العروبة ، من أن تنقل في شعرك مذاهب الغربيين وأساليبهم اللغوية

ومواقفهم العاطفية فان ذلك لن يكون منك الا تقليدا ، ومن اجل هذا سألناك أن تدرس التراث العربي دراسة عميقة ، فان تلك الدراسة هي التي ستحميك من تقليد الغرب ، وتعلمك كيف تنتفع بآدابهم انتفاع السادة لا انتفاع العبيد الذين لا شخصية لهم ·

وأما الدعوة الى الاقتصار على قراءة الشعر الغربي ، واهمال الشعر العربي فهي اشد ضلالا من الدعوة الاولى · لان الشاعر العربي يحتاج بداهة الى أن يقرأ شعر العرب ، والا لم يعد شاعرا عربيا وانبت انتاجه وانقطعت صلته بأرضنا وتاريخنا ، وضاعت ، من ثم ، شخصيته · وكم في آدابنا من الروعة والجمال والعمق لو نظرنا ، وكم فيه من كنوز دفينة خفية يستطيع الشاعر الموهوب المجدد أن يبعثها فيبهر بها العصر ·

ومهما يكن ما تختاره لقراءتك ، فاقرأه قراءة المتعمق الجاد ، وتوسع في دراسته وفهمه · والخطة الجيدة في الدراسة الادبية ان تحرص على أن يكون لك اطلاع عام واسع على شعر كثير من الشعراء وسيرهم على ان تختار مجموعة صغيرة من البارزين تفرغ لدراستهم دراسة خاصة مفصلة تبذل لها الوقت والجهد فترة طويلة · وستمنحك هذه الدراسة الخاصة قدرة على الابداع الشعرى والفهم والاستقراء تشمل حتى الشعراء الذين لم تدرسهم فاذا قصائدهم تشع معاني رائعة في نفسك وسير حياتهم تمنحك آراء باهرة يؤخذ بها معاصروك · واحذر كل الحذر ان تصنع صنع كثير من الناشئين اليوم : فتحفظ الاعلام المشهورة ، وعناوين بعض كتبهم التي لا تفهمها ثم تملأ حديثك بما حفظت وكأنك عالم كبير مختص · ان هذا المسلك سيقودك حتما الى ما انقاد اليه أغلب هؤلاء اليافعين وهو تقليد الغرب · ذلك ان الشاعر الذى يفهم الشعر الغربي فهما حقا ، يصل الى مستوى من الاستقلال يجعله يبدع ابداع الشاعر الغربي دون أن يقلده · وأما التقليد ، فهو دائما الدائرة التي يدور فيها من لا يفهم ، فهو يتناول المظاهر البارزة في الشعر المقلد فينقلها بنصها · وذلك مفضوح يلمسه كل مطلع على الاصل ·

* * *

ونحن نختم هذه الرسالة ، أيها الشاعر الناشيء ، بفصل نحصي فيه مظاهر التقليد التي تفشت في شعر اليافعين ، لكي تدركها وتتجنب الزلل اليها · وهذا التقليد في نظرنا أخطر هاوية يسير اليها الشعر ، لانه يشل ملكة الابداع لدى الشاعر العربي ويحيله الى مجرد صدى خافت ، فلا هو ابدع شعرا غربيا عظيما ، ولا هو ارتفع الى مستوى شعرنا العربي ·

وسوف تميز ، يا شاعر ، من هؤلاء المقلدين صنفين اثنين : الصنف الاول صنف الذين يقراون الشعر الغربي بلغاته الاصيلة فيتبنون مواقف شعرائه وأساليبهم وصورهم وآرائهم وينقلونها نقلا لا شخصية فيه · وهؤلاء قلة ، وهم المفسدون الكبار لروح الشعر العربي وعليهم يقع اللوم

في تضليل اليافعين الابرياء • والصنف الثاني وهم الاغلبية وهؤلاء لا يحسنون اللغات الاجنبية بحيث يستطيعون قراءة ادابها ، وانما يقرأون المترجمات المستعجلة الركيكة التي تملأ أسواقنا ، وقد لا يقرأون حتى المترجمات وانما يستعيضون عنها بالملخصات والاراء الجاهزة العامة حول الشعر الغربي • ثم يقرأون شعر الصنف الاول بما فيه من تقليد ومظاهر غربية زائفة فيضطرون الى مماشاة « السوق » ويصطنعون ما هو بارز من جوانب التقليد حتى يصبح على أيديهم تيارا عاما • وخير وسيلة تميز بها صور هذا التقليد ان تراقب ما تنشره مجلات الشعر الجديد شهرين أو ثلاثة وتصنف ما فيه من أساليب ومظاهر وسيدهشك مافي هذا الشعر من عناوين متشابهة ، وموضوعات ، وأساليب ، فكأن الواحد يكرر عيوب الاخرين حرفيا الى درجة ان الغلط العروضي الذي يقع فيه شاعر ناشيء ، يصبح بحكم التقليد ، قانونا في شعر الذين ينشرون بعده • وهذا منتهى الهوان الذي يصل اليه جيل من الشعراء في أية أمة •

وأبرز تيار شاع في الشعر الجديد هو تقليد الغربيين في موقفهم من الخلق والقيم الروحية • فان الاديب الغربي المعاصر يجنح على العموم الى السخرية من التمسك بقواعد الاخلاق ، والاستهتار بالقيم والمثل التي تعارفت عليها المجتمعات • لا بل ان الاتجاه هناك ان يتعمد الاديب ، باسم الواقعية والحرية الفكرية ، وصف أحط المواقف الحيوانية وصور الرذيلة • وقد شاع التبذل شيوعا مزريا في أدب الغرب ، وذلك بسبب من ظروف خاصة تحف بالمجتمعات هناك ، وهي ظروف لا يعنينا هنا استقصاؤها ، وانما يهمنا منها أنها تختلف كل الاختلاف عن ظروفنا في الوطن العربي • ومعنى ذلك ان تبذل الاديب الغربي المعاصر نتيجة مباشرة لتاريخه وبيئته ونفسيته فكأن الجو هناك هو الذي ينتج اليوم هذه الثمرة الممجوجة الشنيعة •

ولسوف تلاحظ ، أيها الشاعر الناشيء ، ان هذا الاتجاه قد شاع في شعر زملائك من الشعراء شيوعا يؤلم كل عربي يحلم بمجد الامة العربية • فان اليافعين من الشعراء والادباء يصفون لنا اليوم في انتاجهم عالما عربيا موبوءا تتحكم فيه الاهواء الجنسية بأحط معانيها ، ويستهتر شبابه بكل قيمة اخلاقية كما ترى في هذه الابيات من قصيدة عنوانها « صلاة الى سرير » :

كم عفاف ذبحته انت تدري ... وفتاة سرقتها من ذويها
كم خصور لهوت فيها وردف ... من جحيمي غدا قديدا كريها
كم نبيذ عصرته من شفاه ... وعطور تلعثمت تحميها
كم نهود ورديه العمر شاخت ... يبس الدفء والتطلع فيها
الف عذراء غادرتك حطاما ... وهي حبلى تريق ماء أبيها

الى أن يقول :

كم خطايا زرعتها انت أدرى ... كم عروض هتكتها تحصيها (١)

أترى هذا الكلام الرخيص الذي ينبو عنه الذوق والمروءة وأبسط معاني الانسانية ؟ وانظر ، ايها الشاعر الناشىء ، الى اية وهدة من الدناءة والضعة انحدر الشاعر العربي الجديد ، وأشد ما يؤلم الناقد المطلع ان ناظم هذا الشعر المبتذل ، مثل كثير من زملائه ، يملك قدرة طيبة على ابداع الصور والفكر ، وله قصائد جميلة تشير الى اصالة الموهبة ، وقوة الرؤية ، فلو ارتقى بملكته الى آفاق الخيال ، وذرى الروح الانسانية ، بدلا من الانحدار بها الى الهاوية ، لكان لنا منه شاعر نفخر به ، وربما كان لنا منه « طاغور » عربي يفرض الروح العربية العظيمة على الادب العالمي .

وتذكر ، أيها الشاعر الناشىء ، ان هبوط شعرك ، الى مستوى الغريزة الحيوانية ، يحد آفاقك الشعرية ويقتل روحك . وانما وجد الانسان في هذا الكون ليعيش ملء عقله العظيم وروحه الطموح الذي يتطلع الى الاعالى ، حتى يبلغ مرتبة ادراك الله . وانت ولا شك تدرى ان الحضارة الحديثة ومخترعاتها الجبارة لم يبدعها اولئك الذين يتمرغون في حمأة الجسد ويعيشون في حدود الحواس ، وانما صنعها الذين آمنوا بالمثل العليا وأدركوا قيمة العقل الانساني ، وارتقوا بأرواحهم الى مستوى العمل والتضحية والجهاد . وهؤلاء الكبار المبدعون يدركون ان غريزة الجنس وسيلة لحفظ النوع ، وسلم ترقى عليه الانسانية الى معانى الامومة الخيرة ، والابوة الكريمة ، والحنان ورعاية الغريب ، وحب الحياة ، وادراك الله ونحو ذلك من المعاني السامية التى ترتفع بالانسان الى ما خلق له من مستويات . وانما وظيفتك يا شعر أن تدعو الى حب الجمال في صوره العالية جميعا ، وان ترقى بالغريزة الى حيث تنشأ عنها العاطفة الطاهرة التى تهذب الحياة وتصقل المشاعر وترهف الملكات وتلهم العقل العظيم .

ومما أخذه شعراؤنا اليافعون عن ادب الغرب اتجاههم الى وصف القبيح والمنفر والمقيت في شعرهم ، حتى تكاد الشناعة تصبح مذهبا ينادون به ، مثال ذلك قول نزار قباني :

مكشوفة البدن المفسخ دهنه ... ببخار جسمك قد أثرت تقززي
يامضغة الاصل النجيس وأنت من ... عفن المخادع يا لماضيك الخزي
ولانت من لذات أمك ليلة ... هوجاء مجرمة فلا تتعززي (١)

ولعلك تلاحظ ان الشاعر لا يحاول أن ينفرك من هذه المرأة التي يصورها وانما يهدف الى وصف « الشنيع » لا أكثر ، لا بل انه يبدو وكأنه يتلذذ بالالفاظ الكريهة تلذذ من يبدع شيئا متميزا . ولسوف تجد في نفسك الشاعرة نفورا بديهيا من مثل هذا النغم في الشعر ، ولكن أصوات القبح الشائعة حولك ستحاول أن تسكت هذا الصوت الفطرى في نفسك تحت ستار من الفلسفة الزائفة ، فحذار من أن تنخدع فان صوت اعماقك هو الصوت الحق الذى لا ينبغى أن يعلو عليه شيء . واذا وجدت زملاءك

يقلدون هذا الاتجاه في شعرهم فاثبت في وجههم ، ولو اجتمعوا عليــــك ، واعزم على أن تكون المتبوع لا التابع • ان الجمال لابد ان ينتصر على القبح ، والاصالة منتهية لا محالة الى العلو فوق التقليد ، ولو كان الجميل واحدا ، حوله من المقلدين ألوف •

ومما ستصادفه في هذا الشعر الجديد نبرة من التشاؤم المستورد ، فان الشاعر الناشيء يقلد التيار العام في أدب الغرب فيزعم أنه شريد منبوذ يعاديه المجتمع ويكرهه الناس ، وان الحياة عبث فارغ ، والسعادة خيال ، وان المحبة كذبة ، والروابط العائلية سخيفة ، والمقدسات ادعاء باطل ، وان الانسان يعيش وحيدا شقيا لاهدف له ولا روابط ولا مثل ، فالموت والحياة لديه سيان • وسوف يؤلمك ، ايها الشاعر ، ان تجد زملاءك من الشـــعراء لا يتورع الواحد منهم عن وصف ابويه بأقذع الاوصاف ، واهانتهما عيانا، وكأن ذلك عمل بطولي • وهذا الموقف مبثوث في اغلب شعر هؤلاء وقصصهم وكأنهم يحسبونه علامة التجديد والحرية • فانظر يا شاعر كيف ارادوا ان يتحرروا مما زعموه الادب التقليدي (يقصدون أدبنا العربي القديم) فلـم يزيدوا على الوقوع في تقليد الجانب الهزيل من أدب الغرب • وحاشا لادب كبار الغربيين من أن يكون فيه هذا الهزال والركاكة وضعف الشخصية • وانما يقع المقلد على الملامح الظاهرية فينسخها واما الاصيل والرائع فهـــو لا يحسن رؤيته ، ولو أحسن ذلك لما كان مقلدا • ومهما يكن من أمر هذه الافكار السوداء فان شاعرنا الناشيء قد ترجمها عن انتاج عشرات مـــن مشاهير الغربيين المعاصرين مثل سارتر وكامو ومورافيا ومالرو ويوجيــن اونيل وغيرهم • ولا أدري ، ــ ولن تدري يا شاعر ــ كيــف لا يلاحـــظ القوميون من هؤلاء الشعراء ان هذا الموقف من الحياة والاسرة والمثل لا يخدم القومية وانما يخدم اعداءها بما ينفث من سموم السلبية في نفوس الشباب العربي • واذا اعتنق شبابنا هذه الاراء فمن منهم الـــذي سيزحف الى فلسطين ؟

وآخر المواقف المصطنعة التي نقلها الناشئون عن الغرب ، مما سأحدثك عنه ، هو تكلف الغموض ، والتماس الاغراب ، واتخاذ هيئة المفكر العميق الذي يحتاج شعره الى ان يشرح لكي يفهمه القاريء • وخير دليل على ان هذا الابهام مصطنع ، متكلف ، هو انه شاع في الشعر فجأة ، دون أن ينبع من اعماق نفس الشاعر ، أو تمليه عليه لفتات طبعه ، وميوله الفطرية • فما كاد شاعرنا الناشيء يعلم أن الغموض مستحب في مذاهب الغربيين (مثـل الرمزية والتكعيبية والسريالية ومذهب اللامعقول) حتى اسرع يتبناه وراح يستعمل في شرح ما لا معنى له في شعره حفنة من الالفاظ تختلط فيها بعض آراء مدارس علم النفس باعلام مشاهير الادباء الغامضين في الادب الاوربي المعاصر وما قبله • فاذا قلت لهم انك لا تفهم من هذا الشعر شيئا قالوا لك انه شعر عميق فلا يطمح أحد الى فهمه ، الا الراسخون في العلم • وحذار

يا شاعر من ان تصدق هذه الخرافة • ان النفس الانسانية عميقة الاغوار حقا ولكن واجب الشاعر ان ينير هذه الاغوار ويعرض جوانبها عرضا لـه معنى • أو لنقل ان الشعر يخلق المعنى حتى فيما يلوح للعين العابرة انه بلا معنى • والشاعر العظيم هو الذى يفك عقد المبهم ، ويعين القارىء على تحسس المعاني الخفية والدلالات التي تختفي وراء المظاهر الغامضة في الحياة والطبيعة • والقانون في الشعر الجيد ان يكون الابهام فيه ظاهريا فاذا تأمله الناقد والقارىء المتذوق وجده واضحا بما له من دلالة انسانية عامة • وانما اخطأ هؤلاء الشعراء فهم مذهب الغموض ، على عادتهم ، بسبب من انهم مطلعون على الادب الغربي اطلاعا سطحيا دونما دراسة جدية له • وبذلك تحول الابهام الجميل الذى هو سر الشعر واصل فتنته الى تعقيد مصطنع سببه ضعف الموضوع ، وفوضى الصور وركاكة الروابط وقلة المحصول اللغوى • وليتهم يأخذون دروسا في بلاغة الابهام من شعرائنا العرب القدامى من أمثال ابى تمام والمعرى وابن الفارض والشهرزوري • واذا اصروا على الاستقاء من الغربيين فما لهم لا يأخذون دروسا في الابهام الرائع من مسرحيات بيرانديللو وقصص مارسيل بروست مثلا حيث الغموض الجميل في التفاصيل العابرة ، دون الهيكل العام ، وحيث يبدو التعقيد وكأنه منقول من الحياة الكبيرة ليكون درسا للفكر الانساني ، واشارة الى المجهول والعميق الذين يبهر الخيال ويفتن الذهن ؟

هذه يا شاعر ، هي الملامح البارزة في الشعر المنسوخ عن الغرب ، اقتصرنا عليها لكثرة نماذجها ، وتركنا الملامح الاقل ظهورا وشيوعا لضيق المجال • وآخر ما نحب ان نقوله ان شخصيتك العربية المستقلة ، بما وراءها من تراثنا ، هي أثمن ما تملكه فلا تبتذلها بتقليد الشاعر الغربي • انما نريد ان تقرأ الشعر العظيم فتعجب به ، لا أن تنهار أمامه في مذلة المقلد • فالاعجاب والتقييم المستقل هما خلق الاحرار ، وأما التقليد فهو صفة العبيد • وأنت عربي وراء ذهنك كرامة الفكر العربي وقوة شخصيته • ولعلك لا تنسى ان الاحرار هم الذين يبدعون ، أما العبيد فلا ابداع لهم ، لان الفن والحضارة يرتبطان بالحرية في كل زمان ومكان •

وفي انتظار الغد الذى سيلمع فيه آسمك وشعرك العربي الاصيل ، أبعث اليك بتحية الشعر والعروبة •

---

(١) لمن شاء معرفة التفاصيل العروضية الكاملة للشعر الحر أن يرجع الى كتابنا « قضايا الشعر المعاصر » المطبوع في بيروت سنة ١٩٦٢ •

(٢) ديوان « غدا نلتقي » للشاعر سيد احمد الحردلو • مطبعة دار الهنا • القاهرة ١٩٦٠ •

(٣) ديوان « قالت لي السمراء » لنزار قباني • الطبعة الاولى • دمشق ، ايلول ١٩٤٤ •

الدكتور احسان العيسي

القدرات الأبداعية وطرق قياسها

ان كان اهتمام علم النفس الحديث قد تجاوز دراسة سلوك الانسان والحيوان الى الآلة وعلاقتها بالانسان فقد قام بقسط وافر من دراسة سلوك العباقرة والمبدعين وقدراتهم • والاسئلة التي يحاول الاخصائي النفساني الاجابة عنها هي نفس الاسئلة التي طالما شغلت الآباء والمربين وغيرهم من المشرفين على الاطفال • فجميع هوءلاء يثيرون الاسئلة التالية : ما هي خصائص عملية الابداع ؟ ما هي تأثيرات البيئة في النمو الابداعي ؟ ما هي علاقة الابداع بالشخصية والذكاء ؟ وهل العباقرة المبدعون مجانين ؟

وبالرغم من ان علم نفس الابداع ظهر بصورة واضحة جلية بعد الحرب العالمية الثانية الا ان سلسلة البحوث التي بدأ ترمان Terman بنشرها عام ١٩٢٥ عن الاطفال الموهوبين Gifted Children كانت فاتحة البحث العلمي التجريبي في هذا الحقل • وكان الاعتقاد السائد قبل بحوث ترمان بأن الاشخاص الموهوبين لا يتمتعون بحب الاطفال الاخرين والراشدين ، وشخصياتهم غير جذابة وسيئة التوافسق • ووجد ترمان عكس هذه الصفات وشخصياتهم غير جذابة وسيئة التوافق • ووجد ترمان عكس هذه الصفات بالاضافة الى ان حياتهم كانت مليئة باليسر والغنى • وتوصل ترمان الى هذه النتائج بعد أن تتبع حياة مجموعة من الاطفال اختارهم من مجموعة كبيرة من مقاطعة كاليفورنيا بأمريكا • ومن الملاحظ ان اختيار هوءلاء الاطفال تم على أساس درجاتهم العالية في مقاييس الذكاء ، وفي سنة ١٩٥٤ عقد اجتماع لدراسة نتائج البحوث التي صدرت لفترة ٣٠ سنة بعد نشر بحوث ترمان وقد توصل المجتمعون الى ان هذه البحوث لم تضف معلومات أساسية لمعرفتنا وهي لا تختلف كثيرا في مادتها عن بحوث ترمان • وربما كان هذا التأخر في البحث في حقل الابداع والعبقرية يعزى الى ان تشخيص وانتقاء الافراد الموهوبين كان يعتمد على مقاييس الذكاء لا على مقاييس خاصة للابداع والعبقرية ، ولكن خير ما نشر في هذا الباب نظرية جلفورد في (الابداع) والتي نشرها سنة ١٩٥٠ في مجلة « الاخصائي النفساني الامريكي » والتي

مهدت الطريق لكثير من البحوث التي استندت عليها فيما بعد • وتؤكد نظرية جلفورد على أن اختبارات الذكاء تقيس قدرات محدده وان هناك قابليات للابداع الفكرى لا يمكن الاستغناء عنها من أجل الوصف الصحيح الشامل لمستوى الوظائف العقلية في الفرد • فاختبارات الذكاء التقليدية تعتمد على ذاكرة الفرد للخبرات السابقة وعلى تعلمه استجابات وحلولا معينة • ففى القسم اللفظي من اختبارات الذكاء مثلا يقيس الاخصائي النفساني عـدد الكلمات التى يتمكن الفرد تحديد معناها أو عدد الارقام التى يتمكن من حفظها أو يسأل المرء عن معلوماته العامة • وأما فى القسم العملي من اختبارات الذكاء فيعطى الفرد صورا كي يرتبها بحيث تكون قصة متسلسلة او يعطى قطعا خشبية ويطلب منه ان يعمل منها شكلا معينا (شكل انسان او حيوان ••الخ) أو يطلب منه ذكر الاشياء الناقصة فى صور عادية (كالانف أو الحاجبين في وجه الانسان • ذيل الحيوان ، ظل الشخص المواجه للشمس) • ويـرى جلفورد ان هذه الاختبارات للذكاء تعتمد على ما سماه بالتفكير المتقارب Convergent Thinking واكد على الحاجة الى اختبارات لا تحتاج الى جواب مقنن وتعطى الفرد الحرية للتأمل والاختراع والتجديد وتعتمد بدورها على التفكير المتباعد او المشتت Divergent Thinking اى الابداع •

وهكذا فمن المعروف ان اختبارات الذكاء تؤكد على قابلية التعليم والتحصيل المدرسي وتهمل القدرة على الابداع والتفكير المشتت وكذلك فان تطبيق هذه الاختبارات لقياس عقل الطفل وخياله أدى الى اهمال العلاقة بين التحصيل المدرسي والابـداع • فمن المـلاحظ مثلا ان بعض الاطفال الذين لا يحصلون على درجات عالية فى اختبارات الذكاء يجتازون الامتحـانات بتفوق • ان هذه الاعتبارات أدت الى ضرورة تطبيق اختبارات الابداع بالاضافة الى اختبارات الذكاء فى تقدير قدرات الافراد • وسنذكر قسما من هـذه الاختبارات عند البحث عن كيفية اكتشاف القدرات الابداعية •

كيف نكتشف الابداع ؟

١ ـ طريقة التقدير Rating ويقوم بهذا التقـدير المدرسـون او المشرفون على الطلاب مثلا فيحصل كل فرد من مجموعة محدودة على درجة معينة • وهذه الطريقة معرضة للخطأ الكثير اذ يختلف المقدرون بفهم كلمة (ابداع) وكثيرا ما يخلطون ـ ولاسيما المدرسون ـ بين الابداع والتحصيل المدرسي فيقدرون للطالب المجتهـد درجـات عـالية ، ففى احدى التجـارب (Meer and Stein, 1955) وجد بأن مركز الافراد الاجتماعي والثقافى أثر في تقديرات الرؤساء لدرجة ابداعهم فكان هذا التقدير متحيزا لحاملي شهادة الدكتوراه • وأخيرا فقد تؤثر أهواء المقدرين ورغباتهم فى تقديراتهم •

٢ ـ فحص نموذج من العمل Worksample ومن وسائل العثور على

الاشخاص الذين سيبدعون فى التدريب الفنى هى الحصول على نماذج من رسوم هوءلاء الاشخاص مثلا ومقارنتها مع بعضها • ان هذه الطريقة بلا شك متحيزة الى الذين حصلوا على تدريب سابق ولكنها قد تكون اساسا عادلا لمقارنة الاشخاص الذين حصلوا على تدريب متشابه • وبطلبنا من الافراد ان يرسموا أى صورة يشاءون أو ان يقدموا لوحة فنية من اعمالهم لا تجعل المقارنة بينهم مقننة ومن جهة أخرى فان تقنين عمل الطلاب وذلك بفرض نموذج معين عليهم لا يترك مجالا للابداع • واختبار هورن للقدرة الفنية The Horn Art Aptitude يحل هذه المشكلة بعض الشيء فهو يضع قيودا ضئيلة على الفرد المبدع • ففى القسم الذى يقيس الخيال يعطى الفرد عدة بطاقات يحتوى كل منها على بعض الخطوط ويطلب منه أن يرسم صورة حول هذه الخطوط على أن تكون جزءا من الصورة • ويحكم مدرسو الفنون على درجة الخيال فى هذه الصور وعلى نوعيتها الفنية • ويعطى هذا الاختبار الى المتقدمين لمدارس الفنون والذين غالبا ما حصلوا على تدريب سابق •

٣ ـ استعمال الاختبارات التحليلية Analytic Tests • ان الحكم على نموذج من انتاج الفرد يعطى معلومات مفيدة عن اولئك الذين لديهم تدريب فنى سابق ولكنه لا يلقى ضوءا على القدرة الفنية ولا يمكن ان يتخذ أساسا لمقارنة الافراد غير المدربين • وهذا ما حدا بعلماء النفس وعلى رأسهم جلفورد الى استعمال طرق احصائية طويلة ومعقدة لاكتشاف القدرات والعوامل التى لها أهمية فى عملية الابداع ومن ثم عمل اختبارات لقياسها والتحقيق عن صدق هذه الاختبارات لتساعد على التنبوء بالاشخاص المبدعين • وسنذكر قسما من عوامل الابداع وبعض الاختبارات المستعملة لقياسها :

أ ـ المرونة فى التكيف Adaptive Flexibility : وهى القدرة على تغيير الاتجاه لمواجهة متطلبات المشاكل المتغيرة •

١ ـ اختبار مشاكل عيدان الثقساب Matchstick problems

ويعطى الفرد أشكالا مربعة ومثلثه باعتبار ان جوانبها تتكون من عيدان الثقاب ويطلب منه الاشارة بالقلم الى عدد معين من عيدان الثقاب بحيث يترك عددا من المربعات او المثلثات والدرجة التى يحصل عليها الشخص هى المجموع الكلى للحلول الصحيحة •

٢ ـ اختبار المربعات Squares ويتكون هذا الاختبار من رسوم تشبه رقعة لعبة الشطرنج وقد لونت مربعات الرقعـة باللون الاسود وبصورة متناوبه وعلى الفرد ان يضع عددا معينا من الحرف اللاتينى X فى الرقعة بحيث لا يكون اثنان من هذه الحروف على نفس السطر او العمود او القطر • والدرجة التى يحصل عليها الفرد تتكون من المجموع الكلى للحلول الصحيحة •

ب ـ المرونة التلقائية Spontaneous Flexibility : وهى (القدرة

على انتاج افكار متنوعة في موقف غير واضح التكوين ٠

٣ ـ اختبار استعمالات الطابوق (المرونه) Brick Uses ويطلب من الفرد في هذا الاختبار ذكر انواع مختلفة من الاستعمالات لقطعة الطابوق٠ والدرجة التي يحصل عليها الفرد تتكون من المجموع الكلي لعدد اصناف أو رتب الاستعمالات لقطعة الطابوق ٠

٤ ـ اختبار الاستعمالات غير العادية Unusual Uses : ويتكون هذا الاختبار من قائمة من الاشياء يذكر للفرد استعمالاتها العادية ويطلب منه ذكر ستة استعمالات أخرى يمكن أن تستخدم بها هذه الاشياء والدرجة التي يحصل عليها الشخص تتكون من مجموع الاستجابات المقبولة ٠

٥ ـ اختبار تسمية الاشياء Object Naming : ويطلب من الفرد ان يذكر عددا غير محدود من الاشياء التي تنتمي الى صنف معين والدرجة التي يحصل عليها الفرد هي عدد التغييرات في أصناف الاشياء المذكورة ٠

جـ الاصالة Originality وهي القدرة على انتاج استجابات غير اعتيادية وبمهارة وارتباطات بعيدة المدى بالنسبة للجماعة الخاضعة للدرس (كطلاب صف من الصفوف المدرسية) ٠

٦ ـ اختبار الموضوعات Topics ويطلب من الفرد ان يعطي كل الافكار الممكنة حول موضوع معين كسفرة قطار ٠ وتوضع استجابات الافراد في جدول ثم يقوم اخصائيون بعلم النفس بوضعها على ميزان تقدير ذي ست نقاط (صفر ـ ٥) حسب درجتها من المهارة ٠ والدرجة النهائية هي المجموع الكلي للنقاط التي وضعها المقدرون لاستجابات الفرد ٠

٧ ـ اختبار عدم الامكانيات Impossibilities ويطلب من الفرد ان يفكر في جميع الاشياء غير الممكنة ودرجته تتكون من عدد الاستجابات المقبولة ٠

٨ ـ اختبار الاشتقاقات Anagrams ويطلب من الشخص ان يشتق أكبر عدد ممكن من الكلمات من حروف الكلمة الانكليزية GENERATION وتوضع جميع الكلمات في قائمة وبعد حساب تكرار هذه الكلمات تعطى درجات تتراوح بين ١ـ٥ وبالنسبة الى الدرجة التي تكون فيها هذه الكلمة غير مألوفة ودرجة الكلمة تقل بازدياد تكرارها في القائمة ٠

د ـ الطلاقة في الافكار Ideational Fluency : وهي سرعة انتاج الافكار المناسبة في معناها لفكرة معينة ٠

٩ ـ اختبار استعمالات الطابوق : نفس الاختبار في المرونة التلقائية٠ والدرجة هي مجموع الاستجابات المقبولة ٠

١٠ ـ اختبار تسمية الاشياء : نفس الاختبار في المرونة التلقائية والدرجة هي مجموع الاستجابات المقبولة .

١١ ـ اختبار النتائج Consequences ويسأل الفرد في هذا الاختبار عن بعض أحداث خيالية كالسؤال الآتي : ماذا سيحدث لو صنعت بعض الحبوب التي تعوض بصورة تامة عن الطعام ؟ وعلى الفرد ذكر نتائج هذا الحدث . والدرجة هي مجموع الاستجابات المقبولة .

١٢ ـ اختبار الموضوعات : نفس الاختبار في الاصالة . والدرجة هي مجموع عدد الاستجابات المقبولة .

والحقيقة ان هذه الاختبارات لقدرات الابداع لا تزال في المرحلة التجريبية ولا يمكن استعمالها بصورة جدية أكيدة للتنبوء عن هذه القدرات ، وتجدر الاشارة هنا الى اختبار شائع الاستعمال الا وهو اختبار ماير للحكم الفني The Meier Art Judgment Test والذي يقيس الذوق الفني لا القدرة على الانتاج الفني ويتكون هذا الاختبار من أعمال فنية جيدة حور في تكوينها وتلوينها وبعض صفاتها الاخرى الى درجة فقدت جاذبيتها الجمالية ومن ثم توضع الى جانب الصورة الاصلية ويطلب من الفرد اختيار واحدة منهما ويعطى درجة عالية اذا وقع اختياره على الصورة الاصلية .

الابداع والشخصية

كان اهتمام الباحثين متوجها نحو علاقة الابداع الفني والعلمي بالقدرات العقلية للافراد المبدعين دون الالتفات الى شخصياتهم وعلاقاتها بالابداع ولكن هناك دراسات قليلة تشير الى ان الاشخاص المبدعين يميلون الى الانطوائية ويتميزون بالاكتفاء الذاتي والتمركز الذاتي وبعدم الاستقرار العاطفي او العصاب ،
(Cattell and Drevdahl, 1955; Barron, 1956; Mackinnon, 1962; Al-Issa, 1964)

فالقدرات الابداعية يمكن التنبوء بها من اتجاه الفرد الاجتماعي واهتمامه بالتعامل مع الافكار والاشياء بدلا من الاشخاص وكذلك يمكن التنبوء بها من قدرته على بذل الجهد المتواصل والجدية في العمل . واما السمات العصابية (عدم الاستقرار العاطفي) فيمكن اعتبارها دليلا على دوافع الافراد المبدعين وان المستوى العالي لدوافعهم قد يساهم في ابداعهم . ولكن يمكن تصور الحالات التي ترتفع فيها درجة العصاب بحيث تشير الى مرض نفسي وعند ذلك قد يوءثر على ابداع المريض تأثيرا سلبيا . وهنا تجدر الاشارة الى العلاقة بين الابداع والامراض النفسية والاعتقاد الشائع بأنه (لا يوجد عبقري بدون لمسة من الجنون) . وربما يعزى هذا الاعتقاد الى الاقتران العرضي او السببي بين الجنون والعبقرية او الابداع . ومن ناحية أخرى فان تعريف الاصالة في هذا البحث بأنها استجابات الفرد غير العادية او

انتاج ارتباطات بعيدة المدى وغير تقليدية يثير مشاكل ذات علاقة بطبيعة سلوك المرضى وتقييمه وهكذا فان سمات الاستجابات الاصيلة (غيراعتيادية وغير تقليدية) شبيهة بالاعراض المرضية الباثولوجية في اثناء المقابلة الكلينيكية السريرية والاختبارات النفسية (كاختبار بقع الحبر (رور شاخ)، واختبار تفهم الموضوع واختبار تداعي الكلمات) • ففي بعض الحالات قد تكون استجابات المريض ذات اصالة كبيرة الى درجة يصعب فهمها على طبيب الامراض العقلية او الاخصائي النفساني • وخير مثال لهذا الخلط بين الاستجابات الاصيلة المبدعة والشاذة الجنونية هو ما يلاحظ من خصائص فصاصية (شيزوفرينية) في الفن الحديث • وتاريخ الفن والعلم ملئ بالشخصيات المبدعة التي تنطبق عليها صفات وأعراض نزلاء مستشفيات الامراض العقلية

(Al-lssa, 1964, Al-lssa, and Robeeston 1964)

هل الابداع مكتسب أم موروث ؟

هناك الرأي القائل بأن الابداع والعبقرية موروثان ليس للتعليم أي دور فيهما ، والرأي الآخر هو انهما قدرات خاصة تنتج من عادات ومهارات عامة اكتسبها الانسان نتيجة للثواب والعقاب على سلوكه من البيئة الخارجية ، والحقيقة ان للتعليم دورا كبيرا في زيادة العمل المبدع واظهاره للوجود ولكنه لا يستطيع خلق قابليات الابداع • وبصورة عامة فالدرس النموذجي للتفكير الابداعي هو ان يطلب من الطلاب اقتراح بعض الافكار بسرعة ويمنع افراد الصف من الانتقادات ويشجعون على التصريح بأي فكرة تمر بخلدهم مهما كانت هذه الفكرة بعيدة عن الواقع • ولا يسمح لاي طالب باصدار الحكم او تقييم أفكار الاخرين • والواقع ان الجرأة في الافكار واطلاق العنان للخيال والابداع في العمل لا يمكن ان تنمو بدروس قليلة متفرقة فما نحتاج اليه هو تغيير الجو الفكري الذي يعمل به الاباء والمدرسون والاطفال • فعلينا أن تغيير قيم الآباء اتجاه المواهب والنجاح ومواقف المدرسين ازاء الطلاب المبدعين • وأخيرا فعلى المربين من آباء ومدرسين ان يواجهوا الحقيقة القائلة بأن الابداع ينمو مع الطفل الرضيع فيصل أوجه بين سن الثلاثين والاربعين سنة ومن ثم يبدأ بالتناقص كلما تقدم الفرد في العمر ولهذا فالجمود والاصرار على استعمال اساليب الكبار في الانتاج الفني والعلمي يقتل قابليات الابداع النامية في الجيل الصاعد •

العرب من كتب الرحلات الأجنبية الى العراق

كوركيس عواد

تمهيد

للعراق شهرة بعيدة في العالم منذ أقدم العصور • فقد كان موطنا لحضارات قديمة ، ومقرا للدولة العباسية • وموقعه الجغرافي يجعل منه نقطة اتصال بين الغرب والشرق • وآثاره الغابرة تجتذب اليه كثيرا من الناس المهتمين بها • وخيراته الطبيعية الوافرة ، وفي طليعتها اليوم النفط ، تجعل منه قبلة أنظار الدول الكبرى • واختلاف أجناس سكانه ولغاتهم ومعتقداتهم على مر العصور ، كل ذلك جعل منه بقعة بالغة الاهمية •

فلا عجب اذا رأينا كثيرا من الاجانب يتجشمون المشاق لزيارته والوقوف على أحواله والعمل على استثمار خيراته •

زار العراق جماعة من « الرحالين » الذين دونوا مؤلفات في صفته ، وفي شؤون سكانه ، وأحواله الطبيعية والاجتماعية والتاريخية •

ولقد اقترح علي صديقي الفاضل الاستاذ الشيخ جلال الحنفي ، أن أتناول بالبحث من قصد العراق من الرحالة الاجانب بمرور الازمنة ، لينشر في مجلة « الاقلام » المنوي اصدارها • ولما بدأت في وضع « المخطط العام » لهذا البحث ، أيقنت ان الموضوع واسع مترامي الاطراف ، لا يستوعبه مقال ينشر في مجلة سائرة • وانه لسعته وتشعب مناحيه ، يقتضي أن يفرد له كتاب قائم بذاته •

فرأيت أن أحجم عن طرق هذا الموضوع ، في الوقت الحاضر ، ولكنني وعدت صديقي الشيخ أن أوافيه بالمقال بعد أيام معدودات • فلا مجال اذاً الى الاحجام ، ولا سبيل الى التراجع • فكان علي أن أحدد نطاق البحث وأضيق أطاره العام • فجعلته يقتصر على التعريف بكتب رحلات الاجانب في العراق « المنقولة الى اللغة العربية » •

وبهذا الوجه لم أتباعد عن الموضوع المقترح ، وكتبت ما كتبت استجابة لدعوة صديقي الجليل •

زار العراق منذ قديم العصور ، رحالون كثيرون ، فيهم الرحالة الشرقي والغربي • وفيهم المسلم والمسيحي واليهودي • وفيهم من كان ينتمي الى بعض الاديان الغابرة •

وتتفاوت الغايات والاغراض التي جاءوا من أجلها • ولكنهم جميعا يلتقون عند بؤرة واحدة هي التعريف بالعراق وبأهل العراق وبأحوال العراق •

وهذا الذي سننوه به من كتب الرحلات المنقولة الى اللغة العربية ، سنتبع في ذكره السياق الزمني للرحلة • فنبدأ بتعريف الاقدم منها ثم ننتقل الى القديم فالحديث فالاحدث •

المنازل الفرثية

المنازل الفرثية ، قطعة من كتاب واسع ، ألفه اسيدورس الكرخي (Isidore of Charax) أحد قدماء المؤلفين الذين عاشوا في القرن الاول قبل الميلاد ، ولعله أدرك بداية العصر الميلادي • وهو ينسب الى « الكرخ »، ولا يعرف بوجه التحقيق الى أي كرخ نسب • فان هنالك عدة أكراخ ، ومنها كرخ سفسيني (Charax Spasini) التي كانت تقع على خليج البصرة عند مصب مياه دجلة والفرات فيه ، ويحتمل انها مدينة المحمرة الحالية •

تبتدىء الطريق التي اتبعها اسيدروس في منازله الفرثية بأنطاكية الشام، فتسلك وادي الفرات الى سلوقية على دجلة ، ومنها في سقي ديالى الى حلوان ، ومنها الى همذان فالري حتى تصل الى باب الابواب (دربند) ، فتجتاز متجهة الى نيسابور ، ومنها الى هراة ثم جنوبا الى بحيرة هلمند حتى تنتهي ببلاد الرخج في أفغانستان حيث كان نفوذ الفرثيين • وانما عرف هذا الكتاب بالمنازل الفرثية ، لانه يتناول بالبحث شؤون الشرق وجغرافيته في العصر الذي كان فيه العالم تقتسمه دولتان عظيمتان : امبراطورية رومة في الغرب، وامبراطورية الفرث ، الذين حكموا من سنة ٢٤٨ق م ـ ٢٢٤م في الشرق •

وهذا الكتاب ضبط لمنازل ، أي محطات ، كانت الحكومة الفرثية ترعى حراستها ، وواقعة على طريق القوافل •

ويهمنا منه في هذا البحث ، ما ذكره عن المنازل الفرثية في العراق « بلاد ما بين النهرين وبابل » •

ألف اسيدور كتابه باللغة اليونانية • ومنها نقل الى جملة لغات اوربية، ومنها الانكليزية فقد نقلها اليها شوف(١) • وعلى هذه الاخيرة عول العالم الآثاري الاستاذ فؤاد سفر في ترجمة هذا الكتاب الى العربية(٢) •

سفر نامه

رحلة نفيسة عظيمة الشأن ، كتبها باللغة الفارسية ، الرحالة الفارسي الذائع الصيت ناصر خسرو ، المولود سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣م) في بلدة قباديان من أعمال بلخ • وكان قد نال حظا وافرا من الادب • وقام في شبابه بأسفار

عديدة في انحاء ايران وتركستان والهند وبلاد العرب. ثم استقر في منصب كبير في ديوان السلاجقة بمدينة مرو • ثم سافر لاداء فريضة الحج • وقام برحلات طويلة في الشرق الادنى بين عامي ٤٣٧ و٤٤٤ هـ (١٠٤٥ـ١٠٥٢م)(٣)• فرحلته تسبق رحلة ابن جبير بأكثر من مئة سنة •

خلف هذا الرحالة وصفا دقيقا لرحلته يحمل على القول انه كان يدون مشاهداته أولا فأولا ، وانه كان يعني بالاتصال بالشعوب التي يمر بها ، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها(٤)•

تعرف رحلة ناصر خسرو بـ « سفرنامه » • وقد طبع أصلها الفارسي • ونقلت الى الفرنسية والتركية والعربية • وقد تولى نقلها الى العربية والتقديم لها والتعليق عليها ، الدكتور يحيى الخشاب(٥)•

جال ناصر خسرو في بلاد ايران ، مبتدئا من مرو في خراسان ، مارا بأذربيجان وارمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق• وعاد الى ايران منتهيا الى مدينة بلخ في خراسان •

ومن المؤسف أن نجد هذا الرحالة ، لم يمعن في تطوافه في انحاء العراق ، بل اقتصر على زيارة البصرة وبعض جهات جنوبي العراق • وقد بلغ البصرة في أواخر أدوار رحلته ، اعني في ٢٠ شعبان سنة ٤٤٣ هـ (٢٨ كانون الاول ١٠٥١م) • وخرج منها في منتصف شوال سنة ٤٤٣ (٢٠ شباط ١٠٥٢م)•

ويقع وصفه لجنوبي العراق ، في الصفحات ٩٥ـ١٠٠ من الترجمة العربية لكتاب « سفرنامه » • وصف ناصر خسرو مدينة البصرة ، وأنهارها ، وأحياءها والمد والجزر فيها •

ومن طريف ما ذكره عن البيع والشراء في أسواق البصرة ، ان هذه المدينة « كان ينصب السوق فيها في ثلاث جهات كل يوم : ففي الصباح يجرى التبادل في سوق خزاعة ، وفي الظهر في سوق عثمان ، وفي المغرب في سوق القداحين • والعمل في السوق هكذا : كل من معه مال ، يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا ، ثم يشترى كل ما يلزمه ، ويحول الثمن على الصراف ، فلا يستخدم المشترى شيئا غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة»(٦)•

فرواد تلك الاسواق ، يومذاك ، كانوا يودعون أموالهم عند اصحاب المصارف المالية ، ويأخذون منهم اقرارا بتسلمها ، ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه صكا يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف • وهكذا لا يستعمل التجار النقود في معاملتهم ، بل يستخدمون الصكوك يدفع قيمتها أصحاب المصارف •

رحلة بنيامين

بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudela) ، رحالة يهودي أندلسي من أهل القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) . قام برحلة واسعة خلال السنوات ٥٦١ـ٥٦٩ هـ (١١٦٥ـ١١٧٣م) . فقد خرج من تطيلة احدى مدن الاندلس ، وزار بعض أنحاء اسبانية وفرنسة وايطالية واليونان وتركيـة وسورية ولبنان وفلسطين .

ثم قصد العراق ، ومنه الى جزيرة العرب وايران والهند والصين وبعض أنحاء افريقية وسينا وصقلية ومنها عاد الى بلاده .

ويهمنا من هذه الرحلة بوجه خاص ، ما كتبه عن العراق . فان بنيامين حين جاء الى العراق ، أخذ يتنقل بين دجلة والفرات حتى بلغ الموصل . ثم القى عصا الترحال في بغداد ، فاعجب بما شاهده من عمرانها وأسهب في وصف قصور خلفائها ومعاهدها ومارستاناتها . ولعله أول أوربي ، من غير المسلمين ، جاوز الفرات وبلغ بغداد وخلف عنها مثل هذا الوصف .

ومن بغداد توجه بنيامين الى مدن الفرات الاوسط . وهو في كل رحلاته في ديار العراق ، لم يفته الاطلاع على أحوال اليهود المقيمين في هذه الديار، وزيارة مقامات وقبور الصالحين والاتقياء منهم . ومما زاره ايضا مدينـة واسط والبصرة ، والعمادية في شمال العراق .

الف بنيامين رحلته باللغة العبرية . وقد ترجمت من العبرية الى معظم اللغات الاوربية كاللاتينية والانكليزية والفرنسية والهولنديـة والالمـانية والروسية والاسبانية .

وقد شاء الاستاذ عزرا حداد ، وهو من المتضلعين باللغة العبرية ، أن لا تحرم اللغة العربية من هذه الرحلة القديمة . فنقلها من لغتها الاصلية الى العربية ، وعلق عليها تعليقا وافيا كشف عن غوامضها وأوضح مكنوناتها(٧).

رحلة غسبارو بالبي

كان هذا الرجل جوهريا ايطاليا من أهل البندقية . بدأ رحلته سنة ١٥٧٩م - وقد كتبها باللغة الايطالية . ونشرت ترجمتها الانكليزية في لندن سنة ١٨١١(٨). وقد وصف فيها حلب ـ الفلوجة ـ بغداد ـ البصرة .

ونود ان نشير الى ان المستشرقة الايطالية أولغا بنتو (Olga Pinto) ، قد أعادت نشر قسم من رحلة بالبي ، وهو القسم الخاص بحلب والعراق ، مع تعليقات وحواش كثيرة لها ، وذلك في مجلة الاكاديمية الاهلية في ايطالية ، سنة ١٩١٢ . وقد أفردت من ذلك نسخا على حدة ، رأيت واحدة منها في خزانة المرحوم الاستاذ يعقوب سركيس .

وقد جرى بيني وبين الاستاذ سركيس حديث هذه الرحلة ، فتمنى أن

تنقل الى اللغة العربية ، لتعم الفائدة منها بذلك • فقلت له ان لي صديقاً يحسن الايطالية ، وفي وسعه نقلها الى العربية • وكان هذا الصديق هو الاب العالم بولس شيخو ، الذي ارتقى بعد ذلك في مناصب الكهنوت حتى أضحى بطريركا على الكلدان •

وقد تولى الاب شيخو ترجمة هذه الرحلة الى العربية ، ولكن هذه الترجمة العربية لم تطبع حتى الان • وأغلب الظن ان مسودتها ما زالت محفوظة بين مخلفات الاستاذ سركيس •

ومما جاء في هذه الرحلة ، ان غسبارو بالبي ، غادر حلب في ١٣ كانون الاول سنة ١٥٧٩م ، قاصدا بغداد بطريق البيرة • فركب الفرات ، فوصل اليها في أواخر كانون الثاني ١٥٨٠م • وبعد ان أقام صاحب هذه الرحلة نحوا من شهر في بغداد ، غادرها في ١٣ آذار قاصدا البصرة •

رحلة دلا فاله

بترو دلا فاله(٩) ، سائح ايطالي ، من أشهر الرحالة الاوربيين الذين أموا بلدان الشرق في أوائل القرن السابع عشر •

ولد دلا فاله سنة ١٥٨٦ وتوفي سنة ١٦٥٢م • وساح سياحة واسعة استغرقت خمسة أعوام (١٦١٦-١٦٢١م) ، زار خلالها بلاد اشور وبابل وايران وبعض الاصقاع المجاورة الاخرى • وألم ببعض اللغات الشرقية • وكان في طوافه في أرض العراق ، عني عناية خاصة بفحص أخربة كثير من المدن القديمة ، كبابل وأور • ولم يكن دلا فاله سائحا حسب بل كان عالما آثاريا واقفا على ما ورد بشأن الآثار الشرقية في التوراة وفي المصادر الاغريقية • وهو أول من نقل الى اوربة الواح الآجر المنقوشة بالكتابات المسمارية وأكسبها شهرة بين الاوربيين ، مع كونه لم يفقه شيئا منها • وحديث رحلاته في الشرق أودعه رسائل كتبها باللغة الايطالية ، بعث بها الى صديقه شيبانو (Mario Schipano) أستاذ الطب في نابولي • وقد طبعت بعدئذ في مجلدين سنة ١٦٥٣م(١٠) • ثم طبعت طبعة حسنة سنة ١٨٤٥ في مجلدين • وهذه الرحلة نقلت بكاملها الى الفرنسية وطبعت سنة ١٦٦١-١٦٦٣م • ونقل مايخص بلاد الهند منها الى الانكليزية ، وطبع سنة ١٦٦٥م•

ويهمنا في هذا البحث ، أن نشير بوجه خاص ، الى ان السيد جرجس دلال ، مطران الموصل الاسبق على السريان الكاثوليك ، المتوفى سنة ١٩٥١ ، نقل الى اللغة العربية بعض ما يخص بلاد العراق ، ونشره في مجلة «نشرة الاحد» التي كانت تصدر في بغداد(١١)، بعنوان « رحلة السائح بطرس »•

كما ان الخوري عبد الاحد جرجي السرياني ، المتوفى سنة ١٩٥٠ ، نشر في تلك المجلة نفسها ، نبذة من رحلة هذا الرحالة ، بعنوان « السفر من حلب الى بغداد»(١٢)•

ونقل الاستاذ سعاد هادي العمري ، وصف بغداد حسبما جاء في رحلة دلا فاله(١٣)•

ومن طريف ما يذكر من أمر هذا الرحالة ، انه حين اقامته ببغداد ، تزوج بفتاة نصرانية كلدانية اسمها « معاني » ، أصلها من ماردين • وقد رافقته في رحلته الى بلاد فارس وتوفيت سنة ١٦٢١م • ونقل دلا فاله رفاتها معه الى رومة ودفنه هناك • وكان قد رثاها ، ونشر هذا الرثاء في حياته في البندقية سنة ١٦٢٧م •

رحلة تافرنيه

يعد جان باتست تافرنيه (١٦٠٥-١٦٨٩م) ، في طليعة الرحالين الفرنسيين الذين قصدوا العراق ووصفوا شيئا من معالمه •

ولد تافرنيه في باريس • ورحل الى عدة أرجاء من أوربة • ثم ظعن الى آسية عام ١٦٣٦م ، فسافر اليها ست مرات في ٣٠ سنة ، فأثرى ثراء عظيما بتجارة الالماس والحجارة الكريمة • وقد كان يتكلم معظم لغى اوربة •

ومن أشهر تآليفه ، حديث رحلاته الست(١٤) المطبوع في باريس سنة ١٦٧٦ في مجلدين ، ثم أعيد طبعه فيها سنة ١٧١٣ •

وقد نقل هذه الرحلات جميعا (ج• ب•) الى اللغة الانكليزية ، فنشرت هذه الترجمة في لندن سنة ١٦٧٨(١٥)•

ويندر أن نجد بين الرحالة الغربيين القدامى ، من ضارع تافرنيه في جوب أصقاع الارض بهذا النطاق الواسع • فلقد دار في أغلب الاقطار الاوربية، وشاهد بلاد الشرقين الادنى والاوسط ، وبلغ به المطاف الى جزائر الهند الشرقية واليابان • وأودع أنباء ما شاهده في كتاب رحلاته الست الذى ألمعنا اليه •

وأسلوب المؤلف في حديث رحلاته ، أشبه بكتابة « اليوميات » • فهو يدون ما يريد تدوينه بحسب تعاقب زيارته للمواطن التى يتناولها بالوصف•

ظلت رحلة تافرنيه بعيدة عن قراء العربية ، حتى تهيأ لنا : زميلي الاستاذ بشير فرنسيس وأنا ، أن ننقل الى العربية ما يخص « العراق » من هذه الرحلة الواسعة ، فأفردنا ذلك في كتاب نشر قبل عشرين سنة(١٦)•

اجتاز تافرنيه ببلاد العراق غير مرة اثناء ذهابه من سوريا الى ايران • فقطع كثيرا من البوادي والفيافي ، ومر بمدن وقرى ومواضع جمة • وقد وصف من بينها : عانة ، الموصل ، نينوى ، العمادية ، شهرزور ، تكريت ، الدور ، سامراء ، بغداد ، عقرقوف ، العمارة ، القرنة ، البصرة •

وفي وسعنا القول ان تافرنيه كان في طليعة الرحالين الغربيين الذين أطالوا القول في « الصابئة »•

رحلة نيبور

قد يكون الرحالة العالم الالماني الاصل كارستن نيبور (١٧٣٣-١٨١٥) من أقدم الرواد الاوربيين الذين جاسوا خلال البلاد العربية في القرن الثامن

عشر ، وتركوا لنا في صفتها رحلة من أجل كتب الرحلات وأوفرها حظا من الامتاع والفائدة(١٧)٠

كان نيبور مختصا بعلم الفلك والجغرافية واللغات الشرقية المعاصرة٠ أوفده فردريك الخامس ملك الدانمرك ، سنة ١٧٦١ ، على رأس بعثة علمية الى بلاد الشرق الادنى وجنوبي جزيرة العرب بوجه خاص ، لدراسة أحوالها الاجتماعية والجغرافية والتاريخية والاثرية ٠ زار نيبور في هذه الرحلة البلاد العربية مبتدئا من مصر فالحجاز فاليمن فحضرموت وعمان حتى وصل الى ميناء بومبى ٠ ثم قفل راجعا الى بلاده ٠ وعاد منها في رحلة ثانية الى استانبول ثم زار ايران ، ووصل مدينة البصرة حيث بدأ منها رحلته العلمية في العراق٠ فزار النجف وكربلاء والحلة وبغداد وكركوك واربيل والموصل ٠ وقد دامت رحلات نيبور في العراق منذ أواخر سنة ١٧٦٥ حتى أوائل نيسان سنة ١٧٦٦ ٠

وغادر نيبور مدينة الموصل متوجها الى ماردين وديار بكر واستانبول، ومنها عاد الى بلاده ٠

وعلى عظم منزلة رحلة نيبور ، فانها لم تترجم الى اللغة العربية برمتها ٠ وانما ترجم منها أقسام تتعلق بالعراق ٠

وأول ما نود الاشارة اليه في هذا الباب ، ذلك الفصل القيم الذي نقله من الالمانية الى العربية الاستاذ الدكتور محمود الامين وجعله بعنوان « رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر »(١٨)٠

ويدور هذا الفصل على مشاهدات نيبور في رحلته من بغداد الى الموصل ، مارا بطوزخرماتو وداقوق وكركوك والتون كوبري وكوي سنجق واربيل وكرمليس والموصل ٠

وعني الاستاذ الفاضل سعاد هادي العمري ، بترجمة أقسام من رحلة نيبور عن أصلها الالماني ، فأصدر سنة ١٩٥٤ مؤلفا تناول فيه وصف مدينة بغداد(١٩)٠ وأعقبه في سنة ١٩٥٥ بكتاب « مشاهدات نيبور في رحلة من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥م »(٢٠)٠

ولم يفت الاستاذ العمري ، ان ينوه في فصل خاص ، بما كتبه نيبور عن بغداد ، بعنوان « بغداد كما وصفها نيبور »(٢١)٠

وما كتبه نيبور في بغداد يصور مشاهداته وانطباعاته عن المدينة ، ويشيد بأبنيتها الاثرية وما فيها من كتابات ٠ كما انه يمدنا بتاريخ بغداد وأحوالها الادارية ابان زيارته لها ٠

اما مشاهدات نيبور في « رحلته من البصرة الى الحلة » ، فتتناول البصرة والنجف وكربلاء والحلة وغير ذلك من المواضع التى يمر بها خط هذه الرحلة ٠

رحلة جاكسون

جاكسون رحالة انكليزي من أهل القرن الثامن عشر ٠ زار العراق سنة

١٧٦٧ ودون حينذاك ما شاهده فيه • وقد كان هذا الرجل من موظفي «شركة الهند الشرقية» • تجول في بعض أنحاء العراق أثناء عودته من الهند الى بريطانية •

وأولى المدن العراقية التى أمها المؤلف ، كانت البصرة ، وقد خصها بفصل من رحلته • ومنها سار نهرا قاصدا بغداد• فمر بالقرنة وسوق الشيوخ وواسط والحي والكوت • ومنها وصل الى بغداد ، وقد خصها أيضا بفصل من رحلته • ثم غادر بغداد متوجها الى كركوك • فمر بطوزخرماتو وطاووق (داقوق) وقره‌تبه وكركوك والتون كوبري واربيل وعينكاوا وكلك (اسكي كلك) وقره‌قوش ، وانتهى أخيرا الى مدينة الموصل وقد خصها هي الاخرى بفصل من رحلته • ومنها سار متجها الى ديار بكر •

هذا هو ملخص سير الرحلة التي عني الاستاذ سليم طه التكريتي ، بنقلها الى اللغة العربية(٢٢) • وقد علق عليها تعليقات نافعة زادت هذه الرحلة قيمة •

رحلة سستيني

كان سستيني رحالة ايطاليا من اهل القرن الثامن عشر • زار العراق ، وألف رحلة باللغة الايطالية ، بعنوان « رحلة من القسطنطينية الى البصرة عام ١٧٨١م» ، نقلت الى اللغة الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٧٩٧م(٢٣)•

أودع المؤلف حديث رحلاته في وادي الرافدين منذ مجيئه من القسطنطينية الى البصرة سنة ١٧٨١ حتى عودته اليها سنة ١٧٨٢ بطريق الصحراء ثم الاسكندرية •

عني العلامة الدكتور روفائيل بيداويد ، مطران العمادية ، بترجمة هذه الرحلة الى اللغة العربية • وقد رجع في تلك الترجمة الى الاصل الايطالي والى الترجمة الفرنسية • ولكنه قبل أن يتهيأ له طبع هذه الترجمة العربية ، جرى ما جرى من احراق مكتبته ونهبها أثناء الاحداث التى انتابت العمادية قبل سنوات قلائل • وكانت الترجمة العربية لهذا الرحلة في جملة ما ذهب في هذه الحادثة المؤسفة •

ولكن هذا الحبر الهمام لم يقعده ضياع الترجمة العربية لرحلة سستيني ، بل أقبل من جديد على ترجمتها ترجمة ثانية ، ولعله يوفق لنشرها عما قريب ، فيضيف الى الخزانة العراقية مرجعا قيما يفصح عن بعض أحوال العراق في القرن الثامن عشر للميلاد • وما من شك في ان ذلك القرن من الفترات المظلمة في تاريخ العراق •

رحلة ريج

أحرز الرحالة كلوديوس جيمس ريج (١٧٨٧-١٨٢٠) ، شهرة بعيدة بين الرحالة الاجانب الذين أموا ربوع العراق ، نظرا الى سعة اطلاعه ودقة

ملاحظته • وقد قام برحلة واسعة المدى ، جاب فيها كثيرا من أنحاء العراق ، وأودعها من الحقائق والفوائد شيئا وافرا ، طبعتها أرملته في لندن سنة ١٨٣٦ في مجلدين(٢٤) •

كان مستر ريج في رحلته من بغداد الى كفري وطوزخرماتو وليلان والسليمانية وشهرزور وبنجوين • ثم دخل الحدود الايرانية • وبعد أن تجول في بعض بقاعها ، عاد الى العراق فزار العمادية وراوندوز والسليمانية واربيل والتون كوبري وجبل مقلوب وكرمليس ونينوى والموصل ودير مار متى والقوش ودير الربان هرمزد وتل أسقف وتلكيف والحضر ودير مار ايليا والنمرود والفتحة وتكريت والدور وسامراء والقادسية وبغداد وطاق كسرى وكوت العمارة والحي والعزير والقرنة والبصرة •

في كلام ريج على هذه المواضع العراقية التي ذكرناها وعلى غيرها من الامكنة التي يضيق نطاق بحثنا هذا عن استيعابها ، ايضاحات أثرية وتاريخية وبلدانية وسياسية واقتصادية • وما دونه عن العشائر الكردية والعربية وعن اليزيدية ، على جانب كبير من النفاسة •

ولم يكن ريج يمر بمواطن الآثار مرا خفيفا ، بل كان يوليها من العناية ما يسعفه به علمه يومذاك بآثار تلك المواطن •

ولا ريب في ان ما كتبه ريج عن تلك البقاع العراقية يعد في طليعة ما كتب عن آثار العراق • ومنه ومما كتبه أضرابه من الرحالين الآثاريين ، ولاسيما لايرد وجورج سمث ورولنسن ولوفتس ، تقوم أولى الدعامات لنشأة علم الآثار العراقية القديمة •

يتضمن المجلدان اللذان طبعا عن رحلة ريج ، تسعة عشر فصلا ، احتوى المجلد الاول على الفصول الاحد عشر الاولى • وضم الثاني سائر فصول الكتاب وما يتبعها من ملحقات •

وقد عني الاستاذ بهاء الدين نوري ، المتوفى سنة ١٩٦٠ ، بترجمة هذه الرحلة • فنقل منها الى العربية اثني عشر فصلا طبعها بعنوان « رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ »(٢٥) •

أما ما تبقى من فصول هذه الرحلة ، فلم يتسن للمترجم نقلها ، فظلت بعيدة عن قراء العربية •

رحلة المنشيء البغدادي

كتبها باللغة الفارسية السيد محمد بن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشيء البغدادي ، سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢م) ، بعد ان تجول في ديار الكرد ومواطن العراق الاخرى ، فذكر القبائل والمواقع الاثرية ببغداد وغيرها • وكان ذلك في أيام ولاية داود باشا •

والمنشيء البغدادي ، من معاصري المستر ريج ، المقيم البريطاني في العراق يومذاك ، وقد سبق الكلام عليه • وكان المنشيء قد رافق

ريج في رحلته الى شهرزور وكركوك والتون كوبرى واربل والموصل وغيرها من الانحاء •

جعل المنشىء رحلته عشرة أبواب ، ضمنها وصفا مختصرا مفيدا للمدن والقرى العراقية التى زارها وللطرق التى سلكها •

وقد نقلها العلامة الاستاذ عباس العزاوي ، من الفارسية الى العربية ، عن نسخة خطية في خزانة كتبه • وأغنى هذه الترجمة بكثير من تعليقاته واستدراكاته ، وقدم لها ، ووضع لها جملة فهارس هجائية ، وطبعها في بغداد(٢٦) •

رحلة فريزر

كان الرحالة جيمس بيلي فريزر (١٧٨٣ـ١٨٥٦) رحالة اسكتدلنديا • قام برحلات في الهند ولاسيما في جبال همالايا • وأوفد بمهمة رسمية الى تركية وايران • ومن أشهر موءلفاته رحلته الموسومة بـ « رحلات في كردستان وما بين النهرين »(٢٧)، كسرها على مجلدين ، قوام المجلد الاول خمسة عشر فصلا ، والثاني تسعة عشر فصلا •

تناول فريزر في الفصول الخمسة الاولى من المجلد الاول ، وصف رحلاته في ايران وبعد ذلك دخل العراق من جهات السليمانية ، ومنها سار الى كفري وقره تبه وجبال حمرين حتى وصل الى بغداد ، وقد خصها بسبعة فصول ، وهي من الفصل الثامن حتى الرابع عشر •

وفي المجلد الثاني ، وصف الموءلف رحلاته العراقية الاخرى • فقد زار سلوقية وطيسفون (طاق كسرى) والمحاويل وبابل والحلة وبرس نمرود وسوق الشيوخ والكوت والوركاء وبعقوبة وشهربان وخانقين • وقد استغرق كلام المؤلف في صفة هذه الرحلات ثمانية فصول من المجلد الثاني •

ولنا أن نقول ، ان الموءلف في رحلاته هذه دقيق الملاحظة ، مرهف الحس ، يسجل انطباعاته ومشاهداته بصراحة • وهو كثير الاهتمام بوصف الحالة الاجتماعية ، ولاسيما في ذكر عادات وطباع العشائر العربية والكردية التي مر بها •

وبالرغم من مرور زهاء قرن وربع قرن على هذه الرحلات ، فان ما دونه فريزر ، ما زال يعد مرجعا مهما يصور ما كان عليه العراق في الثلث الاول من القرن التاسع عشر •

لقد عني الاستاذ جعفر خياط بترجمة القسم العراقي من هذه الرحلة الممتعة الى اللغة العربية ، وسيصدر المجلد الاول منها مطبوعا في بغداد عما قريب •

رحلة بكنكهام

يعد بكنكهام (١٧٨٦ـ١٨٥٥) من أشهر الرحالين الانكليز في أقطار الشرق العربي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر • ويأتي كتاب رحلته

الى العراق(٢٨) في طليعة مؤلفاته قيمة ونفاسة ٠

لم يترجم من هذه الرحلة الى اللغة العربية ، غير ثلاثة فصول ، تضمنت صفة بغداد وأحوالها التاريخية والعمرانية ٠ ونظرا الى ما تنطوي عليه هذه الفصول من فوائد ، فانها يصح ان تتخذ مصدرا مهما عن هذه المدينة في أوائل القرن التاسع عشر ٠

وقد عني الاستاذ محمد علي حلاوي ، بترجمة هذا القسم الخاص ببغداد من رحلة بكنكهام ، ونشره في فصلين متواليين في مجلة سومر(٢٩)٠

وكذلك فعل الاستاذ سليم طه التكريتي في ترجمة ما جاء عن بغداد في هذه المرحلة بشيء من التلخيص ٠ وقد نشر ذلك في عددين من مجلة «بغداد» (التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد) العدد ٧ و٨ لسنة ١٩٦٣ ٠

رحلة فوك

صاحب هذه الرحلة ، رحالة أميركي زار بلدان الشرق الادنى سنة ١٨٧٤ـ١٨٧٥ ، وألف في حديث رحلته كتابا قيما باللغة الانكليزية ، طبع في لندن سنة ١٨٧٥(٣٠) ٠ ولعل فوك فيطليعة الرحالين الاميركيين الذينتناولوا في رحلتهم وصف بلاد العراق والتعريف بأحوالها ٠

قدم فوك من لندن الى مصر ، ومنها الى فلسطين فالبحر الاحمر فالبحر العربي فايران ، ومنها دخل بلاد العراق ٠

وصف فوك أحوال بغداد وصفا رائعا ٠ زار بابل وكربلاء ونينوى والفاو والبصرة ، وخصها بفصول ممتعة من رحلته ٠

لقد كان هذا الرحالة دقيقا في تصويره الامور التي أراد ان يصفها لقرائه٠ فجاءت رحلته طرفة أدبية تاريخية اجتماعية ، حوت من الفوائد ما حملت الاستاذ المحامي عبود الشالجي ، الى نقلها من الانكليزية الى العربية(٣١) ، والتعليق عليها حيثما اقتضى الامر ٠ وترجمة هذه الرحلة لم تطبع ٠ وينتظر ان تنشر في جملة مطبوعات مؤسسة فرنكلين قريبا ٠

رحلة مدام ديولافوا

السيدة ديولافوا (١٨٥١ـ١٩١٦) ، أديبة فرنسية ، قصدت ديار الشرق سنة ١٨٨١ في رحلة واسعة النطاق ، وخصت « العراق » بجانب من رحلتها ٠ فصورت في كتابها عادات العراقيين وملابسهم وأحوالهمالاجتماعية والسياسية ٠

ومؤلفة هذه الرحلة ، هي زوجة المهندس الآثاري مارسل ديولافوا Marcel Dieulafoy (١٨٤٤ـ١٩٢٠) ، وله مؤلفات شتى في آثار ايران خاصة ٠

رافقت السيدة ديولافوا زوجها في رحلاته الى العراق وايران ، وصنفت بالفرنسية كتابا كبيرا وسمته بـ « رحلة الى ايران وكلدة والسوس »(٣٢)٠ وقد كلف الاستاذ علي البصري بهذه الرحلة التي قرأها في ترجمتها

الى اللغة الفارسية ، فأحب أن يشرك قراء العربية بما جاء فيها عن «العراق»، فنقله الى العربية ، ونشره في كتاب ظهر في بغداد سنة ١٩٥٨(٣٣) ، مصدرا بمقدمة للعلامة الدكتور مصطفى جواد .

واذا كان لابد من ذكر المواطن التي زارتها المؤلفة ، أقول ان هـذه السيدة وصفت في رحلتها مدينة البصرة ، ونعتتها بكونها « بندقية الشرق » . ثم زارت القرنة والعزير والعمارة والكوت وطـاق كسرى . ثم وصلت الى بغداد ، فقالت فيها انها « أجمل من اسلامبول . ودجلة أروع من البسفور »، وانها « موطن الاشعاع واوربا في ليالي الجهل » .

وقد وصفت المؤلفة خان الاسكندرية وبابل والحلة . ولاحظت ان معظم دور الحلة مبني بالآجر المستخرج من أطلال مدينة بابل ومن غيرها من المدن المندرسة المجاورة لها . ثم زارت برس نمرود وكربلاء .

ووصف ديولافوا لجميع هذه البقاع العراقية التي مرت بها ، طريف تضمن التفاتات جميلة وملاحظات صائبة وتصويرا دقيقا لما شاهدته .

رحلة بج

السر والس بج ، عالم آثاري انكليزي ذائع الصيت . اشتهر بسعة معارفه في الآثار البابلية والاشورية والمصرية ، وبوفرة مؤلفاته في هذه الميادين ، وبما نشره من أمهات التصانيف القديمة في اللغـات السريـانية والقبطيـة والحبشية . وقد كانت وفاته في سنة ١٩٣٥ .

ومن مآثره العلمية الجليلة ، رحلاته في ديار العراق ومصر بين السنوات ١٨٨٦ و١٩١٣(٣٤) . فقد أودعها كتابا حـافلا يقع في مجلدين كبيرين أربى مجموع صفحاتهما على ٩٠٠ صفحة .

تناول بج في هذا الكتاب رحلاته في كثير من أنحاء العراق ومصر ، وقد عززه بصور أثرية مفيدة .

ويعنينا في بحثنا هذا ، حديث رحلته العراقية . فقد وصف رحلاته الى بغداد وبابل والحلة وبورسبا وسيبار والموصل ونينوى وتلكيـف والقوش وبابيوخ وخرساباد وبلاوات وحمام علي والنمرود واشور وتكريت وسامراء والقادسية واوبيس والكفل والكوفة وغيرها من المواضع العراقية . وهو حين يصف ما شاهده في هذه البقاع ، يختلف أمره عن بعض السياح والرحالين الذين يتشبثون بالقشور دون اللباب ، فتأتي مؤلفاتهم غثة . ونظرا الى تعمق بج في دراسة تاريخ العراق القديم وآثاره ، فقد جعل من رحلته هذه كتابا يتضمن وصفا أثريا تاريخيا جغرافيا . واذا استقصينا ما صنفه أبناء الغرب من مؤلفات في صفة رحلاتهم الى العراق ، الفينا رحلة بج وقد تبوأت المكانة الرفيعة بين تلك الرحلات .

وقد عني الاستاذ فؤاد جميل ، بترجمة القسم العراقي من هذه الرحلة القيمة ، فصبه في أسلوب عربي أخاذ ، ووسمه بـ « رحلات الى العراق » ، وسيدفع به الى المطبعة . فاذا تم طبعه ، فان قراء العربية المعنيين بالبحوث

العراقية ، سيغتنمون مصدرا نفيسا جليل الشأن ٠

رحلة فيلبي في العراق

لم يبلغ احد من الرحالين الانكليز المعاصرين من الشهرة ، ما بلغه فيلبي (١٨٨٥ـ١٩٦٠) الذي أمضى ردحا طويلا من حياته في ارتياد البلاد العربية ٠

كان أول مجيء فيلبي الى العراق ، في أواخر سنة ١٩١٥ ، فأمضى فيه سنوات وصفها في مؤلف له طبع سنة ١٩٤٨(٣٥)٠

في هذا الكتاب فصل بعنوان « العراق في دور التكوين » ، عني الاستاذ جعفر خياط ، بنقله الى العربية(٣٦)٠

وصف فيلبي في هذا الفصل ، أحوال العراق السياسية حسبما كانت تتراءى له اثناء مكثه فيه ، وذكر ما كان له فيها من أثر ٠ فهو فصل من تاريخ العراق الحديث يمثل وجهة نظر بريطاني واكب تلك الفترة من الزمان وكان له فيها رأي وأثر ٠

رحلة الليدي دراور

السيدة دراور (E.S. Drower) ، وكانت تعرف في بعض تآليفهـــا السابقة باسم ستيفنس (E.S. Stevens) ، من السيـــدات الانكليزيـــات اللواتي أمضين شطرا حسنا من عمرهن في ربـوع العراق ٠ وكانت خـلال اقامتهـا فيه ، تتطلـع الى الوقوف على أحواله الاجتماعيـة ٠ وقد صنفت في موضوعات تلامس المجتمع العراقي مؤلفات عديدة ٠ منها كتابها في «اليزيدية»، وكتابها في « الصابئة » ، وكتابهـا في « الحكايات العاميـة العراقيـة » ، « رحلتها في العراق » ، وغير ذلك ٠ وهي اليوم ، وقد تجاوزت الثمانين من العمر ، تعد الاختصاصية الاولى في اللغة المندائية (الصابئية) وآدابها ٠ فقد نشرت في ذلك مؤلفات وبحوثا جمة ، ومن أحدث ما نشرته في هذا الباب « معجم اللغة المندائية » ٠

ويهمنا في بحثنا هذا أن نقول كلمة بشأن رحلتهـا العراقيـة ٠ فقـد صنفتها باللغة الانكليزية ونشرتها في لندن قبل نيف وأربعين عاما(٣٧)٠

وصفت المؤلفة في رحلتها ، بعض المدن العراقية المطمورة : نمرود ، اشور ، بابل ، بورسبا ، عقرقوف ، أور ٠

واشتملت رحلتها على فصل في العتبات المقدسة في العراق ، فتكلمت على النجف والكوفة وكربلاء ومشهد الكاظمين وسامراء ٠

وعقدت فصلا كبيرا على مـدن العراق : بغداد والموصل والبصرة ٠ ثم تناولت بالبحث شؤونا عراقية مختلفة : المرأة ، العشائر ، اليهود ، اليزيدية، الصابئة ، الاهوار ، الديارات ، العادات والتقاليد ، وغير ذلك ٠

وقد شاءت همة الاستاذ فؤاد جميل ، ان لاتبقى هذه الرحلة الممتعة بعيدة عن آفاق قراء اللغة العربية • فتولى نقلها الى هذه اللغة ، ونشر الترجمة موسومة بعنوان « في بلاد الرافدين : صور وخواطر »(٣٨)•

رحلة تسيكر الى منطقة الاهوار

ولفريد تسيكر (Wilefred Thesiger) ، رحالة انكليزي له رحلات في العراق والجزيرة العربية • وقد زار منطقة « الاهوار » في جنوبي العراق مرارا خلال ١٩٥١ـ١٩٥٣ ، فدرس أحوالها الاجتماعية والاقتصادية ،وبحث في النباتات والحشائش التي تنبت في الاهوار ، متحريا عن أسمائها المحلية ومحققا أسماءها العلمية • كما درس حال الحيوانات التي تعيش هناك ، فذكر اسماءها المحلية والعلمية ولاسيما الطيور •

وقد ألقى تسيكر في صيف عام ١٩٥٣ ، محاضرة على اعضاء الجمعية الآسيوية الملكية في لندن ، عنوانها « المعدان أو سكان الاهوار الجنوبية في العراق » ونشرها في مجلة تلك الجمعية(٣٩)•

تدور موضوعات هذه الرحلة العلمية على وصف الاهوار ونباتاتها ، والمعدان ومساكنهم ، والجاموس ، والوسائط النهرية ، وصيد الاسماك ، وصناعة البواري ، والغناء والرقص ، وحفلات الزواج ، وحفلات الختان ، والطقوس الدينية ، والامراض والاوبئة ، والطيور والحيوانات •

وقد عني الاستاذ باقر الدجيلي ، وهو من ذوي الاطلاع الحسن على منطقة الاهوار ، بترجمة هذه المحاضرة الى العربية ونشرها(٤٠)•

رحلة ماكسويل الى منطقة الاهوار

استهوت « البطائح » المعروفة اليوم بمنطقة الاهوار في جنوبي العراق ، غير واحد من الرحالة الغربيين واسترعت اهتمامهم بها • فشدوا اليها الرحال، يحدوهم الى ذلك حب الوقوف على أسلوب المعيشة البدائية في هذه البقعة • وقد صنفوا فيها مؤلفات بالانكليزية والالمانية •

ومما نقل منها الى العربية ، كتاب ألفه بالانكليزية كافن ماكسويل(٤١)، ونقله الى العربية الاستاذ صادق عبدالصاحب التميمي(٤٢)•

في هذه الرحلة تصوير رائع لمغامرات المؤلف في سبيل التعرف الى فئة من الفلاحين تقطن منطقة الاهوار الممتدة في ألوية العمارة والبصرة والناصرية•

ولا تجانب الصواب اذا ما قلنا ان كتاب « قصبة في مهب الريح » ، رحلة تتضمن دراسة جغرافية اجتماعية دقيقة شاملة لجزء من جنوبي العراق•

ذكر الدكتور شاكر مصطفى سليم(٤٣) ، ان منطقة الاهوار في العراق

قد تكون من أوسع مناطق الاهوار في العالم • فتقدر مساحتها مع الامتدادات الصحراوية التي تتخللها ، بما يساوي عشرين ألف كيلومتر مربع • فمن العمارة ، وهي المدينة الرئيسية في منطقة أهوار دجلة الى القرنة ، يجري نهر دجلة باتجاه جنوبي • والى شرقه تمتد الاهوار الى ما وراء الحدود الايرانية • ويجري الفرات في اتجاه جنوبي من الكفل الى الناصرية ثم باتجاه شرقي الى القرنة • والى جنوبه ، بين سوق الشيوخ والبصرة ، يقع هور الحمار البالغ طوله حوالي السبعين ميلا •

رحلة ماليبارد

ماليبارد ، صحفي هولندي ، أم العراق بصفة كونه عضوا في البعثة التي جاءت الى العراق لدراسة أحواله الاقتصادية والاجتماعية في زيارة استغرقت خمسة أشهر ، توفر خلالها على « التجول بين ربوع هذه البلاد من شمالها الى جنوبها ومن شرقها الى غربها • فجاب مدنها وقراها وريفها ، وتغلغل بين عشائر العرب والاكراد ، فتعرف على شخصيات كثيرة من زعمائهم ورؤساء عشائرهم وسراكيلهم ، وجلس مع فلاحيهم ، وسمر معهم أمسيات عديدة ، واختلط بين مختلف طبقات الشعب الاجتماعية فسجل آراءه وانطباعاته بأسلوب أدبي ، وعقلية أوربية»(٤٤)•

كتب ماليبارد حديث رحلته باللغة الهولندية • ثم ترجمه بعضهم الى اللغة الالمانية سنة ١٩٥٦(٤٥)•

وقد أقبل الدكتور حسين كبه على هذه الترجمة الالمانية ، فنقلها الى اللغة العربية ، ونشر الترجمة بعنوان « نواعير الفرات ، أو بين العرب والاكراد»(٤٦)•

والكتاب حري بالقراءة لما فيه من بحوث ممتعة • فقد صور المؤلف حياة السكان الاجتماعية ، ومشاكلهم الاقتصادية والزراعية والتجارية ، وتطرق الى منظمات الدولة •

نبذة ختامية

هذا غيض من فيض من كتب الرحالة الاجانب الذين أموا العراق وخصوه بالوصف والتبيان •

فما نقل الى اللغة العربية من كتب الرحلات هذه ، لا يعدو أن يكون شيئا زهيدا بالقياس الى ما صنف في مختلف اللغات الغربية ، فضلا عن الشرقية ، من مصنفات في أخبار تلك الرحلات •

ويتعذر علينا ، في هذا المقام ، أن ننوه بأسماء جميع تلك «الرحلات» المصنفة بتلك اللغات ، فهي من الكثرة بحيث يبلغ عددها مئات التصانيف • وهي في جملتها ــ باستثناء ما سبقت الاشارة اليه في تضاعيف هذا البحث ــ ما زالت بعيدة عن قراء العربية • ولو انها نقلت الى اللغة العربية ، لملأت فراغا متسعا في مصادرنا العربية • ذلك انه تقوم من هذه المؤلفات ، خزانة

كتب مختارة تضم شتى المراجع التي تصف حال العراق ابان مجيء أولئك الرحالين اليه •

نعم ، ان في هذه الرحلات الغث والسمين • وفضل المترجم لها يبدو من خلال ما يضيفه اليها من تعليق وتصحيح وايضاح واستدراك •

ولسائل أن يسأل : اذا كان سرد أسماء كتب الرحلات الى العراق متعذرا في مثل هذا المقال ، أفما تمكن الاشارة الى أسماء موءلفي أشهرها ؟ والجواب على ذلك : بلى ! فهنالك من الرحلات ما هو جدير بالقراءة والافادة منها • واذكر من ذلك ، رحلات المؤلفين الآتية أسماؤهم في الثبت الآتي وقد رتبتها على حسب السياق الزمني لتأليفها :

زمن التأليف	اسم الرحالة بالعربية	اسمه بالافرنجية
(القرن الرابع قبل الميلاد)	نيرخس (الملاح الاقريطشي ، وقائد الاسكندر اليوناني)	Nearchlus
(٤٢٧ـ٣٥٥ ق٠م)	زينفسون (المؤرخ ، الفيلسوف ، القائد اليوناني)	Xenophon
(١٢٥٤ـ١٣٢٣ م)	ماركو بولو (الرحالة الايطالي البندقي (٤٧))	Marco Polo
١٥٥٣	سيدي علي ريس (التركي)(٤٨)	
١٥٧٤	راولف	L. Rauwolf
١٥٨١	نيوبري	John Newberry
١٥٨٩	السر انطوني شيرلي	A. Scherley
١٦٠٤	تكسيرا	Pedro Teixeira
١٦٢٦	هربرت	T. Herbert
١٦٣٨	تيفنو	M. D. Thevenot
١٦٧٢	دابر	O. Dapper
١٧٢٩	بوشامب	Abbe Joseph de Beauchamp
١٧٣٦	أوتر	M. Otter
١٧٥٨	ايفز	E. Ives
١٧٧٤	بارسنز	A. Parsons
١٧٧٩	دانفيل	M.D. D'Anville
١٧٨١	اروين	E. Erwin
١٧٩٠	تيلر	J.E. Taylor
١٧٩١	أوليفيه	G.A. Olivier
١٨٠٢	مرزا أبو طالب خان	
١٨٠٨	روسو	J.M.L. Rousseau
١٨٠٨	دوبري	Dupre

J.M. Kinneir	كينير	١٨١٠
J.S. Buckingham	بكنكهام	١٨١٦
W. Heude	هود	١٨١٧
R. Ker Porter	بورتر	١٨١٨
G.T. Keppel	كيبل	١٨٢٤
E. Mignan	منيــان	١٨٢٧
Autony N. Groves	كروفز (٤٩)	١٨٣٠ ـ ١٨٣١
F.R. Chesney	جسني	١٨٣١ ـ ١٨٣٦
Ross	روس	١٨٣٤ ـ ١٨٣٧
W. Ainsworth	اينسورث	١٨٣٦
H.B. Linch	لنج	١٨٣٧
H. Southgate	ساوثكيت	١٨٣٨
Grant	كرانت	١٨٣٩
A. Wellsted	ولستد	١٨٣٩
J.P. Fletcher	فليتشر	١٨٤٢ ـ ١٨٤٣
G.P. Badger	باجر	١٨٤٢ ـ ١٨٤٤
J. Felix Jones	جونز	١٨٤٨ ـ ١٨٥٥
W.K. Loftus	لوفتس	١٨٤٩ ـ ١٨٥٠
Sir William Andrew	اندرو	١٨٥٧
J. Oppert	أوبرت	١٨٥٩
H. Peterman	بيترمان	١٨٦٥
F. Millingen	ميليكن	١٨٧٠
George Smith	سمث	١٨٧٣ ـ ١٨٧٤
J. Cernik	جرنيك	١٨٧٦
Lady A. Blunt	بلنت	١٨٧٨
H. Binder	بايندر	١٨٨٥
O.H. Parry	باري	١٨٩٢
J.P. Peters	بيترس	١٨٩٥
H. Rassam	رسام (هرمــزد رسام الموصلي)	١٨٩٧
M. Sykes	سايكس	١٨٩٩ ـ ١٩٠٦
H.V. Hilprecht	هلبرخت	١٩٠٣
Louis Massignon	ماسنيون	١٩٠٧ ـ ١٩٠٨
E.B. Soane	صون	١٩٠٨ ـ ١٩٠٩
Alois Musil	موسيل	١٩٠٨ ـ ١٩١٢
C. Preusser	بروســر	١٩٠٩
Gertrude L. Bell	المس بل	١٩٠٩

F. Sarre & E. Herzfeld	ساره وهرزفلد	١٩١١
W.A. & E.T.A. Wigram	ويكرام	١٩١٤
W.R. Hay	هاي	١٩١٨ ـ ١٩٢٠
C.M. Alexander	الكساندر	١٩٢٨
A.M. Hamilton	هملتن	١٩٣٧

وقبل أن أختتم هذا البحث ، أرى أن أنوه بمؤلف في هذا الباب ، في القرون الخمسة الاخيرة»[٥٠] وهو (بغداد كما وصفها السواح الاجانب) للاستاذ سعاد هادي العمري وقد ترجمه من مصادر المانية مختلفة .

اشتمل هذا الكتاب على صفة مدينة بغداد ، حسبما جاءت في مؤلفات بعض الرحالة والمؤلفين الغربيين ، ولاسيما :

١ ـ كتاب جغرافية العالم : للجغرافي الالماني كارل ريتر Karl Ritter (١٧٧٩ـ١٨٥٩) ، المطبوع في برلين سنة ١٨٤٤ .

٢ ـ رحلة السائح الالماني بيترمان H. Petermann ، المطبوعة في ليبسك سنة ١٨٦٤ . وقد زار بغداد سنة ١٨٥٤ ومكث فيها خمسة أشهر .

والجدير بالذكر ، ان كارل ريتر ، نقل من بعض كتب الرحلات التي تقدمته ، نصوصا جزيلة الفائدة في صفة بغداد . ومن تلك المؤلفات ، رحلة كل من :

سيزار فيدريكو (Caesar Federigo) احد تجار البندقية . وقد زار بغداد سنة ١٥٦٣م .

وليونرد راولف (L. Rauwolff) الالماني ، وقد زار بغداد سنة ١٥٧٤ .

ودلا قاله ، ونيبور . وقد مر الكلام عليهما في تضاعيف هذا البحث .

وبوشامب ، وروسو ، واوليفيه ودوبري (وقد وصف بغداد وبحث في أحوالها الادارية سنة ١٨٠٨) ، وكر بورتر ، وفريزر . وقد سبقت الاشارة اليهم .

ولا مندوحة أيضا عن ذكر كتاب سياحة الرحالة التركي الشهير « أوليا چلبي » . ففي رحلته ـ وهي مطبوعة باللغة التركية في عشرة مجلدات ـ فصول ونبذ قد انتشرت في ثناياها ، كتبها سنة ١٦٥٥م . ويا حبذا لو عني بعض العارفين باللغة التركية[٥١] بنقل مايخص العراق من هذه الرحلة ، وهو في جملته لا يتجاوز مئة صفحة .

---

(١) Parthian Stations by Isidore of Charax: An Account of the Overland Trade Route between the Levant and India in the First Century B.C., The Greek Text, with Translation by W.H. Schoff. (Philadelphia 1914; 47 p.)

(٢) فؤاد سفر : المنازل الفرثية لاسيدورس الكرخي . (سومر ٢ [بغداد ١٩٤٦] ص ١٦٥ ــ ١٧٨) .

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . (القاهرة ١٩٤٥ ؛ ص ٥٦) .

(٤) الرحالة المسلمون . ص ٥٧ .

(٥) سفرنامة . (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٤٥ ؛ خ + ١٣٤ ص) .

(٦) سفرنامه . ص ٩٦ .

(٧) رحلة بنيامين . (المطبعة الشرقية ــ بغداد ١٩٤٥ ؛ ٢٣٦ ص) . وبما يخص العراق منها ، يقع في الصفحات ١٢٧ ــ ١٥١ ، ١٥٤ ــ ١٥٧ ، ١٩٦ ــ ٢٠٩ .

(٨) في سنة ١٨٨٤ ، نشرت في لندن ترجمة انكليزية لرحلة بالبي في العراق ، بعنوان :
Gasparo Babli, Journey from Baghdad to Busrah in 1580.

(٩) راجع : العراق في القرن السابع عشر . لبشير فرنسيس وكوركيس عواد ، كاتب هذه السطور (بغداد ١٩٤٤ ؛ ص ١٣٦ ــ ١٣٧) .

(١٠) Pietro Della Valle, Viaggi di Pietro Della Valle il Pellegrino da lui Medesimo in Lettere Familiari.

(١١) نشرة الاحد (السنة الاولى . بغداد ١٩٢٢) .

(١٢) نشرة الاحد ١ [١٩٢٢] ص ٩٢ .

(١٣) سعاد هادي العمري : بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة . (بغداد ١٩٥٤ ؛ ص ١٩ ــ ٢٠) .

(١٤) Jean Baptiste Tavarnier, Les Six Voyages.

(١٥) The Six Voyages of J.—B. Tavernier Through Turkey into Persia and the East—Indies.

(١٦) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه . نقله الى العربية وعلق حواشيه : بشير فرنسيس وكوركيس عواد . (مطبعة المعارف ــ بغداد ١٩٤٤ ؛ ١٨٤ ص) .

(١٧) Karsten Niebuhr, Reisebeschreibung, (2 vols., Amsterdam 1774-78)

وقد نقلت هذه الرحلة الى الفرنسية وطبعت بعنوان :
Voyage en Arabie et en d'auters Pays Circonvoisins. Traduit de l'Allemend. (2 vols., Amsterdam 1776-1780.)

وبما يخص العراق من هذه الرحلة ، يقع في المجلد الثاني .

(١٨) سومر (٩ [١٩٥٣] ص ٢٥٠ ــ ٢٨٠) . ثم افرده في رسالة تقع في ٣٢ ص .

(١٩) رحلة نيبور الى بغداد في القرن الثامن عشر . (مطبعة دار المعرفة ــ بغداد ١٩٥٤ ؛ ٦٩ ص) .

(٢٠) مطبعة دار المعرفة ــ بغداد ؛ ١٠٩ ص) .

(٢١) بغداد كما وصفها السواح الاجانب (ص ٢١ ــ ٣٠) .

(٢٢) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٧٦٧ . (مطبعة الاسواق التجارية ـ بغداد ١٩٦٢ : ١١٤ ص) .

(٢٣) Sestini (J.), Voyage de Constantinople A Bassora en 1781, par le Tigre et l'Euphrate et Retour a Constantinople en 1782 par le désert et Alexandrie. Traduit de l'Italien. (Paris, 1797).

(٢٤) Claudius James Rich, Narrative of a Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh; with Journal of a Voyage down the Tigris to Baghdad and an account of a Visit to Shirauz and Persepolis. (2 vols., London 1836; XXXIII + 398 and VIII + 410 p.).

(٢٥) رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ (الجزء الاول . مطبعة السكك الحديدية . بغداد ١٩٥١ : ٣٥٩ ص) .

(٢٦) رحلة المنشىء البغدادي . (طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ١٩٤٨ : ١٢٨ ص) .

(٢٧) Fraser (James Baillie), Travels in Koordistan, Mesopotamia, etc. with sketches of the Character and Manners of 477 p.)

the Koordish and Arab Tribes. (2 vols., London 1840; 383 and

(٢٨) Buckingham (J.S.), Travels in Mesopotamia. (London 1827)

(٢٩) سومر (١٠ [١٩٥٤] ص ٢٦٧ ـ ٢٧٩ ؛ ١١ [١٩٥٥] ص ٨٥ ـ ٩٥) .

(٣٠) Fogg (W.M. Perry), Arabistan: Or the Land of the Arabian Nights. (London 1875; 350p.).

(٣١) عربستان ، أو بلاد ألف ليلة وليلة : يشتمل على سياحات في مصر والبلاد العربية وفارس وبغداد (٢٠٧ ص من القطع الكبير) . وقد تفضل علي صديقي الاستاذ المترجم ، فاهدى الي نسخة من هذه الترجمة العربية ، مطبوعة بالآلة الكاتبة سنة ١٩٥٩ .

(٣٢) Dieulafoy (Jeanne Magre), La Perse, La Chaldée et la Susiane: Relation de Voyage. (Paris 1887).

(٣٣) رحلة مدام ديولافوا الى كلدة ـ العراق سنة ١٨٨١ م . (مطبعة اسعد ـ بغداد ١٩٥٨ : ١٨٦ ص) .

(٣٤) Budge (E.A. Wallis), By Nile and Tigris: a Narrative of Journeys in Egypt and Mesopotamia on behalf of the British Museum between the Years 1886 and 1913. (2 vols., London 192[illegible]

(٣٥) Philby (H. St John), Arabian days. (London 1948).

(٣٦) ايام فيلبي في العراق . (دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٠ : ٦٥ ص) .

(٣٧) Stevens (E.S.), by Tigris and Euphrates, (London 1823; 349p.)

(٣٨) طبعت بمطبعة شفيق ـ بغداد ١٩٦١ : ٣٦٨ ص .

(٣٩) Journal of the Royal Central Asian Society. (London. January 1954)

(٤٠) باقر الدجيلي : المعدان ، او سكان الاهوار . تاليف ولفرد تسيكر . (مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٦ : ٤٨ ص) .

(٤١) Maxwell (Gavin), a Reed Shaken by the Wind.

(٤٢) قصبة في مهب الريح . تاليف كافن ماكسويل ، ترجمة صادق عبدالصاحب التميمي . (منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، بدون تاريخ : ٢٢٤ ص) .

(٤٣) الجبايش : للدكتور شاكر مصطفى سليم [١ [بغداد ١٩٥٦] ص ٢٧ ـ ٢٨) .

(٤٤) مقدمة الترجمة العربية . ص ٣ ـ ٤ .

(٤٥) Maliepaard (C.H.J.), Wasserräder am Euphrat, Oder Zwischen Arabern und Kurden.

(٤٦) مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٦ : ٢٨٩ ص .

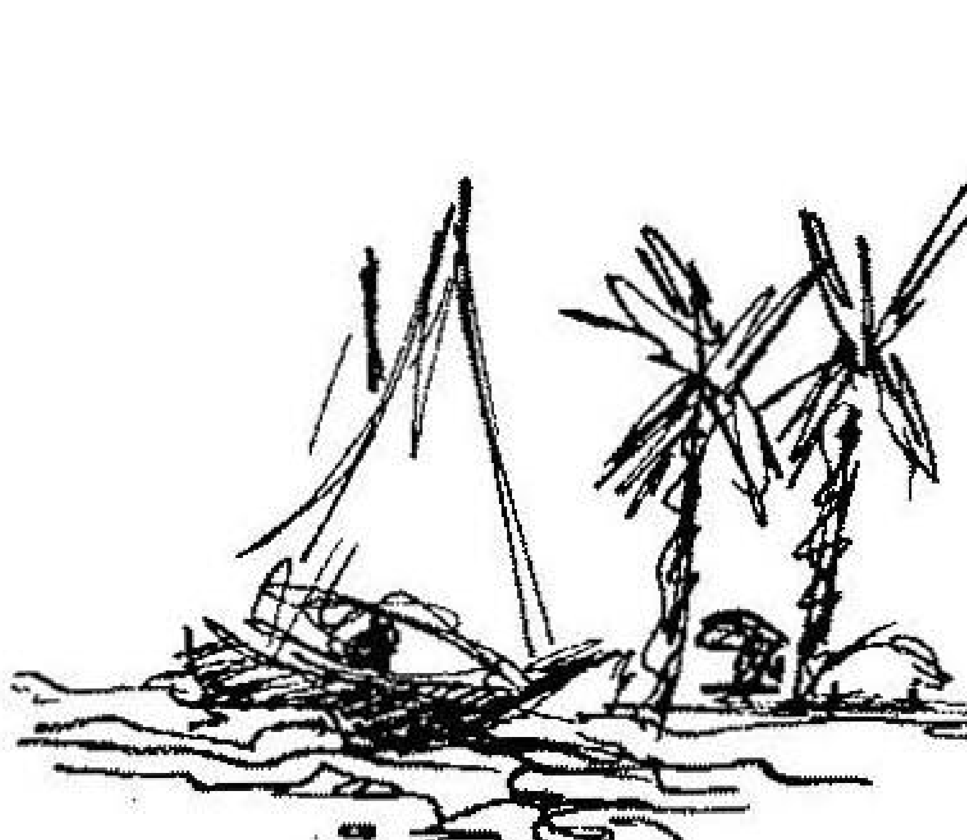
(٤٧) المطبوع من هذه الرحلة بالعربية ، لا صلة له بما تحدث به ماركو بولو عن العراق .

(٤٨) عالج الاستاذ عباس العزاوي ، ترجمة هذه الرحلة ، من وقت بعيد ، ولـم تطبع بعـد .

(٤٩) كانت عندي نسخة خاصة معربة من هذه الرحلة ، مكتوبة بالآلة الكاتبة ، لا اتذكر الآن اسم مترجمها .

(٥٠) طبع بمطبعة دار المعرفة ـ بغداد ١٩٥٤ : ١٣٢ ص . وقد أشرنا اليه في هذا المقال غير مرة .

(٥١) ترجم الاستاذ جميل بندي الروزبياني ما يتعلق ببغداد من هذه الرحلة الى العربية ولا تزال محفوظة لدى مترجمها لم تطبع بعد .



نشيد عربي

« للوحدة .. والاشتراكية
ومعركة المصير »

خالد الشواف

الى المجد .. مجد الحياة نخوض لظى المعترك
الى الوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

يوحده في نهجه السائرين   هدى المصطفى وخلال العرب
وتسبق فيه خطى الثائرين   أمانيهم بالغد المرتقب

فللمجد .. مجد الحياة نخوض لظى المعترك
وللوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

يدا بيد كالبناء الرصيف   فما من حقود وما من احن
تسوي العدالة بين الصفوف   وتشركها في نعيم الوطن

فللمجد .. مجد الحياة نخوض لظى المعترك
وللوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

يظللنا في الهجير السلاح   ويبرقنا الخافق الواحد
ويجمعنا في المصير الكفاح   وتاريخ أمتنا الخالد

فللمجد .. مجد الحياة نخوض لظى المعترك
وللوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

لنا موعد .. جل من موعد   هنالك فوق ذرى المقدس
تلبيه امتنا في غد   من العربي الى الاطلسي

لموعدنا يا أباة .. وللنصر في المعترك
وللوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

الحدود السياسية بين اقطار الوطن العربي .. حدود مصطنعة

الدكتور نوري خليل البرازي

لقد حبت الطبيعة اقليم الوطن العربي بشقيه (الشرق العربي والمغرب العربي) موقعا جغرافيا فذاً فهو الذي يربط بين قارات ثلاث ، أوربا واسيا وأفريقيا • ويمتد من الخليج العربي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ومن البحر الابيض المتوسط شمالا الى المحيط الهندي والمنطقة الاستوائية بأفريقيا جنوبا ، ومعنى هذا أنه يقع ما بين خطي عرض ٣٧ و ٤ شمال خط الاستواء وما بين خطي طول ١٠ غربا و ٦٠ شرقا • ومما يزيد هذا الموقع خطورة هو وقوعه على ساحل البحر الابيض المتوسط كما تتقابل فيه الخطوط الجوية والبحرية والبرية ، والى سواحل هذا البحر تنتهي أنابيب البترول العراقية والسعودية وشمالي أفريقيا (المغرب العربي) ، هذا بالاضافة الى وجود قناة السويس البوابة الوحيدة التي تربط البحر الابيض بالبحر الاحمر وبالتالي ربط المحيط الاطلسي بالهندي وأخيرا العالم الغربي بالشرق الاقصى تلك العالمين الذين يكمل كل منهما الاخر • لقد خلق هذا الموقع الجغرافي قواعد استراتيجية عالمية يتنافس عليها المعسكر الشرقي والغربي • وقد دلت الحربان العالميتان الاولى والثانية ما لهذه المنطقة من أهمية حربية امتازت بها على سائر الميادين الاخرى • فاذا ما استعرضنا التاريخ فسنرى أن هذا الاقليم له اهميته ومركزه الاستراتيجي الملحوظ منذ العهود القديمة ، فقد كان ميدانا لجيوش الفرس والاغريق ومن بعدهم الرومان والبيزنطيين ومن ثم العرب في العصر الوسيط وقد سجلوا في ساحة هذا الاقليم انتصاراتهم على دولتي الفرس والبيزنطيين ومن ثم أعقبت ذلك حملات الصليبيين التي بدأت في أواخر القرن الحادي عشر حتى جاء المستعمر الاوربي الانكليز والفرنسيون أثناء الحرب العالمية الاولى ولا يزال العالم العربي يعاني من هذا الاستعمار الويلات التي آلت به الى التخلف في مختلف ميادين الحياة وحقولها •

ان لهذا الاقليم وحدة جغرافية وأخرى بشرية وذلك بدليل اشتراك

المنطقــة في مقومات اساسية هي **الموقــع الجغرافي** ، وتشــابه **مظاهر البيئة الطبيعية** وكذلك **التكوين العنصري ، والمظهر الحضاري ، والتاريخ الواحد ووحدة الهدف** •

ففي حالة تضاريس المنطقة نجد أن ما فيهــا من مظاهر طوبوغرافية لا تعتبر حواجز تمنع الاتصال أو تعرقل الانتقال بين أجزاء الوطن العربي ، فالجبــال الموجودة في جهاته تخترقها المنــافذ والممرات التي تسمح بعبور المواصلات من جزء لاخر ، ففي شمال النطاق الافريقي يمكن الانتقال من السواحل المصرية برا وبحرا حتى الجزائر ومراكش غربا ، لان امتداد الجبال هنا عرضي وتتخللها الاودية التي تسمح بالانتقال والدليل على ذلك هــو انتقال العرب الفاتحين في صدر الاسلام بسهولة عبر هذه الاقاليم نحو الغرب ونحو الجنوب •

وفي حوض النيل انتشر العرب من الشمال الى الجنوب على طــول امتداد وادي النيل حتى جنوب السودان وانتشرت الثقافة العربية والدين الاسلامي ، وكذلك عبر العرب البحر الاحمر من شواطئه الشرقية الى شواطئه الغربية ، وانتقل العرب من قلب شبه الجزيرة العربية في الاتجاه الشمالي والشمال الشرقي بسهولة ولم يقف في طريقهم من الحواجز ما يعرقل حركتهم حتى وصلوا الى بلاد الشام وسواحل البحر الابيض المتوسط والى سهول بلاد الرافدين ، وكذلك اجتازوا صحراء سيناء متجهين غربا حتى أصبحت في نهاية المطاف هذه المناطق الاسيوية والافريقية وطنا عربيا •

ان التنــوع في مظاهر السطح لا يعتبر حاجزا يعزل بين اجزاء هــذا الاقليم ، بل يعتبر ميزة لانه يعطي المنطقة صفة التنوع في الانتاج ، وهذا ما يساعد على التكامل الاقتصــادي لهذه البيئات المختلفــة في مظاهر السطح والمناخ والنبات •

الى جانب هذه العوامل المختلفة هناك تشابه في البيئات ، فسهل دجلة والفرات يشبه السهل الزراعي في حوض النيل ، كذلك المنطقة الساحلية في سوريا ولبنان تناظر البيئة الساحلية في عمان وحضرموت وسواحل المغرب العربي بافريقية ، وقد نتج عن هذا التماثل في البيئــات مظــاهر حضارية ونشاطات اقتصادية متشابهة •

وخير دليل على ذلك ظهور الفينيقيين واتصــالهم بالبيئــات المجاورة بسبب بيئتهم البحرية وهذا ينطبق على الحضارمة والعمانيين في المحيــط الهندي واتصالهم بشواطىء افريقية وجزر الهند الشرقية وقد قاموا بنشــر الحضارة الاسلامية في هــذه الربوع الافريقية والآســيوية وهنــاك الحياة البدوية في البوادي الافريقية والعربية التي تعطينا خير دليل على انعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية المتشابهة •

أما اذا ما تتبعنا النشاط البشري في هذه المنطقة منذ العصور القديمة فاننا نجد في فجر التاريخ وطوال التاريخ القديم ان المنطقة المعروفة في العالم

كانت هي الاقليم المعروفة الآن بالعالم العربي • لقد كانت هذه المنطقة هي مركز النشاط البشري وموطن أقدم الحضارات وأرقاها ، كما كانت الوسيط التجاري الرئيس في العالم القديم • كلنا يعرف تاريخيا أن الفينيقيين أول من ركب البحر الابيض المتوسط وتجـولوا فيه غربا حتى جبل طارق • وكذلك الحضارمة سكان جنوب الجزيرة العربية هم الجماعة الاخرى التي ارتادت المحيط الهندي نحو الشرق الاقصى ونحو ساحـل افريقية ألشرقي وتبادلوا مع سكان تلك الاصقاع التجارة • ان نشاط العرب يمتد الى أبعد من هذا فقد امتزجت حضارتهم بحضارة الاغريق والرومان والفرس بسبب مـوقع بلادهم الجغرافي • استمرت قوة العرب تنمو ونجمها يظهر حتى بدا واضحا بظهور الاسلام ففي ظله انتشر العرب من شبه الجزيرة العربية غربا حتى الاندلس وشرقا حتى الصين حاملين معهم مظاهر حضارتهم التي نمت وازدهرت طوال الحكم الاموي والعباسي • وكان ظهور الاسلام عاملا حاسما في توحيد اجزاء الوطن العربي وربطها برباط واحد ، ففيه انبثقت الثقافة الاسلامية العربية في جميع ربوعه حتى انطبعت المنطقة بطابع ثقافي متشابه وتقاليد اجتماعية واحدة واصبح العالم العربي وسطا جغرافيا بالنسبة للعالم الاسلامي كما أصبح هو نفسه عالما عربيا موحدا •

ظل الوطن العربي بعد سقوط الدولة العباسية تحت مد وجزر من الاوضاع السياسية حتى ظهرت بوادر الاستعمار الاوربي حيث كانت فرنسا سباقة اليه اذ بدأت بالاستعمار الاستيطاني في الجزائر عام (١٨٣٠)، واحتلت انكلترا عدن في عام (١٨٣٩) وبدأ الانكليز بالسيطرة على الخليج العربي في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، اما في عام ١٨٨٢ فقد احتلت بريطانيا مصر ، ومنذ ذلك الوقت أخذ النفوذ الاجنبي يتزايد توغلا في الوطن العربي حتى حدثت الحرب العالمية الاولى ، وهنا كانت نهاية الوطن العربي حيث تمزق بين انكلترا وفرنسا لخوفهما من اتحاده وتكوين دولة واحدة وبذلك يكون خطرا على مصالحهما •

ان الامة العربية التي كانت قبل تمزيقها وحدة مترابطة لا تفصلهـا حدود مصطنعة أصبحت اليوم بعد دخول المستعمرين مفككة مبعثرة بسبب هذه الحدود المصطنعة التي لا تستند الى حواجز طبيعية أو بشرية • لقد هدف المستعمرون من اقامة هذه الحدود خلق شخصية اقليمية لكل وحدة سياسية وذلك لاحداث التفرقة بين هذه الاقاليم العربية ، وقد نجحت هذه السياسة ولا تزال نتائجها تجثم على صدر الامة العربية في كثير من بقاعها• ان الاسباب التي دفعت الاوربيين الى تطبيق هذه السياسة هو تحقيق مبدأ « فرق تسد » تلك السياسة التقليدية التي تهدف منها هذه الدول المحافظة على مصالحها في المنطقة التي يأتي في مقدمتها الحصول على الموارد الطبيعية التي يأتي في مقدمتها زيت البترول الذي يمثل عصب الحرب وشحـم السلم ، وكذلك تعتبر المنطقة الاستراتيجية والمحطة الرئيسة للمواصلات

البحرية والبرية والجوية كما وأنها تتحكم في مداخل البحار وتشرف عليها بموانيها التجارية والعسكرية ، خاصة وانها تقع بين اكبر قوتين عالميتين هما المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ·

في ضوء هذا العرض نحاول أن نستعرض تاريخ الدول العربية والمراحل التي مرت بها من استعمار أنهك قواها ومن سياسة مستقلة ناضل من أجلها · لا تزال هذه الدول تنفض عنها غبار التخلف وتصفية التركة التي خلفتها العصور العجاف :

الجزائر :

قبل عام ١٨٣٠ كانت الجزائر تابعة للدولة العثمانية نظريا وفي حقيقة الامر كانت مستقلة تحت حكم اسرة « حسين داي » هذه الاسرة التركية الاصل التي رضي بها الاهالي لاسلامها ولانها استعربت وتمتعت الجزائر تحت حكمها بكيان دولي وجيش كبير واسطول قوي في البحر الابيض المتوسط · ولقد كانت فرنسا حينئذ مدينة لحكومة الجزائر بمبالغ كبيرة عن أثمان الحبوب التي اشترتها منها في عهد حكومة الديركتوار(١) وقد سئم « الداي » من التسويف في سداد فرنسا لهذه الديون مدة طويلة · وفي أثناء حديث له مع قنصل فرنسا يوم ٣٠ نيسان سنة ١٨٢٧ احتدم غضبا · وألقى مروحته التي كانت بيده على وجه القنصل فاعتبرت فرنسا هذا العمل اهانة خطيرة تمس شرفها في الصميم · واستدعت قنصلها الى باريس كما طلبت ترضية علنية عن هذه الاهانة · وأرسلت اسطولا صغيرا الى ميناء الجزائر ليضرب حصارا بحريا عليها الى أن تتم الترضية المطلوبة ·

وقد تذرعت فرنسا بمقولة غسل الاهانة · فأرسلت حملة عسكرية بحرية وصلت الى ميناء الجزائر بتاريخ ١٩ حزيران ١٨٣٠ تتمثل في اسطول مكون من مائة سفينة حربية وخمسمائة سفينة أخرى نقل عليها جيش في ستة الاف جندي مع كمية كبيرة من الاعتدة · واستمر الغزو الفرنسي على الجزائر حتى احتلت من قبل فرنسا منذ ذلك التاريخ · لقد ظلت الجزائر مسرحا للفوضى منذ عام ١٨٣٠ حتى نهض أبناؤها الميامين أمثال عبد القادر الجزائري بالدفاع وانشاء مملكة في غرب البلاد · ولذلك لم يحتل الفرنسيون في العشر سنوات التالية سوى المناطق الساحلية ·

وفي عام ١٨٤٤ استولوا على بسكره وتوغلوا في جبال أوراس · أما في الغرب فقد كان الصراع مع عبد القادر صراعا مريرا حيث شنت عليه فرنسا حربا نظامية مستعمرة استمرت من عام ١٨٤١ حتى عام ١٨٤٧ انتهت بالاستيلاء على مدن اقليم التل والهضبة جميعا · ثم حددت التخوم بين الجزائر ومراكش في اتفاق عام ١٨٤٥(٢) وبعد حملات أمكن لفرنسا اخضاع بقية المدن للاقاليم الباقية · ولكن هذا لم يخمد من عزيمة الشعب العربي في الجزائر والتواقين الى الحرية والاستقلال فأخذوا يقومون بأعمال المقاومة ويقدمون التضحيات الجسام في سبيل عزة الجزائر ·

وفي منتصف ليلة أول تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ دوت أول رصاصة أشعلت الثورة الجزائرية الكبرى التي نادت بسقوط الاستعمار الفرنسي في الجزائر والقضاء على فكرة الجزائر فرنسية • وفي ١٥ من اذار ١٩٦١ أعلنت الحكومة الفرنسية أنها على استعداد للدخول في مفاوضات رسمية مع زعماء الجزائر •

وفي يوم ٣٠ أيار ١٩٦١ بدأت المفاوضات في ايفيان وأعلنت الحكومة الفرنسية وقف اطلاق النار من جانبها مدة ثلاثين يوما واطلاق سراح ستة الاف جندي جزائري • ونقل أحمد بن بللا وزملائه الاربعة الاسري الى اقامة محدودة في قصر تور كانت بالقرب من سومور(٣) •

وبعد تطورات كثيرة أثرت على موقف الجانبين • أعلن في ١٩ اذار ١٩٦٢ توقف القتال رسميا بين قوات الاستعمار الفرنسي وقوات جبهـة التحرير الجزائرية بعد مفاوضات ايفيان • وتضمنت الاتفاقيـة اعتراف فرنسا بحق الجزائر في الاستقلال وتقرير المصير والاعتراف للشعب الجزائري بحق السيادة عـلى أراضيه • كما اعترفت الحكومة الفرنسية صراحـة بأن الصحارى جزء من الجزائر بهذا احتفظت الجزائر بحق الاستقلال بوحـدة أرض الوطن ، ولكن الفرنسيين كانوا يعملون كل هذا وهم مترددون وبذلك فقد حدث في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ١٩٦٣ الصراع المسلح بين الجيش الوطني الجزائري وقوات المغرب في مناطق عديدة على الحدود المغربية الجزائرية المشتركة بحجة عائدية الحدود في مناطق برج لطفي وحاسي منير وحاسي بيضا ويونو وتنجوب وهذه المواقع تقع شمال تندوف التي اعترفت فرنسا بأنها جزائرية أثناء مفاوضات ايفيان(٤) •

مراكش :

احتلت عام ١٩١٢ من قبل فرنسا ويظهر في مسرحها التآمر الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا حيث عقدتا وفاقا سياسيا عام ١٩٠٤ تطلق فيه فرنسا يد بريطانيا في مصر والسودان بينما تتغاضى فيه بريطانيا عن توسع فرنسا في بلاد المغرب • وعقد مثل هذا الاتفاق أيضا بين بريطانيا وايطاليـا عام ١٩٢١ حيث أباحت بريطانيا لايطاليا التوسع في ليبيا •

وحاولت فرنسا تمزيق الوحدة الوطنية في مراكش فاصدرت في عام ١٩٣٠ قانونا ينص على الاعتراف بكيان بربري يختلف عن الكيان العربي بعادات وتقاليد بربرية وأثارت الخلافات القبلية وشجعت على تكوين جمعيات بربرية • ولكل منها سكرتير فرنسي بل لقد ذهبت أبعد من هذا وزعمت أن البربر من أصل أوربي مسيحي وقـد استطاع المغرب الحصـول عـلى استقلاله عام ١٩٥٦ واعترفت الحكومة الفرنسية باستقلال مراكش ووحدة أراضيها وسيادتها الداخلية والخارجية وحق الحكومة المراكشية في ادارة منطقة الاحتلال الاسباني كجزء من الدولة المغربية وانتهى العمل بقوانـين تدويل طنجة ولم تعد مدينة دولية بل مدينة مغربية ولم يكن لمراكش في يوم

من الايام عاصمة قومية ثابتة تتجه نحوها القبائل المختلفة ولذلك لم تتمتع مطلقا بالوحدة السياسية الشاملة فالطبيعة ساعدت على تمزيق وحدتها كذلك افتقار البلاد لعاصمة ذات مركز متوسط يتخذها المراكشي مركزا رئيسا الامر الذي أدى الى تعدد العواصم بتعدد الدويلات الكثيرة التي تتابعت على تربة هذا الوطن ٠

فقد بدأت فرنسا في التمهيد لاحتلال مراكش وبدأت ذلك بتوغل عسكري واقتصادي من الجانب الجزائري في بداية القرن الحالي ٠ وكان التقدم نحو التل المراكشي من الهضبة الجزائرية من الامور الصعبة كما أن ساحل مراكش المطل على البحر المتوسط تحتضنه جبال الاطلس ويمكن أن تعتصم به القوات الوطنية وقد مهد الفرنسيون سنة ١٩٠٣ للنزول الى ساحل مراكش المطل على الاطلسي ٠ وقد كافحت فرنسا كثيرا حتى استعمرت مراكش استعمارا رسميا سنة ١٩١٨ ولم تستطع فرنسا بعد كل هذا أن تطمس معالم ثقافة أهل مراكش الوطنية التي وجدت في معاقلها الجبلية خير ما يصونها من الاندثار فلا غرو أن كانت أولى دول المغرب في استرداد حريتها ٠

ليبيا :

عانت ليبيا كثيرا من الاحتلال الايطالي منذ ١٩١٢ حتى قيام الحرب العالمية الثانية ٠ وكان الايطاليون أيضا ينشئون فيها مستعمرات استيطانية لتقبل قرى ايطالية بأكملها ، وكذلك كانت ليبيا مسرحا لتحركات الجيوش المتحاربة على طول سواحلها اثناء الحرب العالمية الاخيرة ٠

ورغم أن بريطانيا قد ساومت ايطاليا على اقتسام ليبيا فان مشروع بيفن سفورزا قد فشل ٠ واستطاعت الدول الممثلة في مجلس الوصاية على ليبيا الضغط على بريطانيا وأعلنت الامم المتحدة استقلال ليبيا عام ١٩٥٢ ٠

وليبيا مملكة متحدة مكونة من ثلاث ولايات « برقة وطرابلس وفزان » لكل منها حكومتها وبرلمانها ٠ ورغم ان عدد سكانها لا يزيد على ١٫٠٩١٫٨٣٠ نسمة فان الصراع الاجنبي يظهر في ليبيا في المعاهدات العديدة التي عقدت بينها وبين كل من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، نظير مساعدات مالية تقترحها تلك الدول الثلاثة للملكة الليبية الناشئة ٠ فقد عقدت بريطانيا معاهدة التضامن الدفاعي بينها وبين ليبيا عام ١٩٥٣ وخولت لبريطانيا حقوق انشاء الطرق والجسور والمطارات وحق مراقبة الطائرات والسفن في ليبيا ٠

كما أن أمريكا قد عقدت معاهدة مع ليبيا أمدها عشرين عاما ابتداء من ١٩٥١ وأصبح لامريكا الحق في انشاء القواعد العسكرية على الاراضي الليبية ٠

أما فرنسا فكانت مستمرة في احتلال فزان حتى ١٩٥٥ عندما عقدت معاهدة صداقة مع ليبيا كسبت بها بعض الامتيازات نظير الجلاء عن مدن براك وغدامس وتايتي ، ولفرنسا حق استخدام مطار كبير في سبها .

هذا هو المغرب الجناح الغربي للعروبة وقد دأب الاستعمار الاوربي على تفتيته الى أجزاء تكاليت اسبانيا وفرنسا على تقسيم مراكش الى مراكش الاسبانية ومراكش الفرنسية ، ثم اقتطع ظهيرها الصحراوي ، ورغم أن مراكش قد حصلت على وحدة أراضيها الا أن هناك اقليم موريتانيا لا يزال منفصلا عنها ولم تعترف دول الجامعة العربية ما عدا تونس باستقلالها الذي أعلنها عام ١٩٦١ وموريتانيا في الحقيقة هو اقليم السودان الغربي والطريق الذي سلكه التجار والمبشرون بالاسلام في القرن الحادي عشر ، والحلقة التي تربط بلاد المغرب بالسودان الغربي والسنغال ومالي .

ولا يزال لدول الاستعمار الغربي قواعد احتلالية في بلاد المغرب وتونس وليبيا ولا تزال لهذه الدول قواعد ونفوذ سياسي وعسكري .

تونس :

تمتد بين خليج تونس وساحل البحر المتوسط في الشمال ووادي مجردا في الجنوب وحدود الجزائر في الغرب وتمتاز تونس بالخلجان والرؤوس على طول الساحل وقد ساعد هذا على اتجاهها نحو البحر المتوسط أي نحو الشرق وبذلك تعطي ظهرها الى الجزائر ولا تتصل بها في بعض الجهات الا بصعوبة .

اجتذبت تونس أنظار الفرنسيين فظنوا أن وادي مجردا بأرضه الخصيبة ونظام الملكية فيه وقلة سكانه سيساعد على الاستعمار الزراعي الفرنسي في هذه الجهات التي نظروا اليها كامتداد لاستعمارهم لاقليم التل في الجزائر . والواقع أن الاستعمار الفرنسي الذي أبقى على ادارة الباي مع انفراد المقيم العام الفرنسي بالشؤون الخارجية قد اتبع نظام الحكم المباشر على عكس ما هو مألوف عن سياسة الاستعمار الفرنسي وقد عنى الفرنسيون بنزع الملكيات الكبيرة في منطقة مجردا فوزعوها بين الشركات أو الملاك الكبار .

وتونس كوحدة سياسية تشبه كلا من الجزائر ومراكش في الظروف الجغرافية التي تتلخص في التباين الواضح بين ظروف البحر الابيض المتوسط والصحراء . غير أن لموقع تونس بين حوض البحر المتوسط الشرقي والغربي أثره المهم لانه يمثل حلقة اتصال بين العالم الشرقي الذي استحدث منه حضارة قرطاجنة التي لعبت دورها وحضارة العرب وثقافتهم والدين الاسلامي التي خلعت على تونس طابعها المميز بين العالم الغربي الذي وقعت في قبضته مرتين حين غزتها روما وحين فرضت فرنسا حمايتها عليها وبين ما يشيع في أجوائها من روح شرقي يستقبل تراث الشرق .

مصـــر :

لقد مرت على مصر فترات متوالية من استعمار واستغلال كما توالت عليها الحملات الغربية كحركة نابليون وتعرضت الى استعمار غربي وهـو الاستعمار البريطاني كما خضعت لحكم السلاطين المماليك والباشوات أيام اسـرة محمد علي باشـا وكانت دائما خـيرات البـلاد تذهب الى جيــوب المستعمرين أو صنائعهم من الحكام ·

كما أن موقع مصر الاستراتيجي شجع اطماع الدول المستعمرة للتكالب عليها ، فمصر عبارة عن همزة وصل بين الشرق والغرب وكانت من نوايا بريطانيا أيضا احتلال مصر لتمكين سيطرتها وبسط نفوذها في منطقة الشرق الاوسط ولتأمين الطريق الى الهند التي كانت في ذلك الوقت ألمع جوهرة في التاج البريطاني والعراق والجنوب العربي والتحكم في ممرات البحر الاحمر وبالتالي التحكم في الملاحة فيه ، كما أن لطبيعة مصر الزراعية أثر في جلب المستعمرين وطمعهم في الغزو ونحن نعلم أن دوافع الحملة النابليونية على مصر ليست بدافع استراتيجي وحسب انما اقتصادي أيضا · وتوالى على دست الحكم في مصر ملوك كان اخرهم فاروق الذي طرد بعد ثورة الشعب المصري سنة ١٩٥٢ وبدأ زحف الشعب العربي نحو الحرية والاستقلال والبنـاء والنهوض في البلاد والقضاء على التركة الثقيلة التي خلفتها السنون العجاف ·

ومصر تمثل بيئـة جغرافية فريدة · اذ تقتصر منطقة السكن والعمران على شريط محدود من الارض لا تتجاوز نسبته ٣٪ من مساحة البلاد ، ويتركز العمران ومظاهر الاستغلال الاقتصادي الكثيف حول نهر النيل الذي تدين مصر الزراعية أو مصر العامرة له بالشيء الكثير · ومن ثم تبدو هذه المنطقة التي تعج بمظاهر الحياة النشيطة وتمثل مركز احتشاد كبير وقد احيطت بحدود واضحة تماما من الاراضي الصحراوية الجرداء الجافة الواسعة التي تشغل أكثر مساحة البلاد · فان لها دورا مهما لا في حياة البلاد الاقتصادية بمعادنها وثروتها الحجرية فحسب ولكن كذلك في سياسة البلاد وطبيعتها الاستراتيجية فكانت سـياجا حفظ البـلاد شر الغزوات فترة طويلة كما تخترقها طرق المواصلات التي تربطها بجيرانها في الشرق والغرب والجنوب ·

واذا كان النيل قد وفر للانتـاج الزراعي أسباب النمو والازدهار وكفلت الصحراء للبلاد الطمأنينة مما مكن للحضارة الزراعية في مصر أن تمتاز بالعراقة والنمو المتصل · فان موقع البلاد الجغرافي هو الذي لم يجعل مصر واحة ضخمة خصيبة فحسب شأن بعض الواحات النائية في فيـافي الصحراء بل خلق لها مركزا تاريخيا مهما من مراكز الحضارة · كان ولا يزال ملتقى تيارات الحضارة وطرق الجغرافية والسياسية العالمية بين القارات المختلفة والحضارات المتباينة والبيئات المتباعدة · فكانت مهدا صالحا لقيام حضارة متقدمة نشرت ثمارها في منطقة واسعة · كما تلقت في عالمها الكبـير التي تنقطع علاقاتها به حتى اذا ركدت فيها الحضارة وأرادت الانطواء عـلى

نفسها لم تتركها هذه المناطق المحيطة بها لتعكف على نفسها وهكذا نشأت مصر كما عرفها التاريخ ثمرة تفاعل وتضافر عوامل طبيعية معقدة تتصل حينا بظروف بيئتها وحينا اخر بموقعها وعلاقاتها المكانية ٠

سوريا :

لم يكن حظ سوريا بأسعد من أخواتها العربيات فقد تعرضت أيضا لغزوات المستعمرين وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى بعد أن كانت احدى الولايات العثمانية التابعة للحكم العثماني وفي بداية الحرب العالمية الاولى كانت بلاد الشام تنقسم الى ثلاث ولايات مستقلة هي ولايات سوريا وحلب وبيروت وكانت ولاية سوريا تضم فضلا عن مركز الشام (دمشق) والاقضية التابعة لها متصرفيات حماه وحوران والكرك[٥] وكانت ولاية بيروت تضم فضلا عن مركز بيروت والاقضية التابعة لها ، متصرفيات نابلس وعكا وطرابلس واللاذقية ٠ أما ولاية حلب فكانت تضم فضلا عن مركز حلب والاقضية التابعة لها متصرفية أورفة ومتصرفية مرعش ٠ وكانت جميع هذه الولايات والمتصرفيات تدار وفقا للقوانين والانظمة المقررة لجميع البلاد العثمانية - غير أن متصرفية لبنان كانت تتمتع بامتيازات ادارية خاصة ولذلك كانت تسمى متصرفية ممتازة ٠

وعند جلاء الجيوش العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى وقعت فريسة بيد الفرنسيين ، ونحن نعلم كم مرت على البلاد من حركات تحريرية هدفها القضاء على الاستعمار الفرنسي وطرده من بلاد الشام - وقد حصلت على استقلالها عام ١٩٤١ بعد ثورات دامية وهكذا بدأ الحكم الوطني منذ ذلك التاريخ وتعاقبت على سوريا حكومات مختلفة ومرت بأدوار سياسية معينة ٠

كما أن حظ لبنان لم يكن مثل حظ سوريا فهي ايضا كانت خاضعة للدولة العثمانية وقد تعرضت البلاد لغزو فرنسا ، واحتلالها - كذلك كان العراق مستعمرا وخاضعا للدولة العثمانية وبعد الحرب العالمية الاولى كان من نصيب بريطانيا التي رأت في العراق مرتعا خصيبا وفيرا بخيراته النفطية وموقعه الاستراتيجي وطبيعته المناخية فقد كانت نية بريطانيا مبيتة بعد الحرب العالمية الاولى لفرض الانتداب على العراق وهكذا خضع العراق للانتداب البريطاني بعد نهاية الحرب العالمية الاولى الى أن قامت ثورة العشرين وحررت العراق من قيود بريطانيا الا أن بريطانيا لا ترضى بأن تترك العراق وخيراته واقتصادياته وموقعه الاستراتيجي المهم دون تدخل فقد ارتبطت مع حكامه الذين يسيرون في فلكها بمعاهدات اقتصادية وحربية وذلك للاحتفاظ بحق استثمار النفط ودخول العراق في المنظمة الاسترلينية ٠ بقيت الحال هكذا الى أن قامت ثورة ١٤ تموز وحررت العراق من الحكم الملكي ٠

فلسطين :

منذ نهاية الحرب العالمية الاولى سقطت عن البلاد العربية سلطة الدولة

العثمانية ومنها فلسطين وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لاية دولة أخرى وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لاصحاب الشأن فيها . واذا لم تكن قد كلفت من يتولى أمورها فان ميثاق عصبة الامم في سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذي وضعه لها الا على أساس الاعتراف باستقلالها . فوجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه . كما أنه لا شك في استقلال البلاد العربية الاخرى واذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لاسباب قاهرة فان فلسطين شأنها شأن سائر أقسام الوطن العربي مستقلة منذ سقطت عنها الولاية العثمانية أثر الحرب العالمية الاولى . ان الانتداب البريطاني على فلسطين الذى قررته عصبة الامم هو ذاته تأكيد لهذا الاستقلال لان الانتداب لا يكون الا على دولة مستقلة ، وبعد النكبة التي أصابت العرب تجاه احتلال الصهيونية لفلسطين حاول الاستعمار وحاولت أمريكا فرض الصلح على العرب مع اسرائيل .

أما حالة السعودية فهي معلومة من حيث خضوعها للدولة العثمانية وقيام الشريف حسين بمعاونة الانكليز للتخلص من حكم الاتراك كما أن الانتداب فرض أيضا على السعودية .

ومعلوم أن اقتصاديات السعودية فقيرة جدا وتقوم على انتاج البترول لان البلاد في معظمها صحراوية وان حالة الشعب السعودي هي في المستوى البدوي ، وان هذا البلد بالنظر لطبيعة موقعه الجغرافي وطوبوغرافيته يشكل جزءا متصلا بالاطراف المحيطة به من البلاد العربية أكان من الجنوب أو الشمال أو الشرق لذلك باتت الحدود اسما بلا مسمى .

الجنوب العربي

عـــدن :

تقع عدن على الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة العربية على مسافة مائة ميل شرق مضيق باب المندب وتبلغ مساحة عدن ٧٥ ميلا مربعا وحتى عام ١٩٥٩ كانت جزيرة بريم وجزر كوريا موريا تعتبر جزء من مستعمرة عدن . ثم تقرر بعد ذلك فصلهما عن عدن والحاق ادارتهما مباشرة بحاكم عدن . أما جزيرة قمران فيتولى ادارتها حاكم عدن رغم انها لا تعتبر جزء من عدن أو من محميات عدن .

ويبلغ سكان عدن ٢٢٠٫٠٠٠ نسمة ويكون العرب غالبية السكان وبنسبة ٧٥٫٢٪ ولقد بدأ الاحتلال البريطاني لعدن في عام ١٧٩٩ مما اضطر سلطان لحج الى الاقامة خارج عدن التي كانت عاصمة بلاده في ذلك الوقت .

وفي عام ١٨٣٩ أعلنت بريطانية ضم مستعمرة عدن الى الهند البريطانية بحيث تدار بواسطة حاكم الهند واستمر هذا الوضع قائما حتى عام ١٩٣٧ ومنذ عام ١٩٣٧ انفصلت عدن عن مستعمرة الهند البريطانية واعتبرت مستعمرة منفصلة تابعة مباشرة للتاج البريطاني . والى جانب استعمار عدن نفسها بسطت بريطانيا حمايتها قبل وبعد الحرب العالمية الاولى على عدد من

المشيخات والمحميات والامارات المحيطة بعدن التي سميت بمحميات عدن • وقد بلغ عددها حوالى ٢٤ وحدة سياسية(٦) ولقد ابرمت بريطانيا عددا كبيرا من اتفاقيات الحماية مع مشايخ هذه الاقاليم وبمقتضى هذه الاتفاقات احتفظت بريطانيا لنفسها بالحق في ادارة العلاقات الخارجية لهذه الاقاليم وتعهد المشايخ بعدم الاتصال بغير بريطانيا وبعدم منح الدول الاخرى اية امتيازات او حقوق كما أصبح من حق بريطانيا ان تعين مستشارا في كل اقليم من هذه الاقاليم •

ولقد عارضت اليمن في شرعية وضع بريطانيا في هذه المناطق على أساس انها اجزاء من اقليم اليمن وقام نزاع مسلح بينهما وانتهى الامر بابرام معاهدة في ١٩٣٤ بين بريطانيا وبين امام اليمن بقصد المحافظة على الامر الواقع •

ومنذ عام ١٩٥٤ بدأت بريطانيا تبذل محاولات شاقة بقصد تجميع عدد من هذه المحميات في نطاق اتحاد فدرالى وفي ١١ شباط ١٩٥٩ تكون اتحاد الجنوب العربي •

البحرين :

تقع جزر البحرين في الخليج الفارسي غرب شبه جزيرة قطر وقرب قاعدة الظهران في المملكة العربية السعودية وتبلغ رقعتها ٥٨٩ كيلومترا مربعا وعدد سكانها ١٤٣ ألفا • أما عاصمتها فهي منامة وكل سكانها من العرب(٧) والبحرين مملكة يحكمها شيخ هو السعيد سليمان بن حاد الخليفة وقد نصب شيخا منذ عام ١٩٤٢ والى جانبه حكومة مكونة من عشرة من اقربائه يؤلفون فيما بينهم مجلس ادارة المشيخة • بينما تمارس الحكم في المدن المجالس البلدية(٨) •

لقد كانت البحرين من البلاد التي تدخل الاستعمار في رسم مقدراتها فهي محمية بريطانية منذ عام ١٨٦١ وفي عام ١٨٨٠ و١٨٩٢ أيضا عقدت بريطانيا عدة معاهدات اضافية مع شيخها تعهد بموجبها لبريطانية بالا يسمح لاية دولة أن ترسل الى البحرين بعثات دبلوماسية ولا أن تنشيء فيها قنصليات ولا أية محطات بحرية للوقود والا يبيع أو يؤجر الجزر أو اجزاء منها • وهذه المعاهدات ساعدت في الحقيقة على تحويل البحرين الى مستعمرة اصبحت بريطانيا تتحكم بطريقة مباشرة في كل مقاصدها بواسطة أحد مستشاريها الذين نقلتهم في عام ١٩٤٦ من ايران الى البحرين •

ومنذ هذا التاريخ وعدد من الموظفين البريطانيين في حكومة البحرين في ازدياد مستمر حتى أصبح عددهم حوالى ٧٠ مستشارا يهيمنون على مختلف وظائفها ومناصبها الرئيسة •

وهذا الى جانب النزاع على البحرين من الخارج اذ تدعي كل من ايران والبلاد العربية حقها فيها • فايران تعتبر البحرين مقاطعة ضمن حدودها وهو ما ترفضه بريطانيا مما تسبب عنه أكثر من أزمة بينهما •

وتعتبر الزراعة في البحرين مظهرا اقتصاديا رئيسا وذلك الى جانب اعمال صيد السمك واستخراج اللالىء والزيت وصناعة الفخار وبناء السفن ويعتبر البلح والبرسيم المحصولين الرئيسيين في البحرين وان كانت زراعة الموز والعنب والبطيخ والبطاطا والموالح قد نجحت أيضا ٠

ولكن الزيت في الواقع يمثل العنصر الرئيسى في الدخل القومي في البحرين ٠ اذ تصل عائدته الى ٥ر٥ مليون جنيه في السنة ٠ كما تقدر الكميات الكامنة في باطن الارض بحوالى ٣٣ مليون طن ٠ ومع ان التنقيب عن الزيت لم يبدأ في البحرين الا في عام ١٩٥٢ الا ان النشاط البترولي بوجه عام أسبق من هذا التاريخ ٠ اذ انشأت الولايات المتحدة الاميركية ومعها بريطانيا شركة البحرين للبترول في عام ١٩٣٢(٩) والبحرين تتصل بالعالم الخارجي عن طريق مطارها الدولى القائم في مدينة محرق ٠ وهو مطار حديث يصلح لهبوط الطائرات النفاثة ٠

أما النشاط الاقتصادي لهذه البلاد فتكاد تسيطر عليه ٤ بنوك أجنبية معظمها بريطانية وكذلك ١٦ شركة للتامين كلها بريطانية أيضا ٠

أما الكويت فقد كانت كاخواتها من الجنوب فقد خضعت للاستعمار البريطاني واستغلت مواردها البترولية ٠ والنفط هو المورد الوحيد الذى تعتمد عليه الكويت وقد منحت بريطانيا الكويت الاستقلال مؤخرا ٠ هذه هى الادوار التي مرت بها الدول العربية وطبيعة هذه الادوار سواء كانت استعمارية تسعى الى استغلال موارد تلك البلدان وفرض سيطرتها السياسية والتحكم في مقدراتها وتسيير سياسة الدول حسب أهوائها ٠

ان لهذه السياسة أكبر الاثر في تفتيت قوى الامة العربية وتفككها فبعد تحرر البلدان من ربقة الاستعمار كانت النوازع الاقليمية التى تسيطر على حكام الدول تدفعهم لكي يسلكوا سياسة اقليمية بعيدة عن ركب الدول العربية الاخرى ٠

لذا فالحل الامثل لجمع شتات الامة العربية وللقضاء على هذه الحدود المصطنعة هى الوحدة ولاسباب اقتصادية وسياسية وقومية فان الوحدة آتية لابد منها ٠ فالوحدة حقيقة علمية تؤيدها وحدة اللغة ووحدة العنصر ووحدة الثقافة ووحدة العقيدة ووحدة التاريخ ووحدة المصالح الاقتصادية المشتركة ووحدة المصير

ولقد ظهرت في هذه المنطقة أقدم وأعظم حضارتين في العالم القديم وهما الحضارة المصرية القديمة على ضفاف النيل وحضارة بابل وآشور على ضفاف الرافدين والتقت هاتان الحضارتان في بلاد الشام واثرتا في تاريخ البشرية كلها حتى اليوم ٠ وكانت هذه المنطقة بوتقة انصهرت فيها كل الهجرات والسلالات التى جاءت اليها سواء من الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب وكانت لديها القدرة دائما على المزج بين الاجناس وامتصاص العناصر الغريبة وكانت هذه المنطقة منذ أقدم العصور معبرا للتجارة بين الشرق والغرب

تلتقي فيها الطرق وتفترق ٠

والصلات التجارية المتبادلة بين سكان هذه المنطقة ترجع الى أزمان موغلة القدم ٠ فنحن نذكر على سبيل المثال تلك الصلات القديمة بين دلتا النيل وبلاد الشام وبين الدلتا والبلاد الليبية وبين صعيد مصر والسودان واليمن ٠

وفي هذه المنطقة ظهر التوحيد الخالص لاول مرة في تاريخ البشرية على يد سيدنا ابراهيم الخليل ونزلت رسالات السماء على موسى وعيسى ومحمد وعرف الناس التوراة والانجيل والقرآن ٠

فمنذ أقدم العصور وسكان الوطن العربي تربطهم صلات وثيقة وفي فترات كثيرة وطويلة من التاريخ القديم كان أهل وادى دجلة والفرات والشام ووادى النيل تجمعهم دولة واحدة ٠

ويرجع تاريخ الوحدة الاولى بين سكان هذه المنطقة الى نحو ٣٥٠٠ سنة حينما قامت دولة كبرى في الشرق عاصمتها ((طيبة)) في صعيد مصر وذلك في الفترة ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٢٥٠ قبل الميلاد أى أنها استمرت قرنين ونصف قرن من الزمان ٠

وأما الوحدة الثانية فقد تمت في ظل دولة بابل ثم دولة آشور في وادى دجلة والفرات في الفترة ما بين سنة ٦٦٨ و٥٣٩ قبل الميلاد أى أنها استمرت زهاء مائة وثلاثين عاما ٠

وأما الوحدة الثالثة فقد قامت بعد ظهور الاسلام وكانت تتمثل فى الدولة العربية الكبرى في العصر الاموى والعباسي وكانت عاصمتها دمشق ثم بغداد ثم القاهرة ٠ وقد استمرت هذه الدولة ثلاثة قرون في الفترة ما بين سنة ٦٨١ وسنة ٩٧٣ ميلادية ٠

وكانت تلك الدولة تمتد من المحيط الاطلسي غربا الى الخليج العربي شرقا وشملت كل أجزاء الوطن العربي تقريبا وقد ظهرت وحدة الامة العربية في أروع صورة خلال الحروب الصليبية التي استمرت حملاتها المتكررة ١٦٢ عاما في الفترة ما بين سنة ١١٠٦ وسنة ١١٦٨ فوقفت الامة العربية صفا واحدا تحت قيادة صلاح الدين الايوبي في وجه الغزاة من الفرنجه الذين جاءوا الى بلاد الشرق بقيادة بعض الملوك والامراء الانجليز والفرنسيين بحجة تخليص الاماكن المقدسة في بيت المقدس وتحريرها من ايدى المسلمين ، وتأمين الحجاج المسيحيين في حين أن هؤلاء الغزاة كانوا يضمرون أغراضا أخرى استعمارية ٠ وقد استطاعت الامة العربية اخر الامر ان تطرد هؤلاء الغزاة وخرجت ظافرة في تلك الحروب بفضل وحدتها وتماسكها ٠

ان هذه الحواجز السياسية المصطنعة التي تفصل بين الاقطار العربية لا تستند الى عوامل جغرافية طبيعية أو بشرية ، فالحدود السياسية الحالية بين البلاد العربية تعتمد في معظمها على خطوط وهمية فرضها المستعمر ٠

وانما قامت هذه الحواجز المصطنعة بين الاقطار العربية بفعل الاستعمار التدخل الاجنبي في شؤون الوطن العربي ·

فقد حدث هذا التمزيق للوطن العربى كنتيجة للغزو الاجنبي مثل اغارة التتار على وادى الرافدين وتدمير بغداد واسقاط الدولة العباسية وحينما فرض الاستعمار الاوربي (البرتغالي والاسباني والفرنسي والبريطاني والايطالي) سلطانه على أجزاء مختلفة من الوطن العربى خلال القرون الستة الاخيرة التى تبدأ من القرن الخامس عشر الى القرن العشرين وحينما انتقلت الخلافة الاسلامية من بغداد الى استنبول في القرن السادس عشر وقامت الدولة العثمانية التى ضمت جميع الاقطار العربية بفرض اللغة التركية كلغة رسمية في بعض تلك الاقطار ومنها الشام ومصر ، وتقسيم المجتمع العربي الى طبقات متطاحنة ، مثل طبقة الحكام الاتراك وطبقة الباشوات والبيكوات الذين منحهم السلطان الاقطاعيات الواسعة ضمانا لولائهم ثم طبقة الفلاحين والصناع الاجراء المعدمين الذين كانوا أشبه بالعبيد ·

ومن الناحية القانونية كانت كل الارض الزراعيةفيجميع الاقطار العربية ملكا للسلطان العثماني وكان للاهالى حق استغلالها فقط وظلت هذه الحال قرونا ولم تتقرر الملكية الزراعية الا في وقت متأخر · وكان العسف بالاهالى والظلم في فرض الضرائب وجبايتها وأعمال السخرة وضرب الناس بالسياط ـ كان كل ذلك من الوسائل التي اتبعتها السياسة التركية والحكام الاتراك الذين نصبوا ولاة من قبل السلطان على تلك الاقطار العربية الخاضعة للدولة العثمانية ولاضعاف القومية العربية بل للقضاء عليها نهائيا وتذويبها في القومية التركية ـ ولكنها لم تنجح فيما كانت تصبو اليه · لان القومية العربية كانت أقوى من كل هذه الاساليب الخارجية الطارئة المفتعلة ، ولان عناصر هذه القومية خالدة خلود الزمن ثابتة كالصخرة الصماء التي تتكسر عليها الامواج والانواء ·

وكان من أهم أسباب تمزيق أجزاء الوطن العربى أيضا تدخل الدول الاستعمارية الاوربية في شؤون الدولة العثمانية نفسها ، واستخدام السلطان مطية لتحقيق المطامع الاوربية في منطقة الشرق الاوسط والشرق العربى والشمال الافريقى العربي · حتى لقد ذهب الامر الى تنازل السلطان العثماني بكل بساطة عن بعض الاقطار العربية في شمال افريقية لبعض الدول الاستعمارية الاوربية استرضاء لها ·

ولما تضعضعت الدولة العثمانية في أواخر أيامها وأصبح السلطان يعاني من سوء أحوال الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وجد الاستعمار الاوربي فرصته الذهبية فتدخل في شؤون تلك الدولة وفي شؤون الاقطار العربية جميعها تدخلا سافرا حتى وصل الامر الى احتلال الانجليز لمصر والسودان واعلان حمايتهم على مصر بعد قيام الحرب العالمية الاولى ·

ولما وضعت تلك الحرب أوزارها وخرجت منها تركيا مهزومة وقعت

الاقطار العربية فريسة باردة للاستعمار الاوربي فاستأثرت بريطانيا بوادي النيل وفرضت حمايتها على العراق وأصبحت الحاكمة بأمرها في فلسطين تحت ستار الانتداب من قبل عصبة الامم لادارة شؤون فلسطين وأما سوريا ولبنان وأقطار بلاد المغرب فكانت من نصيب فرنسا • وبسط الاستعمار نفوذه على تلك البلاد بصورة او بأخرى سافرا احيانا ومقنعا أحيانا •

لقد حاولت الدولة العثمانية التي ظلت تفرض سلطانها على الوطن العربي نحو أربعة قرون أن تذيب القومية العربية وان تصرف العرب عن وحدتهم فأخذت تدعو الى فكرة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية بين الاقطار الاسلامية تحت راية تلك الدولة ، وقد حمل لواء هذه الفكرة بعض كبار الادباء والكتاب والمفكرين المسلمين ومنهم السيد جمال الدين الافغاني الذي زار مصر وأقام فيها عدة سنوات في عهد الخديو اسماعيل وقد ادعى لنفسه حق التحدث باسم الامة المصرية والمطالبة بالدستور والامر الذي لا يقبل الجدل ان الدين وحده ليس عنصرا كافيا لقيام الوحدة بين الاقطار وحتى لخلق القومية وقيام الدولة الحديثة كما ان اختلاف الظروف الجغرافية والسياسية والاجتماعية واختلاف اللغة بين الاقطار الاسلامية لا يجعل قيام هذه الجامعة الاسلامية التي تحدث عنها الافغاني وتلاميذه من أمثال الشيخ محمد عبده والسيد عبدالله النديم ومصطفى كامل أمرا سهلا أو حتى ممكنا • ولما وطد الاستعمار الاوربي أقدامه في الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين لجأ هو الآخر الى بذور الفرقة بين أبناء الاقطار العربية بل بين ابناء القطر العربي الواحد وذلك عن طريق تاليف الاحزاب السياسية المتناحرة تارة وعن طريق الفتنة الدينية أو العنصرية تارة أخرى فنحن نذكر على سبيل المثال دسائس الاستعمار في مصر للتفرقة بين عنصري الامة من المسلمين والاقباط ودسائسه في العراق للتفرقة بين الشيعة والسنة وبين العرب والاكراد • ودسائسه أيضا في الشام للتفرقة بين الدروز والموارنة ودسائسه في السودان بين المصريين والسودانيين وفي المغرب العربي بين العرب والبربر •

وأخذ الاستعمار ينفث سمومه أيضا ويبلبل الافكار فادعى بعض المفكرين والاستعماريين ان العرب ليسوا من أصل واحد (عنصر واحد) • والمصريون من نسل الفراعنة ، والبربر سكان شمال افريقية من الوندال والرومان واللبنانيون من نسل الصليبيين الافرنج • انهذه الادعاءات لاتنطوي على حقيقة علمية لان سكان الوطن العربي ينتمون جميعا الى سلالة البحر المتوسط بفرعيها السامي والحامي والذى استطاع هضم جميع العناصر الغريبة التي دخلت اليه من خارج الاقطار العربية والامتزاج بها وبقيت له خصائصه الانثروبولوجية التيمن أبرزها سمرة البشرة ونحافة البنية والقامة المتوسطة• فأنت لا تجد فروقا جوهرية في تقاطيع الوجه أو شكل الرأس أو الانف أو طول القامة أو نوع الشعر بين أغلبية سكان الجزيرة العربية وسكان وادي

الرافدين أو وادى النيل أو بلاد المغرب العربي • فكلهم من ناحية السلالة البشرية سواء • وهذه حقيقة علمية ثابتة لا تقبل النقاش •

وقد عمل الاستعمار الفرنسى بصفة خاصة الى عزل الشمال الافريقي العربي عن المشرق العربي ، وظل يعمل جاهدا أكثر من قرن من الزمان على تثقيف الشعب العربي في بلاد المغرب وصبغه بالصبغة الفرنسية حتى انه حرم تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم والدين الاسلامي في المدارس وجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم واللغة الرسمية في دواوين الحكومة ولغة التعامل في الاعمال المالية والتجارية • وقد نحا نحوهم الايطاليون في ليبيا • بالرغم من كل هذا نجد أن الاقطار العربية صمدت لهذه السياسة من جانب الاستعمار التركي والاستعمار الاوربي ولم تنس قوميتها العربية ووحدتها في أي يوم من الايام •

لقد انشغلت الامة العربية في بادىء الامر بمقاومة المستعمر لاخراجه من أراضيها فظن الاستعمار ان كل قطر من الاقطار العربية أصبح مشغولا بمصالحه الخاصة ولا يفكر في غيره من اشقائه • وكان الاستعمار نفسه يروج للافكار الشعوبية والاقليمية والانعزالية طوال سيطرته على هذه الافكار •

وحين قامت جامعة الدول العربية ــ وهي جامعة حكومات رسمية لاجامعة شعبية ــ فقدكان قيامها متمشيا مع ظروف الحرب العالمية الثانية ورغبة الدول الغربية المنتصرة في تلك الحرب في مشاركة العرب في النشاط الدولي الذي يرمي الى تكتيل جهود الامم واتحادها للمحافظة على السلام العالمي • وكانت بريطانيا نفسها تأمل في قرارة نفسها بل انها خططت سياستها على أساس استغلال تلك الجامعة كأداة سياسية لتحقيق مآربها الاستعمارية عن طريق الدس بين الدول العربية الاعضاء واستخدام بعض الحكومات العربية مطية للمحافظة على المصالح الاستعمارية في المنطقة وبذلك تلعب بريطانيا الدور الاول على مسرح السياسة العربية وتضمن مصالحها في البلاد العربية •

لكن يظهر أن تقدير بريطانيا لم يكن دقيقا من هذه الناحية فقد خاب أملها وكان الاستعمار يعلم مقدما كفاح الامة العربية في نصف القرن الاخير ويقدر أن تلك الامة ستحصل على حريتها واستقلالها ان عاجلا أو آجلا • ولذلك رسم الاستعمار خطة بعيدة المدى وهذه الخطة تقوم على انشاء دولة صهيونية استعمارية في فلسطين وهى دولة اسرائيل التى تمثل رأس جسر للاستعمار الغربى لكى يظل مسيطرا على المنطقة العربية ويغزو الاسواق العربية ويستنزف موارد الوطن العربى ويمتص دماء العرب •

وقد قامت اسرائيل بمعاونة الاستعمار سنة ١٩٤٨ وطردت العرب الفلسطينيين من بلادهم وسلبت أراضيهم وأصبحوا مجرد لاجئين • فاسرائيل هي السرطان الجديد وبديل الاستعمار الذى يهدد حياة الامة العربية باسرها •

اذن فالوحدة العربية بين جميع الاقطار العربية هى الطريق الطبيعي بل الحل العملى الوحيد للتخلص من الاستعمار والصهيونية ومن يسير في

ركابهم . والوحدة ستمكن العرب من خلق القوة العسكرية القادرة على الوقوف دائما في وجه الاستعمار وعلى دحر الصهيونية والقضاء على اسرائيل . وردع أي معتد أثيم تسول له نفسه المساس بالوطن العربي او الاضرار بمصالح العرب . بالاضافة الى كل هذا فان للوحدة اهداف اقتصادية لا تقل أهمية عن الاهداف السياسية . ان الوحدة ستمكن العرب من استغلال موارد بلادهم الطبيعية وطاقاتها المادية وامكانياتها البشرية على خير وجه لذلك فهي الطريق السليم لتنمية الاقتصاد العربي ورفع الدخل القومي عن طريق التصنيع وزيادة رقعة الارض المزروعة وتحسين انتاجية الأرض وزيادة الغلة الزراعية وبذلك يزيد الدخل الفردي والقومي .

ان نظرة الى خريطة الوطن العربي وما تحتويه من موارد طبيعية هائلة ومتنوعة نباتية ومعدنية وما يتوافر فيها من مصادر كثيرة للقوى الطبيعية والبشرية تكفي للاقتناع بان هذا الاقليم يؤلف وحدة اقتصادية متكاملة .

ان الوطن العربي يستطيع أن يصل الى مرحلة الاكتفاء الذاتي في الصناعة والزراعة والتجارة ويجد كل حاجاته من المواد الغذائية والقوى المحركة دون الحاجة الى الاستيراد من الخارج بل أن الوطن العربي قادر على استغلال موارده الطبيعية محليا والاستفادة منها وذلك لسد حاجة السوق العربية كلها بدلا من تصدير بعض هذه الموارد الى الخارج كما يحدث حاليا في تصدير بعض هذه الموارد الى الخارج وكما يحدث حاليا في تصدير معظم منتجاته البترولية الى أوربا وامريكا ، أو تصدير بعض محاصيله الزراعية كالقمح أو الفواكه او الطباق الى البلاد الاجنبية في حين ان بعض اجزاء الوطن العربي يستورد الان هذه المنتجات .

وهناك مساحات شاسعة تقدر بملايين الافدنة من الارض القابلة للزراعة في العراق وسوريا والسودان ولا ينقصها الا الايدي العاملة نظرا لقلة عدد سكان هذه الاقطار وفي الامكان تيسير هذه الايدي من الاقطار العربية الاخرى فالوحدة هي التى تستطيع أن تحقق هذا التكامل البشرى وان تخضع الاقتصاد العربي للتخطيط العلمي من اجل تهيئة حياة أفضل للعرب .

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية : ساطع الحصري سنة ١٩٦٠ .

(٢) الدولة العربية الكبرى : محمود كامل المحامي ١٩٥٨ .

(٣) الجزائر « كفاح شعب ومستقبل امة » حمدي حافظ .

(٤) « اسرار العدوان المغربي على الجزائر » محمود عبدالرحيم .

(٥) الاقليمية : ساطع الحصري .

(٦) مجلة الاقتصادي المصرية العدد ٢٠٠ في ١٥-٢-١٩٦٣ .

(٧) الاقتصادي العدد ٢٠١ في ١-١-١٩٦٤ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) الاقتصادي العدد ٢٠١ في ١-٦-١٩٦٤ .

العقلية العلمية المبدعة عند العرب

جعفر الخياط

لا يخفى أن من مقومات القومية العربية في عصرنا الحديث الاعتراف بالتراث العربي الخالد المعبر عن حضارتنا الزاهرة وتاريخنا الحديث · وخير ما في هذا التراث الثروة العلمية الزاخرة ، المنبثقة عن الحضارة العربية التي حملت مشاعل المدنية والتقدم ردحا طويلا من الزمن كانت تغط خلاله مراكز المدنية الاوربية الحديثة في سبات عميق · وقد اضطلع العرب في تلك الاثناء بالواجب الحضاري الذي ألقاه على عاتقهم تطور الازمان وسير الانسانية الحثيث نحو معارج الرقي والتقدم · فكان لهم أثرهم المعروف في وضع الاسس التي ابتني عليها تقدم العلوم الحديثة في شتى ميادين المعرفة ، وخاصة في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء والنبات والاجتماع والفلك والجغرافية وغير ذلك ·

لم يعد من الممكن انكار ذلك التأثير البين الذي صار يعترف به كبار علماء الغرب وأساطين المعرفة فيه من أمثال سارطون وغب وغوستاف لوبون وسيديو وهمبولد ونيكلسون ولالاند وتايلور وسجويك ودي بور وغيرهم · ولا يمكن أن ينكر ذلك الا المغرضين من أعداء العرب والحاقدين عليهم من أمثال رينان الافرنسي الذي يعتقد ان المسلمين جميعهم ، لا العرب وحدهم ، يذهبون الى أن البحث العلمي لا طائل فيه ·

على أن القول الفصل في هذا الشأن ما قاله العلامة الفرنسي الكبير غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) عن تمدين العرب لاوربة · فانه يقول : « أنه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم ، وان هذه الحضارة مدينة للعرب وحدهم في هذا التأثير ، وان الشعوب التي اعتنقت دين الاسلام لا تشاركهم فيه ، وان العرب وحدهم مدنوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، وانهم فتحوا لاوربة باب المعارف العلمية والادبية والفلسفية التي كانت تجهلها ومدنوها وظلوا أساتذة لها مدة ستة قرون ·· » ·

غير أن العرب مع كل هذا الفضل المعترف به لهم ، ومع جميع ما أسهموا به في تقدم الحضارة الانسانية ، لا يزال الكثيرون من الاوربيين وغيرهم يعتقدون انهم مع سائر الاقوام السامية ، وان يكونوا قد أدوا واجبهم كاملا غير منقوص في اسير بمدنية الانسان أشواطا بعيدة نحو التقدم والازدهار ، فان الحضارات التي أنشأوها لم تكن حضارات مبدعة وانما كانت حضارات منقولة عن أقوام غير سامية • وهم يعتبرون على هذا الاساس ان مدنية الكلدانيين والبابليين في وادي الرافدين كانت مستمدة من حضارة السمريين غير الساميين ، وان الحضارة العربية الزاهرة التي قامت في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس وغيرها من مراكز العروبة الحقة كان أساطينها والكثير من علمائها من أصل غير عربي وان كانوا من الشرقيين المسلمين في الغالب • وهم يفعلون ذلك بلا شك ليخرجوا بالقول ان أولئك المسلمين غير العرب يرجعون في أصلهم الى الآريين الذين تنتمي اليهم الامم الاوربية نفسها •

وذلك لعمري كلام مردود من نواح عديدة • فان الحضارات الانسانية كلها قد أبدعت ونقلت في وقت واحد ، وليس من الممكن أن يوضع حد فاصل بين الابداع والنقل لدى أمة من الامم دون أخرى •

وقد نقل الاغريق كثيرا من مقومات الحضارة عن الكلدانيين والبابليين ، ونبغ الكثير منهم وهم في بيئات غير البيئات اليونانية التي يمكن أن تسبغ عليهم الخصائص الاغريقية الخاصة • أما السمريون فانهم ، وان لم يثبت أصلهم ثبوتا قاطعا حتى الان ، لم يصل الينا من آثار حضارتهم ما يصح أن يسمى سمريا محضا • فلم تصل الينا تلك الآثار الا وهي غير خالية من السمات السامية أو العربية فيها •

واذا عدنا الى الحضارة العربية نفسها نجد أن الامم الاعجمية التي دخلت الاسلام ، فشاركت الامة العربية في تكوين حضارتها بتأثير الاسلام نفسه ، لم يكن لها فضل على العنصر العربي في الدراسات النظرية ولم تنهض فيدب دبيب الحياة فيها الا بعد أن اهتدت بالاسلام وأهله • يضاف الى ذلك أن العرب حينما خرجو امن جزيرتهم العربية لنشر الاسلام وهداية الناس به ، وحينما كونوا امبراطوريتهم الكبيرة وأشادوا صرح مدنيتهم الزاهرة ، شغلوا بقيادة الجيوش وفتح البلاد وانصرف أصحاب القابليات منهم الى ادارة شؤون الدولة وحكوماتها في شتى أنحاء الامبراطورية • وقد ظهرت مواهبهم وقابلية ابداعهم في تلك الميادين ، ولم يتسن للكثيرين من ذوي القابليات والابداع منهم أن يبرزوا في الميادين العلمية التي تركت لابناء الاعاجم في الغالب • ومع هذا فان قيام العرب المسؤولين وغير المسؤولين برعاية الثقافة وتشجيع رجال العلم والمعرفة ، وخاصة في أيام الدولة العباسية وخلفائها ، كان له أثر لا ينكر في تقدم البحث العلمي الذي انتج ثروة علمية زاخرة خدمت الانسانية خدمة يعترف بها الجميع • لان

الفلاسفة ورجال العلم من ذوي الاصل غير العربي وجدوا الجو المناسب للبحث العلمي في ظل السادة العرب وراحوا يمارسون أعمالهم وأبحاثهم وهم على ثقة من حسن الجزاء والمكافأة • كما وجدوا في كثير من المناسبات من يمدهم بالوسائل المادية اللازمة لذلك ويغدق على أعمالهم المثمرة بالصرف والانفاق •

هذا كله بالاضافة الى أن النابغين في العلوم والفلسفة والمبدعين في أبحاثهم الاصيلة من الذين كانوا يمتون الى أصل غير عربي خالص كانوا ينتمون الى أمم وأقوام كثيرة متعددة جمعها الاسلام وآخى بينها ، وليس من الانصاف ان يقارنوا من حيث الكثرة والعدد وبمجموع قومياتهم وأجناسهم بمجموع من نبغ من الامة العربية وحدها التي توزع أبناؤها على أنحاء الامبراطورية كلها من الصين الى بحر الظلمات ، وتفرقوا وهم منصرفين الى أداء واجبهم الرئيس في حمل رسالة الاسلام والهداية •

ويقول الاستاذ العقاد(١) في هذا الشأن « •• فالقصور العنصري سبب لا تلجئنا اليه الحقائق ولا تزكيه عند المتصفين • أما الثابت من هذه الحقائق فهو أن الدفعة التي أحيت الحضارة في رفعة الدولة الاسلامية قد جاءت من السلالة العربية ، وان حضانة الدولة الاسلامية هي التي سمحت ببقاء ما بقي من حضارات الفراعنة والاغريق والفرس والهنود ، ولولا قوة (موجبة) في العبقرية العربية لما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضانة » •

وقال غوستاف لوبون كذلك « •• ان تلك البلاد مما ملكه العرب وان الدم العربي مما جرى في عروق أبنائها ، وان علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمنا طويلا ، وانه اذا أبيح لاحد أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب كان ذلك من قبيل أباحته لنفسه ان يجادل في مؤلفات علماء فرنسا بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان والسلقيين والاكيتانيين الخ •• » •

ومع كل هذا وذاك فان الامبراطورية العربية حينما استقرت أمورها أخذ أبناء العروبة الاصليون يرتادون آفاق العلم والمعرفة فنبغ منهم كثيرون في شتى أنحاء الامبراطورية وأبدعوا أيما ابداع • وقد اشتهر من هؤلاء بادىء ذي بدء الكندي ومحمد بن ابراهيم الفزاري وأبناء موسى الثلاثة : محمد وأحمد والحسن ، ثم اشتهر بعدهم الجاحظ وابن يونس وابن الهيثم وابن حزم الاندلسي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن البيطار والادريسي وابن خلدون ، فضلا عن عدد كبير آخر لابد أن يكون ذكرهم قد انطمس بفقدان آثارهم وكتبهم •

فقد كانت للكندي ، وهو العربي الاصيل ، عقلية علمية مبدعة وقريحة خصبة جبارة ، تظهر في آثاره الكثيرة التي خلفها لنا في الفلسفة والعلوم • حتى قال عنه ابن النديم « انه فاضل دهره وواحد عصره

وفيلسوف العرب . كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق والنجوم وتاليف اللحون وطبائع الاعداد .. » ولذلك أعجب به روجر بيكون فقال فيه « ان الكندي والحسن بن الهيثم في النصف الاول مع بطليموس » . وذهب الفيلسوف الاوربي غاردانو الى أبعد من ذلك فقال « ان الكندي من الاثني عشر عبقريا الذين هم من الطراز الاول في الذكاء » .

واعتقد ان السبب في شهرة الكندي وكثرة انتاجه هو ايمانه بالعقل ايمانا لا مزيد عليه ، وتوصله الى الطريقة العلمية التي أدت به الى الابداع والتفرد بمعرفته العلمية والفلسفة الاسلامية الخاصة . فقد كان يحكم العقل والحواس في طريقته العلمية ، ولذلك نراه يهتم بالرياضيات ويذهب الى القول بأن الفلسفة نفسها لا يمكن نيلها الا عن طريق الرياضيات . وبذلك يقول دي بور « والواقع أن الكندي بنى فعل الادوية كما بنى فعل الموسيقى على التناسب الهندسي ، والامر في الادوية أمر تناسب في الكيفيات المحسوسة وهي الحار والبارد والرطب واليابس . » ويخلص الى القول من ذلك بأن « .. الكندي عول على الحواس ولا سيما حاسة الذوق في الحكم على هذا الامر ، حتى نستطيع أن نرى في فلسفته شيئا من التناسب بين الاحساسات .. » .

ولذلك فليس من المستغرب أن نراه يستهجن الاشتغال بالكيمياء القديمة من أجل الحصول على الذهب ، ويعتقد أن ذلك من شأنه أن يضيع الوقت والمال ويذهب بالعقل والجهود هباء . حتى انه صنف في هذا المال رسالة خاصة بعنوان (رسالة في بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة وخدعهم) . وهو لا يعتقد ... بالمنجمين والتنجيم ، ولا يؤمن بتأثير الكواكب على شؤون الناس وأحوالهم ، ولا بالتنبؤات المبنية على ظهور الاجرام السماوية وحركاتها وما تتصف به من السعد أو النحس . وبتفكيره هذا كان يضع الحق والحقيقة فوق أي اعتبار آخر ، وفي هذا الشأن يقول : « .. وينبغي أن لا نستحي من الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وان أتى من الاجناس القاصية عنا والامم المباينة لنا فانه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق .. » ويقوم منهجه الخاص في الفلسفة قبل كل شيء على تحديد المفهومات بألفاظها الدالة عليها تحديدا دقيقا ، وهذا ما يؤثر في طريقته العلمية ويؤول الى الابداع بلا شك .

وقد كان أبناء موسى بن شاكر الثلاثة يمتون الى أصل عربي كذلك . وقد اشتهروا باشتغالهم بشتى العلوم ونقلها الى العربية حينما كانوا يشتغلون في (بيت الحكمة) الذي أنشأه الخليفة المأمون . وكان بين ما عرفوا به أنهم برعوا في علم الفلك وأجادوا به . فقد عينوا بضبط لم يكن معروفا قبلهم مبادرة الاعتدالين ، ووضعوا تقاويم لامكنة النجوم السيارة وعينوا بالضبط في سنة ٩٥٩ من الميلاد درجة عرض بغداد فكانت ٣٣ درجة وعشرين دقيقة(٢) .

أما الجاحظ العربي فقد كان نسيجا وحده بين العلماء الذين وصلتنا آثارهم . فهو وان كان يخلط الادب بالعلم ذو عقلية موسوعية تحيط بالكثير من ضروب المعرفة التي كانت معروفة في أيامه وعصره .

ومن الممكن أن يستنتج بسهولة ويسر من آثاره التي وصلت الينا ، وأجلها كتاب الحيوان ، بأنه كان ينزع نزعة علمية أصيلة تمهد للابداع الى درجة غير يسيرة . ويستدل من كتابه هذا على أنه كان يحوم بتفكيره حول الكثير من المذاهب التي لم تتكامل معرفتها للانسان الا في عصرنا العلمي هذا . وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية في هذا الشأن قولها « .. وفي هذا الكتاب بعض مذاهب في ابتداء أمرها كالنشوء والارتقاء ، والتلون بألوان البيئة ، وروح الحيوانات ، الى غير ذلك من المذاهب التي لم يتكامل نموها الا في القرن التاسع عشر » . ومن الممكن أن يؤتى بالكثير من الشواهد على هذا مما يضيق به نطاق هذا المقال .

وتتجلى من دراسة كتاب الحيوان عقلية الجاحظ العلمية ، وتبدو من بين أوصافه واستشهاداته طريقته العلمية التي عرفها قبل أن يتوصل اليها روجر بيكون بعدة قرون . وهي تتلخص في التجربة والعيان ، والتأكد مما يسمع قبل تصديقه ، والاستعانة بالعقل والحواس ، وبالنقد العلمي والشك والتعليل . فهو يقول « ليس يشفيني الا المعاينة » والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق بلا شك ولا ريب . ثم يقول ان كل قول « .. يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهبا ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة »(٣) . ولذلك نراه يلخص في مقدمة كتابه بأسطر معدودة الاصول التي يتبعها في بحثه . فهو يقول « وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لانه وان كان عربيا أعرابيا ، واسلامية جماعيا فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » .

على أنه لم يكن يكتفي بالاستعانة بالحواس في طريقته العلمية من دون أن يشكك ويحكم العقل . فهو يقول « ولعمري أن العيون لتخطيء ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الاعضاء وعيارا على الحواس »(٤) . ولذلك نراه يوصي بالجمع بين معونة الحواس والعقل حين يقول « .. فلا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل ، وللامر حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة »(٥) .

ويلتقي الفيلسوف الفرنسي ديكارت مع الجاحظ الذي عاش قبله بعدة قرون في اعتماده على العقل والتشكيك بكل ما يعرض للباحث والعالم ، أو غيرهما . فان ديكارت يقول « لا تصدق الا ما كان واضحا » بينما يقول الجاحظ « لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الادلة » . ويقول كذلك « .. وبعد فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها

اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما » ٠

أما التجربة والعيان في طريقة الجاحظ العلمية فكتبه ملأى بوصف ما كان يصنعه بشأنهما ، وخاصة كتاب الحيوان ، وليس بوسعي أن أورد نماذج من ذلك في هذا المجال للتدليل على طريقة الجاحظ العلميه ، لكنني سأكتفي بذكر ما جاء عنهما في الدراسة القيمة التي قام بها الاستاذ شفيق جبري عن حياة الجاحظ ٠ فهو يقول قبل أن يورد نماذج طريفة من تجارب الجاحظ « ٠٠ فقد جرب في أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل ، وجرب في النبات ٠ وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهبا خاصا ، ففي بعضها كان يقطع طائفة من الاعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضربا من السم ، وحينا كان يرمي في تجربته الى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وحينا كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان ، وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الاحايين الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان »(٦) ٠

ومن العلماء العرب المبدعين أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس المصري المتوفى سنة ١٠٠٩ من الميلاد ، مخترع الرقاص (بندول الساعة) الذي يعزى اختراعه خطأ الى غاليلو العالم الايطالي الذي عاش من بعده بسنين كثيرة ٠ وكان ابن يونس هذا رياضيا بارعا قام ببحوث أصيلة في الفلك والرياضيات وبرع في المثلثات فأجاد ٠ ويعتقد الكثيرون من مؤرخي العلوم أن ابن يونس كان أول من توصل الى ايجاد قانون رياضي خاص كان يستفيد منه علماء الفلك قبل اكتشاف اللوغاريتم لتحويل عمليات الضرب الى عمليات جمع بسيطة ٠ ويقول الاستاذ قدري طوقان « ٠٠ وبحوثه في المثلثات فاقت بحوث كثيرين من العلماء ، وكانت معتبرة جدا عند الرياضيين ولها قيمتها الكبيرة في تقدم علم المثلثات ٠ وقد حل أعمالا صعبة في المثلثات الكروية واستعان في حلها بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الافقي ومستوى الزوال »(٧) ٠ والمعروف كذلك أنه في سنة ٩٧٨ رصد الكسوف والخسوف في القاهرة فأثبت منهما تزايد حركة القمر ، وحسب ميل دائرة البروج فكان حسابه أقرب ما يكون الى الصحة قبل اتقان آلات الرصد الحديثة ٠ ومن أعماله أنه صنع (الزيج الحاكمي) الذي أمر به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وأصلح زيج يحيى بن منصور ٠ ويعترف سيديو ان زيجه هذا كان يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد من قبل ٠

وكان الحسن بن الهيثم البصري العربي المتوفى سنة ١٠٣٩م أشهر

علماء العرب المبدعين وأشدهم تأثيرا في تقدم العلوم الفيزيائية الحديثة ، وخاصة في البصريات وعلم المناظر • اذ يقول الاستاذ مصطفى نظيف في دراسته الخاصة عنه « انه قلب الاوضاع القديمة وأنشأ علما جديدا أبطل فيه علم المناظر الذي أنشأه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث • وان أثره في الضوء لا يقل عن أثر نيوتن في الميكانيك » • ومن الثابت ان كيلر العالم الفيزيائي المعروف أخذ معلوماته في الضوء مما كتبه ابن الهيثم في كتبه ، وخاصة في موضوع انكسار الضوء في الجو • ولذلك قال عنه أحد الباحثين الامريكان « ان ابن الهيثم أعظم عالم ظهر في الفيزياء عند العرب ، بل أعظم علماء الفيزياء في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله •• » •

وقد أودع ابن الهيثم نظرياته المبتكرة وابداعاته الفيزيائية في كتابه المشهور الذي سماه (كتاب المناظر) • ويقول المطلعون أنه استوفى به بحوث الضوء الاساسية معظمها وبوبه تبويبا لا يقل عن تبويب الكتب العالية الحديثة • وقد فاق في ما جاء به حتى البعض من الكتب الحديثة نفسها ، وخاصة في مواضيع انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكة العين • فأحدث انقلابا في علم البصريات وجعل منه علما مستقلا بذاته • ولذلك ظل الاوربيون يعتمدون عليه في معاهدهم لعدة قرون •

ومما جاء به من معلومات حديثة أبطل بها معلومات اليونان المغلوطة تفسير رؤية الاشياء التي كان يعتقد انها تتم بخروج الاشعة من العين نفسها في حين أن الصحيح هو أن الضوء تتساقط أشعته على الجسم المرئي من مصدره فتنعكس الى العين وتتم الرؤيا •

وكان ابن الهيثم علاوة على ذلك رياضيا قديرا برع في تطبيق الهندسة والمعادلات والارقام في الفلك والفيزياء • وقد بحث في المعادلات التكعيبية بطريقة قطوع المخروط • وتمكن من استخراج حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محور السينات والصادات • ثم وضع قوانين أربعة لايجاد مجموع الاعداد المرفوعة الى القوى ١ و٢ و٣ و٤ ، واستعمل نظرية افناء الفرق ، وطبق الهندسة على المنطق(٨) •

وقد اشتغل ابن الهيثم في علم الفلك أيضا • وتبلغ رسائله فيه شيئا يزيد على العشرين رسالة • ويستدل مما وصل الينا منها أنه استنبط طريقة جديدة لتعيين ارتفاع القطب لجأ فيها الى استعمال التحليل الرياضي فكانت بحوثه ونتائجه خالية من الاخطاء • ومما فعله كذلك أنه بسط سير الكواكب وتمكن من تنظيمها على منوال واحد ، فكان هذا من المعلومات الجديدة التي أضافها الى علم الفلك فأدت الى تقدمه •

ويعد ابن حزم الفيلسوف الاندلسي من خيرة المفكرين العرب وأكثرهم تحررا وابداعا • وقد تناول العلماء الاوربيون آراءه فشرحوها وعلقوا عليها

وأبانوا أثره في الفكر والمنطق والتاريخ ·

فيقول سارطون في تاريخ العلوم « ·· ان ابن حزم أعظم عالم في الاندلس ومن أكبر المفكرين المبتكرين المسلمين فيها ·· » ·

وقد كانت له آراء مستقلة خاصة يحكم فيها العقل ويعتمد عليها · ولذلك نراه يحمل حملات شعواء على الخرافات ويندد بها ، ثم يدعو الى الاخذ بالعلم الصحيح والعقل على الدوام · وقد هاجم على الاخص التنجيم والتنبؤ بالنجوم ، ونفى تأثيرها على حياة الانسان فهو يقول « ·· وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به الا اذا كان المقصود انها تدبرنا طبيعيا كتدبير الغذاء لنا وكتدبير الماء والهواء ونحو أثرها في المد والجزر وكتأثير الشمس في عكس الحر وتصعيد الرطوبات · والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة ·· » ·

ومن آراء ابن حزم العلمية ونظرياته الفلسفية نظرية المعرفة التي سبق بها الفيلسوف الالماني كانت بسبعة قرون ونصف · فان المعرفة في رأيه تكون (١) بشهادة الحواس ، أى بالاختبار لما تقع عليه الحواس و(٢) بأول العقل ، أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة الى استعمال الحواس الخمس و(٣) ببرهان راجع من قرب أو من بعد الى شهادة الحواس وأول العقل(٩) ·

اما ابن باجة فهو من فلاسفة العرب في الاندلس الذين تأثر بهم عدد عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين العرب والافرنج على سواء · وقد بنى فلسفته العقلية على الطبيعيات والرياضيات ، فحاول الفيلسوف الالماني كانت تقليده به · واشتغل علاوة على ذلك بالفلك والطب والرياضيات ، فكانت له ملاحظات على نظام بطليموس في الفلك وأشار الى نقاط الضعف فيه · وتأثر البطروجي الفلكي المعروف بارائه فقال بالحركة العربية · وقد اعتمد ابن البيطار على آرائه في مفردات الادوية ورسالته في الطب · والمعروف بين الفلاسفة والمطلعين ان ابن باجة خلع عن الفلسفة الاسلامية سيطرة الجدل وأدخلها في نطاق العلم الصحيح ·

ويعتبر ابن طفيل الفيلسوف العربى الاندلسي من كبار الذين تركوا آثارا خالدة في ميادين الفلسفة والتفكير العلمي ، وجبابرة المفكرين في القرون الوسطى في رأى الكثيرين · ولذلك نجد أن قصته المشهورة (حي بن يقظان) التى ضمنها الكثير من أفكاره وآرائه تعد في مقدمة الاثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ تقدم الفكر الانساني على حد ما يقول الاستاذ قدرى طوقان · فليس من المستغرب والحالة هذه أن يكون تأثير هذه القصة عظيما في مفكري الافرنج ، وخاصة في اناس مثل القديس توما والفيلسوف سبينوزا ·

ويرى الكثيرون من الفلاسفة والمطلعين ان ابن رشد كان أعظم حكماء القرون الوسطى وأكبر فلاسفة الاسلام · وقد أعجب به بيكون جد الاعجاب

فقال عنه انه « .. فيلسوف متين متعمق صحح كثيرا من أغلاط الفكر الانساني وأضاف الى ثمرات العقول ثروة قيمة لا يستغنى عنها . » ولذلك اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها وكان من حسناتها انها حلت عقال الفكر الاوربي وفتحت أمامه أبواب الفكر والمناقشة على مصاريعها كما يقول الاستاذ طوقان .

وكان ابن البيطار أعظم عالم نباتي ظهر في القرون الوسطى ، لانه كان يحمل عقلية مبدعة أهلته لدراسة النباتات دراسة علمية في البلاد المختلفة التي رحل اليها . وقد أودع المعلومات التي توصل اليها ، ونتائج التجارب التي كان يجريها ، في كتابيه المعروفين اللذين ظلت المدارس الاوربية تستعين بهما وتنهل منهما زمنا طويلا . ومما أتى على ذكره في كتابيه مئتا نبات جديد وضعها وجاء بمعلومات جديدة عنها للعالم في ذلك الوقت .

أما الادريسي ، العالم العربي المشهور الذي كان روجر الثاني ملك صقلية يعتز به ويزين بلاطه بوجوده ، فقد كان أبرز الجغرافيين والخرائطيين في القرون الوسطى . ويقول الدكتور فيليب حتي في كتابه « تاريخ العرب » ان المادة التي أودعها الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) تدل على سعة نظر مدهشة ، والالمام بالمعلومات الجغرافية الاساسية مثل كروية الارض وما أشبه . وقد صنع الادريسي للملك روجر الثاني بالاضافة الى ذلك كرة سماوية متقنة وخارطة قرصية الشكل للعالم من الفضة .

ويتجلى الابتكار والابداع في عقلية ابن خلدون صاحب التاريخ المعروف ومقدمته التي طبق ذكرها الخافقين . وردا على الكثيرين الذين يعتقدون ان ابن خلدون لم يكن من أصل عربي أثبت الدكتور حتي في كتابه انه ينتمي الى أسرة عربية من قبيلة كنده نزحت من اليمن الى الاندلس في القرن التاسع من الميلاد ، وقد بقي نسلها في اشبيلية الى القرن الثالث عشر . وتستند شهرة ابن خلدون على المقدمة التي كتبها لكتابه التاريخي (كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر) . فقد عرض فيها لاول مرة نظرية التطور التاريخي التي تأخذ بنظر الاعتبار العوامل الجوية والجغرافية بالاضافة الى القوى الاخلاقية والروحية . وهو حينما يحاول في مقدمته البارعة وضع قوانين خاصة لتقدم الاقوام والامم يمكن ان يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع . فلم يسبق لاى عربي آخر ، أو لاى أوربي ، أن يتخذ مثل هذه النظرة الفلسفية في دراسة التاريخ . ولذلك فقد أجمع النقاد قاطبة على ان ابن خلدون كان أعظم فيلسوف مؤرخ أنجبه الاسلام ، وواحدا من أعظم من ظهر في تاريخ العالم في هذا الشأن . وعلى هذا يقول المؤرخ الانكليزي المعاصر توينبي « .. ان ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أى

عقل في أي زمان ومكان ٠٠ »

وبعد هذا كله لابد ان أختم مثل هذا المقال بنبذ ثلاث ، اقتبسها من كتاب « حضارة العرب » للفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون ، للتدليل على فضل العرب في العلوم والاشارة الى عقليتهم العلمية المبدعة ٠ فهو يقـول « ٠٠ يقول الاوربيون ان بيكون أول من قال بالتجربة والمشاهدة اللذين هما ركن المباحث العلمية الحديثة ، ولكن الانصاف يقضي بأن نعترف بان الفضل في ذلك للعرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأى مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ولا سيما العالم همبولد ٠٠ »

ويقول كذلك « ويتراءى لبعض الفضلاء ان من العار أن تكون أوربة مدينة في خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين ، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق(١٠)٠ » ثم يختم كتابه النفيس بالنبذة التالية : « لقد تم الكتاب فلنلخصه في بضع كلمات فنقول : ان الامم التى فاقت العرب تمدنا قليلة الى الغاية ، وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة ، وان العرب أقاموا دينا من أقوى الاديان التي سادت العالم ولا يزال الناس يخضعون لها ، وأنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ، وانهم مدنوا أوربة ثقافة واخلاقا ، وان الامم التى سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة ٠٠ »



---

(١) أثر العرب في الحضارة الاوربية (الطبعة الثانية ١٩٦٠) ٠
(٢) حضارة العرب ٠
(٣) كتاب الحيوان ، ج ٢ ، ص ١١٢ ٠
(٤) كتاب « الجاحظ » للاستاذ شفيق جبرى ٠
(٥) كتاب الحيوان ج ١ ، ص ٩٧ ٠
(٦) الخالدون العرب الص ٦٩ ٠
(٧) الجاحظ معلم العقل والادب ــ شفيق جبري ، الص ١٢٥ ٠
(٨) الخالدون العرب ٠
(٩) عبقرية العرب ــ عمر فروخ ٠
(١٠) حضارة العرب ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، الص ٥٩٩ ٠

الدكتور أحمد فكري

أهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلديات

كتب المؤرخون مجلدات ضخمة عن تاريخ بغداد ، وذكروا كيف اختار المنصور موضعها ، وأشاروا الى محاسن هذا الموضع ، وفسروا اسمها ، واختلفوا في أصله ، ورووا كيف أن المنصور اختطها حين عزم على البناء ، وسجلوا تفصيلا أعمال التأسيس والانشاء والتعمير ، وحددوا مساحات العاصمة الجديدة ونفقات بنائها ، ولم يغفلوا من تاريخها صغيرة أو كبيرة ، حتى أنهم ذكروا أحجام اللبنات التي كانت تستخدم في البناء وأوزانها .

والباحث في كتب المؤرخين والرحالة العرب يستطيع أن يرسم من وصفهم لمدينة المنصور صورة صادقة دقيقة واضحة لمعالمها عند تأسيسها وعلى ممر الاجيال ، صورة ترتسم فيها أسوارها وأبراجها وأبوابها وطاقاتها وطرقها وقطائعها ومحلاتها ورحباتها وقصورها ومساجدها ومنازلها وأسواقها وحماماتها . وقد استطاع فعلا بعض علماء الآثار أن يرسموا مخططا مختصرا لبغداد على عهد المنصور .

أوضح المؤرخون والرحالة العرب جميع معالم بغداد ، ولكنهم لم يشيروا غير اشارات عابرة الى السبب الذى حبب الى المنصور أن يجعل العاصمة الجديدة مدينة « مدورة » ، على غير ما كانت عليه من قبل جميع المدن التى استحدثها العرب بعد الاسلام ، في بلادهم وفي البلاد التى فتحوها • صحيح أن المؤرخين أجمعوا على أنه لم يكن في الدنيا مدينة مدورة سوى مدينة السلام • وصحيح أنهم ذكروا أن « صفة » هذه المدينة قبل تخطيطها كانت في « نفس » المنصور ، وأنه هو الذى « أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والذرع والمساحة وقسمة الارضين ، ومثل لهم هذه « الصفة » ، وطلب منهم أن يخطوها بالرماد ، وأن يجعلوا على تلك الخطوط حب القطن ويصب عليه النفط » ، وقال المؤرخون « نظر اليها والنار تشتعل ، ففهمها وعرف رسمها » وذكر مؤرخ آخر ان الرأى تراوح بين النظام المربع والنظام المستدير وأن المنصور استحسن هذا النظام الاخير • وليس في هذه المعلومات الضئيلة ما يبرر اختيار النظام المدور لعاصمة الخلافة • الا أن بعض المؤرخين ذكر أن المنصور أراد أن تكون مدينته مدورة « لئلا يكون بعض الناس فيها أقرب اليه من البعض » • ولم يأخذ أحد من علماء الآثار بهذا السبب الوحيد ، ولم يعتبره عاملا كافيا لاختيار نظام جديد في التخطيط جعل من (مدينة السلام) مثلا رائعا من أهم نماذج تخطيط المدن التى عرفت فى التاريخ •

أخذ علما الآثار يبحثون فى سجلات التاريخ عن أمثلة لمدن مدورة، لعلهم يجدون فى احداها مصدرا لاشتقاق تخطيط مدينة بغداد ،وهداهم البحث الطويل الى العثور على أطلال اثنتى عشرة مدينة مبعثرة فى أنحاء العالم ، وفى مراحل التاريخ ، أقدمها عهدا كانت قائمة قبل بناء بغداد بخمسة عشر قرنا من الزمان ، وأقربها عهدا الى بغداد كانت قد اندثرت فى القرن الثالث الميلادى •

ولا شك فى أنه كانت لهذه المدن جميعا التى اكتشفها علماء الآثار أسوار مستديرة أو شبيهة بذلك • وقد كشفت مديرية الآثار العراقية حديثا عن مدينة أخرى هى « الحضر » جنوب غربى (الموصل) • وهى مدينة كانت ذات « روعة وجمال » وكانت محاطة بأسوار مدورة مشيدة بالحجارة ، وكانت محصنة ذات قلاع •

وذهب علماء الآثار الى أن المنصور اشتق نظام مدينته من احدى هذه المدن ، وذكروا فى تعليل ذلك الاشتقاق أن النظام المدور كانت له مزايا حربية تفوق مزايا غيره من النظم ، فضلا عن أن فيه اقتصادا فى نفقات البناء ، لان محيط الدائرة بالنسبة لمساحة معينة أقصر طولا من المحيط المربع أو المستطيل لهذه المساحة نفسها •

ولكن الباحث المدقق فى هذه المدن جميعا يلاحظ أمورا ثلاثة ، اذا كان يستهدف منها مصدر اشتقاق لتخطيط بغداد •

الامر الاول ــ أنها كانت جميعا أطلالا مندثرة في عهد المنصور ، لا حركة فيها ولا حياة ، فضلا عن أنها كانت بعيدة المنال ، نائية عن موقع الانظار .

والامر الثانى ــ انها لم تكن مدورة تماما ، بل كانت شبيهة بذلك ، ولم تكن أسوارها ترسم على ظهر الارض دائرة هندسية منتظمة ، مثلما رسمه « أهل المعرفة بالذرع والمساحة وقسمة الارضين » عند تخطيط بغداد .

والامر الثالث ــ أنها كانت معظمها مدنا محصنة ، ذات أسوار وأبراج ، وأن الذى اقتضى استدارتها هو فكرة التحصين وغلوب الرأى عند بناتها بتفوق الابراج المستديرة مناعة على الابراج المربعة أو المستطيلة .

ولهذه الاسباب الثلاثة يبدو لى أن وجه البحث فيها عن مصدر اشتقاق لتخطيط بغداد لا يستند على أسس ثابتة ، وأن مثله مثل الذى يحاول أن يستمد من اطارين وجها لمقارنة بين صورتين رائعتين من روائع فن التصوير ، او ذلك الذى يقارن بين كتابين بغلافيهما لا بموضوعيهما .

ومع ذلك كله ، فلنفترض أن أحد المهندسين العرب كان قد شاهد أطلالا من هذه المدن ، وأعجبه منها استدارة أسوارها ، وحبب هذا النظام الى المنصور ، فأشتقت بغداد نظام استدارة أسوارها وأبراجها من احدى تلك المدن ، ولتكن مدينة الحضر ، التى كانت أقربها موضعا من بغداد .

ولكنى سأحاول أن أبين أن اهمية تخطيط مدينة بغداد لم يكن يقتصر على أسوارها المدورة ، بل انه كان ينبعث من « صفتها » التي كانت فى « نفس » المنصور ، فقد كانت أهمية بغداد بالنسبة لتخطيط المدن فى جوهرها أكثر منها في مظهرها .

كتبت فى كتاب ظهر لى منذ سنة تعقيبا على ما ذكره أحد علماء الآثار من أن تخطيط مدينة بغداد يعتبر مثلا رائعا وانموذجا من أهم نماذج تخطيط المدن التى عرفت فى التاريخ « اننى أستطيع أن أقرر فى ثقة تامة أنه ليس لهذا التخطيط نظير فى أى مدينة من المدن السابقة للفتوحات العربية ، وأنه تخطيط مبتكر صدر عن خيال الخليفة المنصور ، وحققه على الطبيعة كبير المهندسين الحجاج بن ارطأة وأعوانه . بعد تداول الرأى مع « أهل المعرفة » من مواطنيهم » .

ان أهمية تخطيط بغداد يكمن في مركزها وهو الذى يستمد منه محيطها أهميته كذلك . وفى هذا وحده لم يأت المنصور بجديد . كانت الفكرة السائدة فى انشاء المدن الاسلامية الاولى ، أن يكون أول ما يخط فيها هو المسجد ودار الامارة وبيت المال . هذا ما حدث فى البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، وكانت هذه المبانى الثلاث فى كل من هذه المدن مركزا بنيت المنازل بالقرب منه ، وانتشرت الخطط من حوله ، وأخذت

تلك المدن تنمو وفقا للظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية التى أحاطت بكل منها ٠

كان قلب المدينة العربية اذن هو المسجد ودار الامارة وبيت المال ، وهكذا كان الحال في بغداد ، كان أول ما فكر فيه المنصور حين اختار موضعها أن يحدد مركزها وقلبها واتبع المنصور في ذلك المبدأ الرئيسي فى تخطيط المدينة العربية الاسلامية ٠ وجعل من هذا القلب « رحبة عظمى » ، بنى فيها قصر الخلافة ، قصر الذهب ، والى جنبه المسجد الجامع ومنازل أولاد الخليفة وبيت المال وخزانة السلاح ، وما كان يتبع القصر من دواوين الرسائل والخراج والخاتم والجند وغير ذلك ٠ وامتدت من هذه الرحبة العظمى الى الابواب الاربعة العظام ، أربعة طرق رئيسية فسيحة ، هى « الطاقات » ، شرقا الى باب البصرة ، وغربا الى باب الشام ، وشمالا الى باب خراسان والطريق الرابع جنوبا الى باب الكوفة ٠

ليس في هذا جديد فى نظام تخطيط المدن العربية ، ولكن المنصور ، فيما يذكره المؤرخون ابتكر فكرة تخطيطية جديدة ٠ فقد ذكر الرواة عنه أنه أراد أن يكون موقع القلب من المدينة بحيث « لا يكون بعض الناس فيها أقرب اليه من البعض الآخر » ٠ أى أن يتساوى البعد بين قصر الخلافة وبين جميع أطراف المدينة ، وهذا معناه في لغة الحساب والهندسة ، أن يكون القصر مركزا ، وأطراف المدينة وأسوارها منه دائرة ومحيطا ٠

وهذا هو الوجه الاول فيما أسميته ابتكارا ، فلم يحدث قط من قبل ، أن اختطت مدينة من المدن على هذا الاساس من التفكير ، ولم يحدث من قبل بغداد ، وخاصة فى جميع المدن المدورة التى أشرت الى اكتشاف علماء الآثار لها ، أن كان لها مركز عام في وسطها تساوت أبعاد أطرافها ومحيطها من حوله ٠

أما الوجه الثانى من ابتكار المنصور فانه يتضح من المخططات التى تربط قلب المدينة بأطرافها ، وقصر الخلافة بأسوارها لم يحدث كذلك من قبل أن انبثقت من كل ناحية من نواحى هذا القلب ، وتشعبت ، شرايين مستقيمة ممتدة الى الاطراف ، فكأن قصر الخلافة التى كانت تعلوه القبة الخضراء الشهيرة كان شمسا ، وكأن السكك التى تفرعت من حول القصر كانت أشعتها ٠ أو أن تخطيط مدينة بغداد كان ، على حد قول أحد علماء الآثار شبيها بأطار العجلة الذى تربطه بمركزها احدى وأربعين عقلة ، هى السكك الممتدة فيما بين الطاقات ٠

وكان هنالك وجه ثالث من أوجه الابتكار في تخطيط بغداد ذلك أن المنصور قسمها الى أربعة أقسام متساوية ، أو اربعة اربع ، هي الارباض ٠ وجعل فيما بين كل ربض وربض صفا من تلك الطاقات الاربعة التى أشرت اليها والتى كانت تمتد من الرحبة العظمى الفسيحة الى الابواب الاربعة العظام ٠ وكان كل ربض قائما بذاته ، تعتدل فيه السكك والشوارع

والدروب ، فى صورة منتظمة ، بحيث تتناسق المنازل وتتقارب المسافات بين الدرب والدرب والسكة والسكة والشارع والشارع • وما أحسب أن مثل هذا التنظيم المدائنى قد روعى بصفة عامة أو مقتضبة فى أية مدينة من المدن قبل انشاء بغداد •

أما الوجه الاخير فى مبتكرات تخطيط بغداد فهو أن المنصور قد أولى عناية خاصة بأن يكون كل قسم من أقسام المدينة الاربعة مكتفيا اكتفاء ذاتيا • وذكر المؤرخون أنه أمر المهندسين « أن يكون فى كل ربض من المساجد والحمامات ما يكتفى بها من فى كل ناحية ومحلة » ، كما أمرهم « أن يوسعوا فى الحوانيت ليكون فى كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات » • وكانت هذه الحوانيت في الطاقات الاربعة الكبرى الممتدة الى الرحبة العظمى من الابواب الاربعة العظام •

ان هذا الوجه الاخير من مبتكرات تخطيط بغداد يكفى وحده للدلالة على أهميتها فى تاريخ المدن والبلديات • فلم يحدث من قبل ، أن خطت مدينة من المدن على أساس الاكتفاء الذاتى لكل حى من أحيائها • بل ان هذه الفكرة التى طبقت لاول مرة فى بغداد قد أصبحت اليوم عنصرا رئيسيا من عناصر تخطيط المدن الحديثة •

ولهذا فلست أرى حرجا فى أن يكون المنصور قد شاهد أطلال مدينة مدورة مثل مدينة « الحضر » فأعجبته استدارة أسوارها وأبراجها ، اذ انه يكفيه فخرا ، هو والحجاج ابن أرطأة وأعوانه المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين أنهم ابتدعوا أول مدينة « مدورة » روعى فى تخطيطها أن يكون لها قلب نابض يقع بالضبط فى المركز الهندسى لتلك الدائرة ، وأن يتصل هذا القلب مباشرة اتصالا متعادلا بجميع أطرافها ، وأن تنتظم فيها الطرق وتستقيم وتتيسر شبكة المواصلات ، وأن تنقسم الى أحياء واضحة المعالم ، مكتفية عمرانيا وتجاريا اكتفاء ذاتيا •



الأصالة وتطور مقومات الشعر

نعمان ماهر الكنعاني

دأب الادباء والنقاد منهم خاصة منذ القديم على جعل الشعراء طبقات ، وخصصوا لهم مواقع ودرجات • وكان التخصيص يشمل شعراء معاصرين لهم تارة، أو شعراء حقبة معينة تارة، ويشمل شعراء عدة حقب أخرى• ثم ذهب البعض منهم الى أن جعل تخصيصه يشمل شعراء العربية عبر القرون •

وكانت أحكام النقاد في هذا المجال متفاوتة من حيث المبدأ والاساس ، بل ذهب التفاوت لدى بعضهم الى حد التناقض • كما كاد الاجماع أن يقع للبعض في أحكامهم على بعض الشعراء•

وقد يأخذ النقد أو الحكم صورا وأسماء متعددة ، هي طورا معلقات ، وتارة مفضليات وحينا ملاحم ، وآخر اخوانيات ، بل أخذ في بعض الاحيان اسماء الفصول أو الاماكن ، فقالوا في بعض القصائد الربيعيات ، وقالوا البغداديات • وكل هذه الصور والاسماء انما هي عناوين لمقاصد النقاد والادباء في أحكامهم على المنظوم • وان كان الاعم الاغلب هو تسمية الاحكام تسمية قاطعة ، فيقولون ان أحسن شعر الشاعر الفلاني هي قصيدته الميمية مثلا ، أو خير شعره الوجدانيات ، أو الروميات ، أو الملاحم ••

على مثل هذه المقاييس سار النقاد والادباء وما زالوا سائرين • ولا يضر الشعر ولا نقده أن يسير النقاد والادباء على مثل هذه المقاييس أو على غيرها ما دامت الاصالة الشعرية هي التي تملي الاحكام سواء نالها بعض الحيدان أم لم ينلها فهي المرجع الذي اليه يرجع النقد وهي المعين الذي تستقى منه الاحكام •

الا ان الناقد الحديث والاديب المعاصر يريد من الشعر الى جانب ما أراده منه قدامى النقاد والادباء أشياء أخر أوحت بها طبيعة العصر ، ومن هنا استحدث مقاييس وظهرت أحكام حالف بعضها التوفيق وخالف البعض الآخر ومن بين هذه المقاييس ، العناية بالصور والظلال والالوان ، حيث صار بعض المعاصرين من رجال الادب يحلوتها محل الديباجة والمعني وسعة الخيال•

وعلى الرغم من التغيير الجزئي في مقاييس الشعر ، هذا الذي أشرنا اليه وعلى الرغم من حماسة بعض نقاد العصر لاحكامهم الجديدة على الشعر ، بقيت الاصالة في مكانها الرفيع وبقى المعجبون من المعاصرين يطربون لابي فراس حين يقول :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر

وللمتنبي في قوله :

ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وللشريف الرضي وهو يردد :

سهم أصاب وراميه بذي سلم
من بالعراق لقد أبعدت مرماك

أقول بقي لهذا الشعر معجبون كثر من المعاصرين لم تقف في وجه إعجابهم أحكام ومقاييس المدرسة الجديدة في النقد ، والتي حاولت أن تجعل من أحكامها ومقاييسها المحدودة الاساس في النقد والموازنة • وذلك حين أعطت للتراكيب الخفافة مكان الديباجة المشرقة ، وللهمسة الحالمة محل الرنة الاخاذة •

فالنفس الانسانية تتأثر بما يلائم مشاعرها وعواطفها قبل تأثرها بما هو خاضع لفحص الفكر وتدقيق الوعي لان عمل هذين يتأخر عن فعل العاطفة والوجدان ، وصلة الشعر بالاخيرين أسبق وأسرع ، ومما تقدم تظهر لنا فكرة في سؤال أو سؤال في فكرة •

لماذا اشتهرت بعض القصائد دون سواها فرددتها الاجيال أكثر مما رددت سواها ؟ •

ولماذا أجمع النقد قديمه وحديثه على رفعة مكان هذه القصائد في عالم الشعر ؟ •

والجواب على هذا السؤال لا يكتفي بان تنسبه الى الاصالة الشعرية بل لابد للناقد من التعرف على مقومات أخرى الى جانب هذه الاصالة لان الاصالة مفترض توافرها في كل شعر رفيع وما أكثره في شعر العرب •

والتعرف على هذه المقومات يوجب علينا دراسة هذه القصائد الخالدة التي رددتها ــ وما زالت ــ الاجيال ، وانها جديرة بان ترن في سمع الاجيال •

وما أحسب أن هناك بأسا لو جعلنا الحديث في هذه القصائد الخالدة من أوائل منظومات العرب ليكون الحكم أشمل والنقد أعم وأوسع •

قال الافوه الاودي وهو من أقدم شعراء الجاهلية :

البيت لا يبتنى الا لـه عمـد ... ولا عماد اذا لـم ترس أوتـاد
فـان تجمـع أوتـاد وأعمـدة ... وساكن بلغوا الامر الذي كادوا
لايصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سـراة اذا جهالهـم سـادوا
تلفى الامور بأهل الرشد ما صلحت ... فـان تولـوا فبالاشرار تنقـاد

هذه الابيات من الشعر الذي رواه النقاد والادباء ، منذ قاله الافوه حتى اليوم ، وهو كما ترى شعر أصيل تتضح اصالته في الفكرة والاسلوب اما الفكرة فهي فكرة التوجيه الاجتماعي الخير الهادف ، واما الاسلوب فهـو اسلوب التسلسل المنطقي في عرض الصورة ، وقربها من ادراك السامع ، في ذلك العصر عصر الخيمة وبيوت الشعر • فالبيت الذي ينشده الناس للسكن لا يرتفع دون عمد ، والعمد لا تثبت دون أن تشدها الحبال الى الاوتاد ، فاذا تيسرت الاعمدة والاوتاد المشدودة ، كمل البيت • ولكن ما جدوى بيت خلا من الساكن ؟ فاذا اجتمع الساكن الى البيت ، بلغ الناس ما ينشدونه من الراحة والاطمئنان •

وهؤلاء الناس لابد لهم الى جانب السكن المريح المطمئن ، من ضوابط تجمعهم على الخير وتحول بينهم وبين الشر ، وأول هذه الضوابط هو التخلص من الفوضى التي تعم مجتمعات ليس فيها قادة مدركون أو المجتمعات التي يقودها جهال مخربون ، ذلك لان الحياة الرشيدة هى التى يوجهها أهل السداد والرشاد فان غابوا عنها ، آلت الى أهل الشر والضر ، لانهم يحلون محل الاخيار ليملأوا الفراغ الذى حدث بغيابهم •

لقد عبرت الابيات عن فكرة اجتماعية صورتها صورة واضحة لاهل ذلك العصر ، فرسمت البيت في لوحة التصور ، وحددت أبعاده وسمت اركانه والتفتت الى السر من وجوده فاشترطت وجود ساكنه ، ثم انتقلت ببراعة فائقة الى تعميم الفكرة الهادفة فعبرت عنهـا تعبيرا درج مدرج الحكمة ، وشخصت معالمها في أثر الفوضى على عدم صلاح المجتمع ، وأشارت الى دور العقلاء والجهال فيه • وشعر اشتملت اصالته على جودة الفكرة وبراعة الاسلوب جدير بأن يعيش كل هذه القرون •

وقال تأبط شرا ، وهو من الشعراء الفرسان في أواسط القرن السادس الميلادى :

اذا المرء لم يحتـل وقد جد جـده ... أضـاع وقاسى أمـره وهـو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا ... به الخطب الا وهو للقصـد مبصر
فذاك قريع الدهـر ما عاش حـول ... اذا سد منـه منخـر جاش منخـر
أقـول للحيـان وقد صفرت لـه ... وطابي، ويومي ضيق الجحر معور(١)
هما خطتـا أمـا أسـار ومنـة ... واما دم ، والقتـل بالحـر أجدر

وعلى الرغم من انفراد البيت الاخير بالذيوع والشهرة من بين الابيات المتقدمة والابيات اللاحقة التي لم تذكر ، فان الابيات جميعها من الشعر

الاصيل ذي المقومات التي أسبغت عليه الخلود • بدأت الابيات بفكرة داعية الى الحيطة في مهمات الامور عند استقامتها خشية من ضياعها وصيرورتها الى الخراب والادبار ، وحكمت لاخي الحزم الذي ألمت به ملمة كان له سابق نظر فيها وتوقع لها ، ثم وصفت هذا الحازم بانه دائم اليقظة اذا اصابه الدهر احتال عليه وتخلص منه بمسلك مرسوم وخطة مهيأة وكانت البراعة ظاهرة في قوله اذا سد منه منخرا جاش منخر فهذا المصراع من البيت حوى تعبيرا يأخذ طريقه الى السمع بيسر وسهولة فكان أحد مقومات التوفيق في التعبير الشعري فاذا أراد الشاعر الانتقال من ناحية من نواحي الفكرة الى ناحية أخرى استحضر أمامه صاحبا له هو (لحيان) وخاطبه في وقت كان الشاعر عسيرا عليه ثقل الحوادث فوصف له النهج الذي يراه في طريـــق الحياة وهو منهج يتلخص في ان الحياة تسير على طريقين متضادين همـا أما الرضى بالذل والاسار واما خوض المعركة حتى نهايتها التي يلوح فيهـا شبح الموت ولكنه شبح هو أحب الى الشاعر من الهوان والاسار ، وهـذا الانسجام في التعبير والتسلسل في عرض الفكرة :

هما خطتا اما أسار ومنة   واما دم والقتل بالحر اجدر

هما من مقومات الشعر الاصيل الذي تردده الاجيال •

وقال الافوه ، وقيل لابن أخته الشنفرى في رثاء احدهما الاخر وقد ترجمها الالمان الى لغتهم ودعوها نشيد الانتقام :

خبـر مـا نابنـا مصمئـل   جل حتى دق فيه الاجـل[2]
بزني الدهر وكان غشوما   بأبي جـاره ما يـذل
ولـه طعمـان أري وشـري   وكـلا الطعمين قد ذاق كـل[3]
يركب الهـول وحيدا ولا يصـــحبه الا اليمـــاني الأفـــل
وفتـو هجـروا ثـم أسـروا   ليلهم حتى اذا انجـاب حلـوا
كـل ماض قد تردى بمـاض   كسنى البـرق اذا مـا يسـل
فأدركنـا الثـأر منهـم ولمـا   ينـج ملحيين الا الاقـل[4]
فاحتسـوا أنفـاس نوم فلمـا   هومـوا رعتهـم فاشـمعلوا[5]
فلئـن فلت هذيـل شـبـاه   لبمـا كـان هـذيلا يفـل
صليت مني هـذيل بخـرق   لا يمـل الشر حتى يملـوا

وهذه القصيدة التي عاشت كل هذه القرون ثم ترجمت بعد كل هذه القرون الى اللغة الالمانية لها من الاصالة ومقومات الشعر ما كفل لها هـذا الخلود •

يبدأ الشاعر بوصف فداحة الخبر الذي اصبحت كل أخبار البلايا ضئيلة بالنسبة له وينتقل الى ظلم الدهر الذي انزل هذه البلية بالشاعر لفقده رجلا جليلا لا يناله الذل ، هذا الرجل الذي هو حلـو مر مجازف

مطعان ، ثم يعرج الى ذكر غارة صحبه فيها على اعداء لهم معهم ثأر أدركوه منهم ، وينتهي الى نفسه فيعرب عن تصميمه على الخصومة حتى يكف عنها اولئك الاعداء • ولكن الشاعر لم يسرد كل هذا الذى قاله سردا عاديا لا رونق فيه ، بل صوره تصويرا فيه اصالة وفيه الوان لا يقدر عليها غير الشاعر المتمكن فلنعد الى المقطوعة ثانية لنقرأ :

ولـــه طعمان أري وشـــري   وكـــلا الطعمين قـد ذاق كـل

والى قوله :

فأحتسوا أنفاس نوم فلما   هوموا رعتهم فاشمعلوا

ثم الى قوله :

صليت مني هذيل بخرق   لا يمل الشر حتى يملوا

تجد في كل بيت منها تعبيرا خاصا وتصويرا مؤثرا لا يتأتى لكل من يريد أن يعبر عن ذات المعاني • وما أبعد الفرق في أن تقول فناموا قليلا فهاجمتهم فثاروا ، وبين أن تقول :

فاحتسوا أنفاس نوم فلما   هوموا رعتهم فاشمعلوا

مما تقدم من نماذج شعرية يعود عهدها الى أوائل عهد الشعر نسنا الاصالة الى جانب المقومات الشعرية التي يصاحب بعضهما البعض دائما ولدى الشاعر المتمكن خاصة ولم نتطرق الى نماذج من عصور أخرى اذ ان ذلك يقتضينا أحاديث أخر ربما نعود اليها في أعداد قادمة •

---

(١) الوطاب ، جمع وطب وهو سقاء اللبن • والمعوز السيء السيرة •

(٢) المصمئل ، المتنفخ غضبا • والمصمئلة الداهية والكارثة •

(٣) الارى ، العسل • والشرى ، الحنظل •

(٤) ملحيين ، من الحيين •

(٥) هوموا ، أمالوا رؤسهم من النعاس • اشمعلوا ، ثاروا وهبوا •

نماذج من الأدب العراقي القديم

الدكتور فيصل الوائلي

لم يقتصر اهتمام العراقيين القدماء على تدوين الاحداث المهمة او وصف الانجازات التى تحققت على يد ملوكهم الذين تعاقبوا على الحكم في شمال العراق وجنوبه او على كتابة العقود التجارية والوثائق الاقتصادية التي كانت من الحوافز المهمة التي دفعت العراقيين القدامى لاختراع الكتابة ، وانما انصب اهتمامهم كذلك على وصف مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم وخلجات قلوبهم شعرا أو نثرا فخلفوا لنا بذلك تراثا أدبيا غنيا في مواضيعه رائعا في أساليبه دقيقا في تعبيراته جميلا في أوصافه وفيه من المميزات والصفات ما يجعل منه أدبا عاليا يتلذذ به كل قارىء ٠

وليس الغرض هنا أن نقدم دراسة عن هذا الادب الجم ، وانما رأينا ان نقدم الى قراء « الاقلام » نماذج منه ليقفوا على ما فيه من جمال ، مبتدئين بأدب الادعية الذى وصل الينا منه الشيء الكثير اذ ان البابليين القدماء تميزوا بالتقوى والورع والتضرع الى الآلهة فنجم عن ذلك عدد كبير من الادعية والترانيم والصلوات ، وسنبدأ بترنيمة موجهة للالهة عشتار الهة الحب والحرب ٠

ترنيمة الى عشتار(١)

النسخة الشعرية :

الحمد للالهة ، اكثر الآلهات رعبا ٠
ليبجل المرء سيدة الشعوب ، أعظم « الاجيجي »(٢)
مجد « عشتار » ، اكثر الآلهات رعبا ٠
ليبجل المرء ملكة النساء ، أعظم « الاجيجي » ٠

انها ألبست بالمسرة والحب ،
انها مليئة بالحيوية والفتنة والشهوانية ٠
عشتار ألبست بالمسرة والحب ٠
انها مليئة بالحيوية والفتنة والشهوانية ٠

هي عذبة الشفتين والحياة في ثغرها ٠
عند ظهورها تكتمل البهجة ٠
انها جليلة ، براقع تلقى على رأسها ٠
قوامها جميل ، عيناها لماعتان ٠

الالهة ــ تتوفر لديها المشورة(٣) ٠
مصير كل شيء في يدها ٠
بنظرتها تتحقق البهجة ٠
قوة ، وجلال ، الالهة الحامية والروح الحارسة ٠

انها تثق ، انها تستجيب للمودة والحنان ٠
والى جانب ذلك ، انها حقا تمتلك وداعة ٠
فلان كان عبدا ، او فتاة غير مفتونة ، او اما فانها تحفظ(ها) ٠
المرء يذهب اليها ، وبين النساء يذكر اسمها ٠

من ــ لعظمتها من يستطيع ان يكون ندا ؟
قوية ، ومبجلة ، ورائعة قراراتها ٠
عشتار ــ لعظمتها من يستطيع أن يكون ندا ؟
قوية ، ومبجلة ورائعة قراراتها ٠

انها مفضلة بين الآلهة ، ومقامها سام ٠
محترمة كلمتها ، انها عالية (؟) عليهم ٠
عشتار بين الآلهة ، عجيب مكانها ٠
محترمة كلمتها ، انها عالية(؟) عليهم ٠

انها ملكتهم ، ويعملون على الدوام على تنفيذ اوامرها ٠
جميعهم ينحنون امامها ٠
انهم يستقبلون نورها قبلها(٤)
حقا النساء والرجال يبجلونها ٠

في مجمعهم كلمتها قوية ، انها سائدة ٠
امام « آنوم » ملكهم هي تؤيدهم تأييدا كاملا ٠
انها مغمورة في الذكاء والفطنة والحكمة ٠
انهما يتشاوران سوية ، هي وربها ٠

حقا انهما يشغلان قاعة العرش سوية ٠
في الصالة الالهية ، مقر البهجة ،
أمامهما تأخذ الآلهة اماكنها ٠
والى نطقهما يوجه انتباهها (أي انتباه الآلهة) ٠
الملك مصطفاهما وحبيب قلبيهما ،
يقدم لهما بجلال قرابينه الطاهرة ٠
آمي – ديتانا ، كقربان طاهر من يديه ،
يجلب امامهما ثيرانا وغزلانا سمينة ٠

من «آنوم» قرينها ، كانت مسرورة ، لتطلب له
حياة باقية طويلة ٠
سنوات حياة عديدة لآمي – ديتانا ٠
قد وهبت ، عشتار قد صممت أن تعطي ٠

بأوامرها قد اخضعت له
مناطق العالم الاربعة عند قدميه ،
ومجموع كل الشعوب ٠
قد صممت على جعلهم عبيدا له ٠

●

---

(١) لقد اعتمدت في هذه الترجمة على كتاب : Prichard علما انه لم يشر النص الى المنطقة التي وجد فيها اللوح . ولقد كتب هذا النص في الفترة الاخيرة من حكم سلالة بابل الاولى حوالى سنة ١٦٠٠ ق٠م٠

(٢) اسم عام لآلهة السماء العظيمة ٠

(٣) هذه ترجمة حرفية الا ان المقصود بأن الالهة من الاهمية بحيث تستشار من قبل الآلهة٠

(٤) اي قبل تجليها ٠

فلسفة اللون في الفن

نوري الراوي

الالوان في العلم ، هي الموجات الضوئية التي تتفاوت أبعادها تفاوت أثر كل واحد منها في شبكية العين ، واحساسها به ٠

والالوان في الفن ، هي قوام العمل الفني وروحه ٠ فالتصوير في تحديد (برادين)(١)هو :«الفن الذي يلهو باللون لهو الموسيقي بالنغم»٠وهذا التعريف الذي يفتقر الى ما يشبه البلورة ، يفسر لنا تلك العملية الغامضة التي يأتيها الفنان حين استخدامه الالوان والخطوط للتعبير عن طاقة نفسية برمز عياني، أو التمثيل لموضوع محدد في الفراغ بشكل مسطح على قطعة قماش٠وهذا العمل هو الذي يؤكد قدرة الفنان على ابداع موضوع ملون، وجمالي ، بينما لا يعرف الناس ، أن هناك فرقا بين رصف ألوان مماثلة للطبيعة ، بشكل يؤثر على حساسية العين ، وبين تلك العملية الفريدة التي يؤديها الفنان لابداع « بديل » أو « مماثل » للطبيعة وليست الطبيعة ذاتها ٠

وهكذا نجد أن الالوان في الفن ، هي ليست ذات الالوان المنثورة في الطبيعة ، وانما هي « بديلها » ٠ وحينما يعمد الفنان الى توزيعها في استواء اللوحة ، ببعدين منظورين ، فانه يحاول ـ بواسطتها تمثيل ما هو «كلي»، كما يحاول ايهام النظر بوجود بعد ثالث : عمق ٠ وبعد زمني رابع ٠

هنا تبرز حقيقة جديدة في البحث عما يجعل الصورة ٠٠ اللوحة الفنية ، مبدعة ، متفردة الخلق ، أو منسوخة عن الطبيعة بشكل بليد خاو من طاقة الفنان وروحه المتيقظة ٠ وهنا أيضا ، يتجلى دور المصور الناسخ في فصل اللون عن النور ، ودور الفنان المبدع في توحيدهما ٠ فالمصور ، يقوم «بتصوير» الالوان ، بينما يحاول الفنان أن « يجعل من ملونته نموذجا اكثر منها واسطة ٠٠ نموذجا للعمل الانساني الذي ينزع اللون بصعوبة، عن الشيء الذي ربطه به الادراك التصوري ٠٠ وعلى الفنان في هذه الحالة، الا يعيد ربطه من جديد ، بل عليه أن يستمر في الجهد التحريري الذي كانت الملونة ، ثمرته الاولى ٠ عليه أن يكمل أنسنة اللون ، أن يعتمده

واسطة لتمثيل الموضوع بصورة مغايرة لصورته في العين »(٢) وعلى ضوء ما تقدم ، تكون روءية صورة فنية بعين ناظر عادي ، قريبة جدا من نظرةذلك المصور الهاوي الذي وضع على قطعة القماش ألوان الاشياء، باعتبارها «صفاتا» وليست مواضع متغيرة ، للظل والضوء ، خاضعة في تغيرها لاسباب غريبة عن الاشياء الملونة ذاتها ــ كما يحسها الفنان ويوءديها مفرغة في حدود الشكل المرئي • وفي هذه الحالة ، لا تعود روءية اللوحة الفنية مجرداثارة حسية تنعكس في شبكية العين الى روءية مصورة ، بل عملا باطنيا يستحيل في النهاية ، الى ادراك عقلي هانيء ، يفرد في أعماق النفس اغرودة الاغتباط والنشوة • وهذا الشعور ، هو أقصى ما تصل اليه النفس البشرية من رضى وسعادة •

لقد وقع العلماء ــ فيما هم يبحثون عن تأثيرات اللون المتبادلة في عالم الحساسية ــ على عدد من الحقائق التي تمثل استجابات النفس البشرية للالوان • واستلهاما للقاعدة القائلة بتتابع « الاحساس الذي ينتظر احساسا اخر يكمله » وتمادي هذه العملية في حلقة مفرغة ، نجد أن تلك الظاهرة البارزة لتتابع لونين متكاملين وتبادلهما ابتداء من انطباع شبكي قوي ، يبرز بصورة أكيدة ــ فيما لو ثبتنا النظر تحت ضوء شديد ، على لون معين ــ ان ادراكنا يلمس نوعا من التبادل • فاذا نظرنا الى سطح أحمر « مثلا » ، وجدنا أن اللون الاخضر « الذاتي » يظهر بعد ذلك ، ثم يليه بعد مدة وجيزة لون أحمر يتناوب في حركة « نواسية » لون أخضر •• ويظل هذا التغير المتتابع مستمرا حتى يدخل عنصر فيزيائي جديد يقف دون استمرار تلك الذبذبات الى ما لا نهاية • وهذا العنصر هو « التعب » الذي يخضع له عضو متعلق بالكائن الحي هو : « العين » • وحينئذ ينشأ تأثير آخر يتمثل في نقصان الحساسية تجاه ذلك اللون الذي كان في بادىء الامر مثيرا للذة أو الرغبة • وعند هذه النقطة ، يبدأ شعورنا الملح بضرورة التنويع كي نعيد الحياة الى حساسيتنا التي أرهقتها آلية الذبذبة اللونية الثنائية ، ونصل في النهاية الى النقطة الحرجة التي ينفرط فيها طيف الالوان الشمسي ، لتنسحب غلالاته عن عالم روءية جديد ، ينهل منه الفنان ما شاء له هواه أن ينهل • ولهذا السبب ، يكون الفنان اكثر استجابة لدواعي التنويع بما جبلت عليه نفسه من حساسية مفرطة تتناسب رهافتها طرديا مع شهرته كملون مبدع •

ان استحالة الفصل بين اللون والحقيقة الموضوعية التي نرمز لها بـ (المادة) ، يوءكد لنا أن الرمز الذي يحمله اللون ، يشير الى معنى • أي ان المادة ترتقي في عملية الخلق الفني الى مرتبة عالية من الاستحالة ، لانها تتحول من شكل مرئي الى معنى ، الى عنصر جمالي بحت ، من ذرات ذات حجوم دقيقة غير مرئية ، الى احساس مجرد ، يثير في النفس البهجة والغبطة • وبهذا يتم تفسير تلك العملية المعقدة التي تسقط بها الاشعة

الضوئية على جسم معين ، لترتد الى العين وهي مترجمة الى الوان ذلك الجسم المنظور ٠

ان جمالية الرمز الفني ، مستمدة في الحقيقة ، من تلك المادة التي يصاغ بها ٠٠ من اللون ، باعتباره الحقيقة التي تفسر الشكل لعين الناظر٠ أما عملية الايهام البصري بالابعاد[٣] ، فتأتي في المرحلة الثانية لاكتساب الشكل منظوره الكامل في الطبيعة ، وهي اعادة بناء للعالم المنظور ، كما يراه الفنان من زاويته الخاصة ، أو كما هو متصور في ذهنه ٠ فاذا تم هذا التفسير بشكل محاكاة للظواهر اللونية في الطبيعة ، لم يعد هناك من مكان لابداع الفنان الذى هو انعكاس لا شعورى للون في ذاته ، ولكان ما يصوره نقلا علميا يخلو من العمق التعبيرى الذى يطمح الفنان لتحقيقه ٠

* * *

لقد حولت الانطباعية عملية « الرسم بواسطة الدماغ »[٤] الى عملية تسجيل ضوئي عبر الاحساس المتيقظ اعلى درجات اليقظة ، المتلهف لالتقاط الموجات الضوئية ، وترجمتها الى لونية تحليلية ، فيها من العلم قدر ما فيها من الالهام الوجداني ، المسربل بشعور الغبطة الصوفية ٠ ولاول مرة في تاريخ الفن ، تأخذ انوار الطبيعة ٠٠ الابعاد الفضائية المشحونة بالذرات ، مكانها بصورة رئيسة في اللوحات الفنية ، مهملة مادة الشكل اهمالا كليا ، متغاضية عما يكمن فيها من قوة ديناميه تستند على العلاقات الاولية للمادة٠ وهكذا وجدنا أن الانطباعية بدأت تصب اهتمامها على تسجيل اللمحة الزمنية، قبل أن تفوت ، وهي مغرقة بالضوء ٠٠ اللون ٠٠ « الشخصية الرئيسة في الصورة »[٥] : ومن يومئذ ، توقف البحث عن المادة ، ليبدأ البحث عن الومضة العابرة ، المتزلقة على سطوح المرئيات ٠ ولم يعد للشكل من قيمة بذاته ، بل بما يعكسه من الوان هي في جوهرها المزيج القوسي للطيف الشمسي الذى كشف عنه ووضع قواعده العلمية : هلمهولتز ، وشيفرول ، ونيوتن ، وورود ، من العلماء ٠ واهتم به ــ قبل الانطباعيين ــ فيرونيز ، وكويا ، وديلاكروا ، من الفنانين ٠ غير أن وضع فن التصوير في هذا المفترق التاريخي ، أعطى للمبادىء الجديدة قوة الزمت الاجيال التالية بأن تؤمن ، وهي في كامل وعيها بالصورة ، أن ما تنظره العين هو اللون الذى يسبح في عالمه النوراني مشهد الطبيعة ، وليس كثافته أو حجمه أو حدوده المادية ٠ وان ما احرزه الاولون من قيم نظرية تتلخص في ايهام النظر ــ عن طريق اللون ــ بوجود بعد ثالث ، ما هو الا الوهم بذاته ! ٠ وهذا ما قاد الفن الى البحث عما يحقق ذلك البعد فيما تلا الانطباعية من مدارس ومذاهب واتجاهات فنية معقدة ، متشابكة الجذور ٠

حينما انعطف الفن في مطلع هذا القرن لتصوير الحقيقة المنظورة عن طريق تجميع البلورات المنشورية ، وتفكيك الشكل الى مكعبات واسطوانات ومخاريط ، كان هذا ايذانا بأفول دور الالوان من مسرح النظر ٠ ولقد كان

هذا التحول ، يعكس روح التمرد على « الحديثة » التي وصلت اليهما الانطباعية باعتبارها آخر مرحلة من مراحل التصوير الكلاسيكي ، وبانتهاء دورها الذي لعبته في شق الطريق أمام مدارس الفن الحديث برمتها ، وقفت عند حدها التاريخي لتنشأ بعدها مذاهب وتيارات أخرى اكثر تصديا للحقيقة ، وأعمق اغوارا في نظرها الى العالم • وهكذا كان اللون الخارق الحدة الذى جاء به «فان جوخ» نبي التعبيريين ، ايذانا ببزوغ فجر الالوان الضارية، ذات الدفق الوحشي، والغنائية المتفجرة أسى ولوعة• فلقد استعاض «فان جوخ» عن ذلك البعد الوهمي بـ (البعد الذاتى) فيما حققه من تعبير انفعالى ثائر لم تكن مادته المطر أو الغيوم ، أو الاشعة ــ وهى مواد عاكسة للضوء ــ بل كانت جحيم الالام الذى تستعر النفس بضرامه وهي في تساميها لتحقيق صفاء مستحيل !•

هنا يجدر بنا أن نلتفت الى الماضي قليلا ، لنجد اسماء عظماءالملونين ، رمبراندت ، وروبنز ، وتيسيانو ، تلتمع فى ظلمة المتاحف ، كما تلتمع النجوم في دجنة الليل البهيم •

لقد اعتمد رمبراندت نور الكوة الساقط بعنف على يد معروقة ، أو وجه كثير الغضون يحير في أديمه نور هو نور الشمس ، وهو نور الشمعة أو مصباح الزيت في آن واحد(٦) ، فحقق بذلك ، ليس اكتمال القاعدة الكلاسيكية لمنظور الالوان ، بل رسوخ البناء الملحمي لعالم الانوار والالوان المنبجسة من حلكة الظلام • وهذا ما اطلق عليه العلماء فيما بعد ب (التضاد النورانى) الذى لم يسبق لفنان قبل رمبراندت أن حققه بمثل ذلك الاعجاز•

ومن رمبراندت الاتباعي الثائر على الاتباعية ، في جميع ما صب على اجساد شخصياته من أنوار تغاير مساقطها في قواعد المنظور ، وبما تركه في جرأته الواثقة الخشنة من نغمات لونية عنيفة التأثير ، الى كونستابل وتيرنر اللذين استخدما الالوان المتألقة فى رسم مناظر الطبيعة •• الى تطبيقات ديلاكروا الاختيارية المنفصلة عن الواقع •• مر الفن بكثير من التحولات التي لم تتناول مادة العمل الفنى حسب ، بل تناولت طريقة استعمالها في سبيل بلوغ أقصى قوة تعبيرية ممكنة • وهذا ما حدا بملونى الانطباعية الاول الى الاستغراق فى تأمل انوار الطبيعة استغراقا صوفيا ، بعد أن تناول العلم الجانب المادى من تكوين اللون ، وبدأ يضع له التفسيرات، والتحليلات فى سبيل الوصول الى الجوهر الخفى من مكنوناته • وهكذا بدأ الفنانون ، يبحثون ــ بطريق الحس المجرد ، والمشاهدة العيانية ، عن تراجم مثيرة لضوء الطبيعة وهو فى تغيره الدائم عبر ساعات النهار • لقد كان (مونيه) واحدا من اولئك الذين وهبوا أنفسهم للكشف عن أسرار الضوء، والنفاذ الى اعماق اللون ، ولم يكن يدري وهو يجول فى مركبه الذى اتخذه مرسما يجرى في السين على هواه ، أن ما كان يفعله يومذاك ، هو بالذات ، تجريد الاشكال من لبها الحقيقى للتسامى باللون الى مرتبة الموسيقى المطلقة

والشعر الحر . ولكنه كان مأخوذا بسحر تلك الفتوحات التى جاء بها عصر ينتفض ويزمجر فى وجه كل الاساليب الشكلية التى انحدرت من العصور السالفة ، غير آبه بما سيؤول اليه ، تصوير حزمة من الحصيد يوما بطوله، أو ما سيفيد منه تسجيل واجهة كاتدرائية قديمة ، وهى تستحم بأضواء النهار المتغيرة الراقصة بين الاصفر الذهبى والوردى المشرب بألوان ما بعد الغروب البنفسجية !.

ولعل أول من فتح الطريق أمام الفنانين الانطباعيين لاستلهام الطبيعة بالصدوع لندائها الحبيب ، هم جماعة «الباربيزون» الذين خرجوا من مراسمهم ذات الاضواء الشاحبة الى حدائق الباربيزون فى ضواحى باريس، ليرسموا تحت دفق الشعاع السنى المنهل من شمس ربيعية سخية ، وبذلك حققوا انتصارهم على التقليدية بتسجيلهم مباشرة مشاهد الطبيعة ، بألوانها الغنية الثرة ، وجوها خالص النقاء .

مصادر البحث

١ ـ حول الفن الحديث ـ تأليف ـ جورج فلانجان ترجمة ـ كمال الملاخ
٢ ـ تأملات فى الفن ـ بول فاليرى
٣ ـ اتجاهات الفنون التشكيلية المعاصرة ـ عفيف بهنسى
٤ ـ Modern French Painting
٥ ـ Arts and the Mon. (an itroduction to aesthetics-Iruin Edman
(استاذ الفلسفة فى جامعة كولومبيا)

---

(١) واحد من كبار اساتذة علم النفس في فرنسا .

(٢) براديزا ـ المصدر ذاته .

(٣) اكتشف الاغريق المنظور والابعاد في القرن الخامس عشر ق.م. واستخدم فنانو عصر النهضة الالوان لابراز الصورة كما هى فى الواقع ذات أبعاد وأعماق .

(٤) ليوناردو دافنشى .

(٥) عندما سئل الفنان مانيه عن أهم شخصية في لوحة له تضم عددا من الاشخاص قال : « ان أهم شخصية فى اللوحة هو الضوء .»

(٦) نهج رامبراندت في استخدام الظل والضوء الخاضعين للاضواء الاصطناعية ، نهجا جديدا عرف فيما بعد بـ « الغامق والفاتح » .

اقصوصة اندلسية

التمر دكل

محمد جواد علوش

كان الجو جميلا ؛ فالسماء صافية زرقاء ، والهواء رقيق بليل ، وقد جنحت الغزالة للمغيب ، تجرر أذيالها وتجمع أشعتها الذهبية لتختفي وراء الافق الغربي ·

وقد اجتمع القوم وسط حديقة غناء ، بساطها سندسي أخضر ، وأشجارها كثيرة نضرة ، تزهو فيها ثمارها اليانعة ، وتفوح روائح أزهارها الرائعة ، وبدت تلك التماثيل المرمرية الجميلة التي أبدع الفنانون صنعها ، كأنها دبت فيها الحياة · وتدفق الماء النمير من النافورات البديعة فملأ الاحواض المزخرفة الملونة ··· ولكن القوم لم يستطيعوا أن يمدوا أنظارهم الى الافق البعيد للتمتع بهذه المحاسن ، لانهم كانوا يطيلون النظر الى سيد القصر ، ورب الصولجان ، فان هيبته تطغى في الحفل ، وجلاله يغطى المجلس ، وفوق هذا كله فهو يدير دفة الحديث ببراعة ، ويقود زمام التفكير فيه بمهارة ·· وغدا الجميع متعلقين به ، أذهانهم متجهة نحوه ، وأبصارهم شاخصة اليه·· وتحدث عن شعر الوصف ، والشعراء الذين أبدعوا فيه ، وما كاد حديثهم يصل الى وصف الفاكهة ، حتى انتفض المنصور كمن تذكر شيئا ··· صفق بيديه فسارع اليه أحد الحجاب ، ووقف أمامه ينتظر منه الامر ، وقال المنصور :

أحضروا مائدة الفاكهة هنا ، فاني أرغب في أن نتمتع بها في هذا الهواء الطلق ، وبين أحضان الطبيعة الخلابة ··· وما هي الا لحظات حتى كان الخدم قد أكملوا اعداد مائدة حافلة بألوان الفاكهة الشهية ·· ولم يك أبو عامر قد أنهى حديثه بعد ، فأقبل على المائدة يحف به ندماؤه وجاس خلال أطباقها معجبا بثمرها ، طالبا ممن حوله أن يقرأوا خير ما سمعوا في وصفها ، مشجعا الشعراء منهم على الارتجال ، معجبا بما تجود به قرائحهم ·· ووقع نظره على طبق فيه (تمر) يتلألأ كأنه الياقوت ، فلفت اليه الانظار قائلا :

ليصب كل واحد منكم نصيبه من هذا التمر ، فما وجدت في مائدتنا هذه الذ منه طعما ولا أشهى مذاقا ، ولا أشد حلاوة ٠٠ ! وامتدت أيدى الحاضرين الى طبق التمر تتسابق اليه وهى تكاد تتدافع يقودها الى ذلك تلبية دعوة المنصور ، وتحدوها شهرته التى طبقت آفاق جزيرتهم ، ويحثها حب هذه الفاكهة الغريبة التى سمعوا بها كثيرا ولم يذوقوا طعمها من قبل٠ وقال واحد منهم وقد ملأ التمر نفسه نشوة ، وفمه حلاوة : رحم الله من نقل هذا التمر من المشرق الينا مع احتفاظه بطراوته وحلاوته ، وبهجته وطلاوته ٠ وأراد المنصور أن يشحذ قرائحهم ويهز نفوسهم ، ويحرك أوتار قلوبهم ويثير كوامن مواهبهم ، ليستمع الى أقوالهم ويتمتع بما يبدعون ، فقال :

من الذى يستطيع أن يتحفنا بوصف التمر ويسجل لنا نكهته ولذته ٠٠ وقبل أن يغوصوا في لجج الخيال ويسبحوا فى فيض الاحاسيس ، وقبل أن يدخلوا وادى عبقر ليستعينوا بما فيه من شياطين الشعر ووحى الابداع ، قال المنصور :

رحم الله (صقر قريش) فقد أبدع أى ابداع حين خاطب شجرة التمر يوم وجدها وحيدة فى قصر الرصافة، شامخة في السماء، متعالية بوحدانيتها فى هذا الافق ، فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن موطن النخل
فقلت : شبيهى في التغرب والنوى ... وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

كان المنصور ينشد الشعر انشادا ، ويهتز جسمه اهتزازا ، اعجابا بالشعر وتأثرا ، وأردف بعد ذلك يقول : الشجر من المشرق ، والشعر من المشرق ، والشاعر من المشرق ، أفنلام اذا أعجبنا بكل شرقى وقربناه ورفعناه ، وقدمناه واتبعناه !؟

وتعالت أصوات من المجلس تؤيد المنصور ، وترى رأيه ، وتذهب مذهبه ، وتبدى اعجابها بالمشرق وبكل ما يأتي منه ٠٠ واغتنم المنصور هذه الفرصة ، واقتنص هذه المناسبة ، فقال وفى صوته قليل من الحماس ،وفى نغمته شيء من الانتصار ، وفى نبرته بعض الابتهاج :

أبقي بينكم واحد يعجب من تقديرنا لهذا الرجل القادم الينا من المشرق ، ويلوم على تقديمنا اياه ، ويغضب لاعجابنا بأدبه ؟

وكانت مفاجأة عظيمة لم يكن القوم يتوقعونها ، أثرت فى نفوسهم فلم يعد بينهم من يستطيع المناقشة ، أو يقوى على الرد ، أو يطيق المعارضة ، فخيم عليهم الصمت وساد بينهم السكون ، غير أن واحدا منهم ظل يتململ فى مكانه يكابد ألما ويخفى غيظا ، ويحاول أن يعارض ما ذهب اليه المنصور لكن هيبة المنصور حالت دون ذلك ، وظل يفكر ويطيل التفكير باحثا عن

بداية حسنة يبدأ بها هجومه ، انه الحسين بن العريف عدو (صاعد) اللدود ، وغريمه في كل موقف ، وخصمه في كل نزاع ... وأنعم الله عليه بفاتحة حسنة فسأل المنصور قائلا :

أي قادم تعني يا مولاي ؟ أصاعدا تريد أم غيره ؟

وأجاب المنصور : انك ، لا شك ، تعلم أنني لا اقدم على صاعد سواه ، ولا يعجبني أدب قبل أدبه .. وهو عنوان لما وصل الينا من المشرق من مفاخر ، ورمز المواهب الكثيرة التي بعثت بها الينا عبقرية آبائنا العرب من هناك .

ووجد ابن العريف أنه لن يستطيع أن يزحزح جبل الاعجاب هذا مهما قويت هجماته .. وبدأ يجرب حظه في سبيل آخر ، باحثا عن سلاح جديد . أما المنصور فقال مؤيدا ما ذهب اليه :

ألم يأتك نبأ آخر ما وصل اليه ابداع صاعد حين وصف قطرة خمرة متحيرة في فم الابريق اذ قال :

وقهوة في فم الابريق صافية كدمع مفجوعة بالالف مغبار
كأن ابريقنا والراح في فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

فقفز ابن العريف كالديك حين ينزو ، منتصرا على خصمه .. وقال وفي صوته كثير من الدهشة والعجب :

حاشاك يا مولاي أن تظن أن صاعدا لم يسبق لهذا المعنى ، فان الثعالبي روى لابي البركات العلوي هذا البيت :

كأنما ابريقنا طائر يحمل ياقوتا بمنقار

وترددت أصوات الاعجاب ، وتتابعت عبارات الاستحسان ، وانتشرت في المجلس أقوال تؤيد ما ذهب اليه (ابن العريف) وتعترف بأن صاعدا لابد مستفيد من هذا الشعر ، مغترف من معينه ، وقال قائل منهم :

لاشك – يا مولاي – ان هذا الرجل جاء بصور شعرية كثيرة معه ، لمن عاصره أو سبقه من شعراء المشرق ، يستعين بها فيما ينشده لنا من شعر ، وهو يظن أن سرقاته لا تبين لنا ، وأن أخذه ينطلي علينا .

وتشجع (ابن العريف) ، فقد وجد من يقف الى جانبه ، وتغير الجو الذي كان لا يستطيع أن يتكلم فيه بصراحة حول صاعد ، وغدا بمقدوره أن يقول ما يريد .. فانبرى يقول :

اننا لا نشك – يا مولاي – في أنه رجل موهوب ، ولا نطعن في أدبه ، الا اننا نقول انه كثير المزاح ، كثير الكذب ، كثير الاختلاق ، ولا يمكن أن نسكت على هذا وعلينا أن نفضحه ، وقد اختبرنا الكثير من الكتب المطولة في اللغة ، وتفحصنا الاسفار العظيمة في الادب ، فوجدنا صدق ما أتهم به، وتأكد لدينا كل ما دار حوله ، وقد تكشف لك بعض هذا في ما أجريت

له من امتحانات .. ومع فشله فى تلك الامتحانات كافة ، فما تزال تتغاضى عن عيوبه ، وتقر له بادعاءاته • وليس أمامنا الا ان ندعوك الى اختباره اليوم فى موضوع يسير ، لتعرف كذبه واختلاقه • وتململ المنصور فى مجلسه ، وبدأ يتكلم على مضض ، وكأنه يخرج الكلام مجبرا ، ويتحدث على كره منه:

اذا كنتم تصرون على ذلك فلا مانع لدي ، ولكن في أي شيء ستجرون الاختبار ؟ وماذا سيكون الموضوع ؟ ومن سيضع السوءال ؟

وقال ابن العريف بصوت تشوبه رنة تنم عن الفرح والابتهاج ،وتبدى السرور والانتصار : خير البر عــاجله ، يا مولاى ، وعلينــا أن نعدله الآن سوءالا ثم ترسل من يحضره لتختبره بنفسك •

ورد المنصور عليه يقول : لا حاجة بنــا لارســال من يحضره ، فانه يحضر بعد قليل لا محالة ، وقال واحد ممن يخفي لصاعد الكره والحسد : ما دام الامر كذلك ـــ يا مولاى ـــ فلتأمر بالتعجيل فى الاتفاق على الاسئلة•

وانبرى آخر ممن يناصرون (ابن العريف) ويرون رأيه فى (صاعد) يقول : لنخترع كلمة لا اصل لها ، فاذا حضر صاعد سألناه عن معناها • ولم يعجب المنصور ذلك فقال : هذا ليس بشيء ، ولتبحثوا عن موضــوع آخــر •

ولم يوءثر قول المنصور في نفوس الحــاضرين ، اذ كانت تلك الفكرة قد سرت بينهم سريان النار فى الهشيم ، وأبدى معظمهم رضاه عنها واعجابه بها ، بل لقد بدأ معظمهم يفكر في الكلمة التى سيســأل صاعد عن معناها ، فلم يجد المنصور بدا من النزول عند رغبتهم والسير معهــم • وقــال ابن العريف :

ماذا يقول مولانا أبو عامر فى أن تكون الكلمة شرقية نشتقها من هذه الفاكهة التي أكلناها اليوم ولا تزال أفواهنا معجبة بحلاوتها وطعمها ؟

وأبدى المنصور رضاه بالفكرة ، واعجابه بالمناسبة فقال : ما دامت هذه الفاكهة هى التى جرتنا الى الحديث عن ابى العلاء ، وأدت بنا الى امتحانه فليكن فيها السوءال •

وانطلقت أخيلة الحاضرين تبحث عن الكلمة الموعودة ، كل يتمنى أن تفوز الكلمة التى يشتقها بقصب السبق فيختارها المنصور للامتحان .. وقلبوا الاحرف الثلاثة : « التاء والميم والراء » على شتى الوجوه ، تقديمــا وتأخيرا ، قلبا وتحويرا ، تصحيفا وتحريفا .. ولكنهم لم يبتكروا مــا يستحق الفوز وما يستأهل أن يختاره المنصور • وقطع ابن أبى عامر سلسلة تفكيرهم ، وخيب كبار آمالهم اذ قال بعد أن وجد ما يقول : لقد كنت قبل قليل أحث كل واحد منكم على اكل هذه الفاكهة ، فماذا كنت أقول ؟

فرد واحد ممن يتميزون بالالمعية وقوة الذاكرة :

كنت تقول : «كل التمر » •

وأدهشت فراسته المنصور فقال : بورك فيك من المعيفطن، ثم أردف :

فاذا قلبت العبارة فماذا تقول ؟ فقال على عجل كأنه يريد أن يؤكد ألمعيته ويثبت فطنته :

« التمر كل »

فقال المنصور مع شيء من الاعجاب : « أحسنت ! هذا ما أردت . ولتكن هذه العبارة كلمة واحدة هي : (التمركل) ».

وحفظ الجميع هذه الكلمة العزيزة الغالية المهمة . وتركوها بعد هنيهة ، وانشغلوا بأحاديث الادب والادباء والعلم والعلماء . ولم تكدتمضي حقبة من الزمن قصيرة حتى جاء الحاجب يعلن عن قادم جديد . وارهفت الآذان ، واتجهت المسامع اليه ، كل يريد أن يعرف من القادم ، لعله الرجل المطلوب .. أجل ، فقد قال الحاجب : « صاعد يطلب الاذن بالدخول ، يا مولاى » وأسرع المنصور يأذن له بالدخول .

ومرت لحظات كلمح البصر كانت دهرا على نفوس من في المجلس المشوقين الى طلعته المتشوفين الى رؤيته . ودخل بعدها صاعد يبدو على محياه الفرح والمرح .. فسلم على الجميع وحيا كل من في المجلس ، ورحب به المنصور خير ترحيب .. واستقبله أحسن استقبال ، ولم يكد يستقر في مجلسه حتى بدأ المنصور يسائله في بعض شؤون الادب ويناقشه في شيء من مفردات لغة العرب . ولم يكد يجد الفرصة مواتية حتى بادره يقول :

قل لي بربك يا أبا العلاء .

فرد عليه صاعد وهو مصغ اليه بكل جوارحه : لبيك يا مولانا . أنا رهن اشارتك . فسأله : ما « التمر كل » في كلام العرب ؟

فأجابه صاعد دون أن يتردد أو يتلكأ ، ومن غير توقف أو تلعثم ، وكأنه يقرأ في كتاب من كتب اللغة ، أو كأنه قد أعد الجواب من قبل :

« يقال : تمر كل الرجل يتمر كل تمر كلا اذا التف بكسائه » .

ودهش المنصور ولم يدر ماذا يقول . ودهش الحاضرون جميعا ، وفغرت أفواههم وفقدوا السيطرة على نفوسهم لحظات ثم عاد المنصور يقول بعد أن نفد صبره ولم يطق السكوت : أهكذا تختلق الاجابة يا أبا العلاء ؟ انما ركبت لك هذه الكلمة من التمر والاكل ، فمن أين جئت بهذا الاشتقاق ؟ وكيف توصلت الى هذا المعنى ؟

وضج الحاضرون بالضحك والسخرية ، ولكن صاعدا أصر على ما ادعى واندفع يقول : ليكن الامر كما تقول يا مولاى ، فقد وافق ذلك أمرا كان. وهذا موجود في لغة العرب .

واندفع ابن العريف يقول وفي صوته كثير من الشماتة والتشفي . ألم أقل لك ، يا مولاى ، انه بارع في الكذب والانتحال ؟

الصلات بين العباسيين والفرنك

سعيد الديوه جي

في سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) قوضت الجيوش المسودة دعائم الدولـــة الاموية ، وخلفتها الدولة العباسية ، وكانت أعظم دولة في الشرق ·

ورث العباسيون عن الامويين الحروب المستمرة مـــع البيزنطيين ، الذين كانوا ينافسونهم في الشرق ، وصارت لهم غزوات متتالية في كل سنة تسمى بالصوائف · وكانت لهم الثغور المحكمة المشحونة بالجيوش والعدد ، للدفاع عن بلاد الاسلام · ويرابط في الثغور المتطوعون ، وبعضهم ممن اوقفوا انفسهم للدفاع عن البلاد الاسلامية ، خاصة وان المرابطة في هذه الثغور من أهم الامور التي تقرب العبد من الله تعالى ·

وصار للثغور والعواصم ادارة مستقلة ، يتولاها أهم القادة الذين لهم اطلاع واسع في الحرب · واستمرت الحروب بين العباسيين والروم ، فلكل خليفة غزوات وزحوف الى بلاد الاناضول ، ولا ننسى ما فعله هارون الرشيد بمدينة هرقلة ، وزحف المعتصم على عمورية ، وفتكه بالروم الخ ·

أما في الغرب فبعد قيام دولة العباسيين بسنتين (٧٥٢م) ثار ببين القصير ، حاجب الملك شلدريك الميرفنجي بوجه الدولة ، لما شاهده مـــن ضعفها ، واستفتى البابا فيمن يجب أن يتولى الملك : هل يكون حامل لقب بلا قوة ؟ أو صاحب قوة بلا لقب ؟

وكان البابا يرغب بقيام دولة قوية في الغرب ، تكون سندا له في مقاومة القسطنطينية التي لا تعترف به · فأجابه البابا : ان صاحب القوة هو الذي يستحق اللقب والملك ، وهكذا انتقل الملك في فرنسا الى الاســرة الكارولوفنجية ، ولم تكن علاقتها مع القسطنطينية حسنة ، وحاول ببين أن يسوي العلاقة بينهما · ولكن مطاليب البابا — الاعتراف بكنيسته البابوية ، واحترام الصور الدينية — الخ · عرقلت الامر وباء بالفشل ·

أما في الاندلس فقد فر عبدالرحمن الداخل اليها ، واسس فيها الدولة الاموية ، وقضى على المنازعات الداخلية ، وصار هو رئيس دولة مرهوبة الجانب ·

وكان المنصور يخشى خطر الدولة الاموية التي لم تعترف بخلافته ، ويرى من الضروري القضاء عليها وارجاعها تحت ظل الخلافة العباسية ٠

واخذ يحرك بعض الزعماء الذين أخضعهم الداخل لحكمه ، وارسل جيشا بقيادة والي القيروان « العلاء بن المغيث اليحصبي » ليغزو شاطيء الاندلس ويساعد بعض الثائرين من أصحاب المطامع ٠ وكان عبدالرحمن يترقب هذا بحيطة وحذر ٠ ولما نزل الجيش في باجة سنة ٧٦٣م انقض عليهم وقتل منهم ما يزيد على سبعة آلاف رجل وارسل رؤوس كثيرين منهم الى مكة أيام الحج ٠ ولما علم المنصور بهذا بهت ودخله الفزع وقال « الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر » ولكنه مع هذا كان يترقب الفرصة السانحة للقضاء عليه ٠

ولجأ بعض الثوار الذين نجوا من المذبحة الى شارلمان ، واتصلوا به سنة ٧٧٧م وحملوا الرايات المسودة ، وأعلنوا الطاعة للخليفة العباسي ، وحرضوا شارلمان على الانتقام من عبدالرحمن ٠

وكان شارلمان بن ببين أعظم امبراطور في الغرب ، يود التقرب من العباسيين على ماكان عليه ابوه ، ويريد القضاء على الامويين الذين كان يخشى ان يفعلوا معه ما فعلوه مع ابيه ببين القصير ، وما قام به عرب الاندلس أيام شارل مارتل ، ووجودهم خطر يهدد امبراطوريته ٠

وفي سنة ٧٧٨م عبر الى اسبانيا يؤازره بعض الثوار فارتد خائبا ٠

وعلى هذا فان الدول الكبيرة في الشرق والغرب انقسمت الى قسمين :

١ ـ الدولة العباسية في الشرق : وهي أعظم دولة والعداوة مستحكمة بينها وبين البيزنطيين ٠

٢ ـ امبراطورية الفرنك : وهي أعظم دولة في الغرب ولم تكن علاقتها حسنة مع الدولة البيزنطية ٠

٣ ـ الاندلس في اسبانيا انسلخت عن الخلافة السياسية وصارت من الدول التي يحسب لها ، ويطمع بها كل من العباسيين والفرنك ٠

٤ ـ الدولة البيزنطية وعلاقتها غير حسنة مع العباسيين والفرنك ٠

وكانت الدولة العباسية متفوقة بقوتها وسعتها وحضارتها لذا نرى البيزنطيين والفرنك يحاولون التقرب اليها ٠ ولكن مجاورتها للبيزنطيين ، وتصادم المصالح على الحدود ، كان يباعد بينها ، ويضرم نار الحروب ، ولذا فقد كانت كفة الفرنك راجحة في التقرب الى العباسيين ٠

المنصور وببين

في سنة (٧٦٥م) ارسل ملك الفرنك ببين القصير وفدا الى بلاط الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور معهم هدايا ثمينة ٠ ولا تذكر المصادر شيئا عن مهمة هذا الوفد ٠ ومهما يكن من أمر فانه كان فاتحة عهد جديد بين الفرنك والعباسيين ٠

وكان وصول الوفد بعد الحملة التي شنها المنصور على الاندلس ، ولربما اراد ببين أن يشعر المنصور بقوته ، وانه يعاضده فيما يريده ، خاصة وان ببين كان يحذر من قيام عبدالرحمن في الاندلس ، كما كان يحذر من البيزنطيين اعداء المنصور .

وعاد الوفد بعد ثلاث سنوات يصحبه رسل من الخليفة ابي جعفر المنصور يحملون هدايا نفيسة الى ببين القصير .

استقبل الفرنك رسل الخليفة بحفاوة واكرام وقضى الوفد فصل الشتاء في مدينة (متز Metz) وضرب لهم الملك ببين القصير موعدا لمقابلته في ١٠ نيسان ٧٦٨م في مدينة (سيلس Selles) وفيها جرت مراسيم الزيارة وقدموا للملك الهدايا التى كانوا يحملونها اليه فسر بها كثيرا .

وبعد انتهاء مهمة الوفد ارسل معهم وفدا اوصلهم الى مرسيليا ، فاقلتهم سفينة الى بلاد المشرق ، ومهمة هذا الوفد وما دار بينه وبين الملك ببين لم يزل في طي الكتمان . على اننا لا نشك ان الوفود التي ارسلت من الجانبين كان باعثها الحروب التي كانت تدور بين البيزنطيين والعباسيين من جهة ، وعدم ارتياح العباسيين من قيام الدولة الاموية من جهة أخرى ، وانها أدت الى صلات ودية بين العباسيين والفرنك الذين كانوا يحذرون ممن يحذر منهم العباسيون .

الرشيد وشارلمان

خلف شرلمان الكبير ببين القصير على عرش فرنسا ، وعلاقته مع القسطنطينية غير حسنة على ما كانت عليه في عهد والده . واراد البابا ان يستفيد من قوة شرلمان ، فتوجه سنة ٨٠٠م امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ، ليقاوم به امبراطورية البيزنطيين ، الذين كانوا يرون انهم أحق من غيرهم بها . وكان البابا يسعى الى توثيق صلاته ببطارقة المشرق في بيت المقدس وانطاكية والاسكندرية . وشاركهم في مقاومة عبادة الصور والتماثيل المقدسة التى كان يذهب اليها اهل القسطنطينية ، وهذا مما دفع شارلمان ان يتقرب الى بطارقة المشرق ارضاء للبابا ، وطمعا ان يكون حاميا للمسيحيين في الديار المقدسة .

وهارون الرشيد في نزاع مستمر مع البيزنطيين وقد أذلهم واضطر ملكتهم أريني ان تدفع اليه جزية سنوية على أن يوقف هجماته عن بلاد الاناضول ، كما كان يترقب حوادث الامويين في الاندلس بحذر ، وكان شرلمان نفسه يحرض الثوار الاندلسيين على التمرد ضد عبدالرحمن الداخل ، وأرسل حملة لمساعدتهم فرجعوا عنها خائبين .

كل هذه الامور ساعدت على استئناف الصلات بين الخليفة هرون الرشيد وشرلمان الكبير . وكان لبطريرك القدس يد فعالة في هذه الصلات ،

فانه طلب الى شرلمان ان يحث المسيحيين على زيارة بيت المقدس ، ولذا كانت الوفود تصل الخليفة عن طريق بطريرك القدس ٠

فارسل شارلمان وفدا مؤلفا من ثلاثة أشخاص « كونت لانتغريد وكونت سيكموز وتاجر يهودي يعرف اللغة العربية اسمه اسحق » ٠

وخرج الوفد من فرنسا (سنة ٧٩٧م) فوصل القدس وقابل بطريرك القدس وابلغه ما ارسل به اليه ٠ ثم واصل الوفد سفره الى بغداد للاتصال بالخليفة هرون الرشيد ٠

ولا نعلم شيئا مما دار بين الوفد والخليفة فكان هذا يسوده الكتمان وكل ما نعلمه ان الوفد بقى في بغداد مدة شهر ثم استقبله الخليفة ٠

وان هرون الرشيد أرسل وفدا الى شرلمان سنة ٨٠١م وعلى رأس الوفد شخصان احدهما فارسى ، خرج من بغداد بأمر الخليفة ، والاخر من افريقيا من قبل ابراهيم بن الاغلب أمير القيروان ، وأمر شرلمان ان يستقبل هذا الوفد الذى مثل بين يديه في تموز سنة ٨٠٢م في اكس لاشابل واخبراه بان الكونتين قد توفيا وان اسحاق في طريقه الى فرنسا ٠ وقدموا لشارلمان الساعة المائية الدقاقة ورقعة شطرنج من العاج وفيلا اسمه عبدالله وهدايا أخرى ٠

ويظهر أن هذه الصلات لم تنقطع بل كانت متواصلة بين الطرفين ٠

وفي سنة (٨٠٢م) ارسل شارلمان وفدا آخر الى الخليفة هرون الرشيد، وكان أحد أعضاء الوفد اسمه رادبرت ، وانه مضى الى الاراضى المقدسة وقابل بطريرك القدس ، ثم توجه الى بغداد وقابل الخليفة الرشيد وعاد سنة ٨٠٦ الى أوربا ٠

وبعد وصول هذا الوفد الى الرشيد أرسل وفدا آخر مؤلفا من ثلاثة أشخاص : راهبين وشخص اخر اسمه عبدالله ٠ فوصلوا شارلمان في سنة ٨٠٧م وحملوا اليه هدايا جميلة من تحف الشرق منها صيوان ملون بألوان متنوعة ومنسوجات من الحرير والكتان ٠ وروائح عطرية وبلسم وساعة مائية واوانى نحاسية كبيرة ، وأقام السفراء الثلاثة مدة عند الامبراطور ، ثم ارسلوا الى ايطاليا فابحروا منها الى المشرق ٠ ثم تنقطع عنا أخبار هذه السفارات ولا نعلم سببا لهذا ٠

بدر الكبرى

من الأدب الإذاعي

جميل الجبوري

اشخاصها :

أ ـ من المسلمين ـ المقداد بن عمر الكندي وسعد ابن معاذ الحبشي وعمير ابن الحمام وعوف ابن الحارث

ب ـ من قريش ـ اميه بن خلف وابن المطيع وأبو جهل وضمضم وعتبه بن ربيعه والاسود المخزومي

المكـان ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة وبطاحها
الزمان ـ السنة الثانية للهجرة ، ٦٢٤ للميلاد

ـ ١ ـ

ـ فى الطريق الموصل بين مكة والمدينة ، جماعة من المسلمين يقصدون المدينة المنورة وعدد من خصوم الاسلام يقصدون مكة ٠

تسمع اصوات المسلمين من بعد تنشد :

طلع البـدر علينـا — من ثنيـات الوداع
وجـب الشكر علينا — مـا دعا لله داع
ايها المبعوث فينـا — جئت بالامر المطاع

ثم تقترب رويدا رويدا ، وتصاحب النشيد الدفوف ٠

أمية بن خلف : ما هذا ؟ افريق اخر يبغي الاسلام ... يخيل لي ان محمدا سيفتن الجزيرة برمتها ببدعته الجديدة .

ابن المطيع : ولم لا ، وفى كل يوم فئة جديدة يفتنها الدين الجديد ، أى محمد هو ، لقد سيطر على نفوس الناس وأخذ بمجامع قلوبهم ، ان في الامر وحق العزى لسرا اى سر .

أميـــة : على رأسك يا ابن اخي ، لا سر ولا اسرار ، انها حيلة ، فرية ، يريد محمد أن يتبوأ بها مكان الصدارة في قريش ، انه طموح ، ما فى ذلك شك ، لكنه يريد ان يصل اهدافه بطرق ملتوية شائكة دون بلوغهـا خرط القتاد .

ابن المطيع : لا اجدني موافقك فيما ذهبت اليه ، انني اذكرهـا وكأنها حدثت الساعة ..

أميـــة : مـــاذا ؟

ابن المطيع : عندما ذهبوا الى عمه ابى طالب ـ أقيـــال قريش وزعماؤها ـ يرجونه ان يكف ابن اخيه عن دعوتـه ويعدونه بالملك والسيادة والسلطان ، لقد كان جوابه قاطعا مسكتا حين قال لعمه : « والله لو جعـلوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ما تركته » .

أميـــة : انه صعب وعنيد .

ابن المطيع : ولم لا تقل انه مؤمن صادق .

أميـــه : مؤمن صادق ، ماذا اسمع يا ابن المطيع ... نفسي تحدثني بأنك تؤيد دين محمد .

ابن المطيع : اتريد الحق ، .. أراني اميل الى ما جاء به .

أميـــة : يا للعزى ، يا لهبل ، يا لمناة ، حتى انت يا من كنا ندخره ليوم القضاء على هذه الفتنة ودعاتها ، تجاهرني بميلك دونما خشية ولا حذر . ولا خجل .

ابن المطيع : ولم الخجل ، وهل من مواربة فى الحق ؟

أميـــة : اتسمى هذا حقا ، لقد أهانوا الالهة وسفهوا ديننـا وخرجوا على موروثاتنا وتقاليدنا ، وبعد كل هذا ، وفوق كل هذا ، بدأوا يتحرشون بقوافلنا يريدون انتهاب تجارتنا ، مورد رزقنا ، هم يريدون القضاء علينا وتسمى عملهم حقا ، اين رشدك يا ابن المطيع .. أين عقلك وحلمك وبعد نظرك .

ابن المطيع : انها في رأسي ، وقد رسمت لي طريق الاسلام

أميــــة : هل أصابك مس أم أنت تهذي ٠

ابن المطيع : بل انني اتكلم من وحي عقل عاقل ٠

أميــــة : قبح عقلك ورأيك ٠٠ اغرب عن وجهي ٠٠ لله شر هذه الفتنة ، لقد سرت في الناس مسرى النار في الهشيم ، فحتى من كنا نعتقد برسوخ ايمانهــم ادركتهم اللعنة ٠

ابن المهنـد : يا أمية ، يا أبن خلف ، الي يا أمية ان لي معك امرا ، ما لك تحث الخطى هكذا ٠

أميــــة : دعني من امرك وشوءونك

الصـوت : بحق الالهة عليك ، قف لاخبرك ، الخبر جد مهم ٠

أميــــة : تجارة رابحة او خاسرة ،اليس كذلك ؟ وماذا تجدينا التجارة بعد ، دعني يا ابن المهند من امور دنيــاك هذه ، فقد ضاع الدين ٠

ابن المهنـد : واخباري من تلك الاخبار ، نشاط الفتنة ودعاتها ،

أميــــة : يا للعزى ، انشاط جديد ؟

ابن المهنـد : بلى وحق الالهة ٠

أميــــة : قل ، ماذا ؟ تكلم ٠

ابن المهنـد : طرق سمعي ان محمدا كان قد ارسل عمه حمزة مع ثلاثين مهاجرا لمهاجمة القافلة القرشية التي كــان يقودها (ابو حكم) ٠ تأمل ، ماذا يضمرون لنا ، لم يكفهم تسفيه معتقداتنا فتمادوا حتى الى مهاجمــة قوافلنا ٠

أميــــة : اخبار عتيقة ، هنالك ما هو اجد منها واخطر ٠

صوت اخر : عم صباحا يا ابن خلف ٠

أميــــة : وصباحك انعم ٠

الصـوت : اين انت يا امية ، لقد تعبت في البحث عنك حتى اخبروني بمكانك ٠

أميــــة : وماذا وراءك ٠

الصـوت : بلغني ان محمدا انفذ سعد بن ابي وقاص والمقداد بن عمر الكندي وعددا من انصاره لقطع الطريــق على قافلتنا القريشية ٠

أميــــة : اتتني اخبارها يا قرشي ٠ فلقد تمادت العصابة في غيها بعد ان مر يوم (نخلة) ولم نرد لهم الصاع صاعين ٠

الصـوت : بئس ما عملوا في ذلك اليوم المشوءوم ، ما ذكرت (نخلة) ويومها الا وتميزت غيظا ٠

ابن المهند : والانكى من ذلك ان عبدالله بن جحش لم يعمل بما أوصاه به محمد .

أميـــة : ماذا اوصاه ؟ اتصدقون كل ما يقال .. ان هي الا حيلة يريدون بها تغطية فعلتهم الشنيعة .

ابن المهند : لا يا أبا علي ، انني مأكد من اخبار اثق كل الثقة برواتها . لقد اعطى محمـد لعبدالله بن جحش كتابا وأمره ان لا يفتحه الا بعد يومين من مسيره فيمضي لما امره به . وقد قرأه ابن جحش بعد مرور المدة فاذا به يقول :

« اذا نظرت في كتابي هذا فأمضي حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد قريشا وتعلم لنا من اخبارهم .

أميـــة : ليت ابن جحش اكتفى بما اوصاه به محمد .

الصـوت : كانت جريمة نكراء بحق الدنيا وحق الآلهة .

أميـــة : كيف لا وقد استباح القتال في الاشهر الحرم .

ابن المهند : قيل ان محمدا عنفه على القتال في هذه الاشهر .

أميـــة : ايكفي التعنيف وقد قتلوا عمر بن الحضرمي ، ذلك البطل الصنديد، .. والاسرى ، والاسلاب ، ... حديثهم يا اخي يفطر الاكباد .

تنتهي مسيرتهم الى مجلس قريش – في المجلس:

أميـــة : أحييكم وفمي يعبه الدم .

صوت من المجلس : حدست هذا من وجهك المربد وقسماتك التي تنم عن الشر .

أميـــة : كيف لا – يا ابن اخي – أيصبح الاستبشار والاخطار تتهددنا من كل جانب ، أبعد حملة حمزة وابن أبي وقاص وخروج محمد نفسه الى (الابواء) وافساده دين القبائل المناصرة لنا يصح الاستبشار ؟ ثم ثالثة الاثافي هذه .. أخبار اليوم .

أبو جهل : أشر جديد للفتنة الجديدة .

أميـــة : اجل يا أبا حكم ، لقد صح عندنا أن محمدا خرج مع حملة تزيد على مئتي مقاتل الى (عشيرة) وانتظر خروج قافلة أبي سفيان ، ولو لم تسر القافلة غربا بمحاذاة البحر لحدث ما لا تحمد عقباه .

أبو جهل : لقد بلغ السيل الزبى ، أما لهذا الليل من اخر ، أم أن قريشا استنامت على الذل واستكانت على الاهانة لا ، لا ، هذا كثير ، هذا أوان الشد فاشتدي زيم .

الصوت : ونحن كلنا معك ، فلم يبق لمحمد الا أن يطردنا من ديارنا بعد أن سفه ديننا وتطاول على قوافلنا .

صـــوت : لابد من وأد الفتنة والا استفحل الخطب .

أبو جهل : لنتدبر أمرنا فلم يعد فيه متسع .

قـــادم : عمو صباحا أشراف قريش .

أبو جهل : وصباحك أنعم ، أمن سفر طويل .. أم لعلك قادم من البطاح المجاورة .

القـــادم : بل من طريق الشام الشمالي، وعندي اخبار لاتسركم ولكنني أردت اخباركم لتجمعوا أمركم فقد بــات الخطر يتهددنا .

أبو جهل : ماذا ؟ قل

أميـــة : أبن يا رجـل

القـــادم : لقد التقيت برجل يدعى (ضمضم) جاء من حدود بلاد الشام يحمل رسالة أبي سفيان التي تخبركـم أن محمدا يترصد طريق القافلة العـــائدة . وان أموالكم في خطر والقافلة في مأزق .

أبو جهل : هذا ما كنا نخشاه ، وما حذرنا من مغبته مرارا ، أبعد كل هذا يصح السكوت على أعمال هذه الشرذمة .. أبعد كل هذا ..

أميـــة : ـ مقاطعا ـ اسمع ، اسمع .. ما هذا ؟

أبو جهل : من المنادي ؟

ـ صوت ضمضم من بعيد ، ثم يقترب رويدا رويدا ـ

ضمضـم : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، المال والتجارة الغوث ، الغوث ، أموالكم مهودة ، القافلة في خطر فانقذوها ، الحقوا بأبي سفيان والا ضاع المـــال والولد .

أبو جهل : لم يبق في قوس الصبر منزع ، الا يكفي ما لقينـــاه حتي ننتظر ما سنلقاه .

أميـــة : يا معشر قريش ، هذا رسول (أبي سفيان) جاءكم يطلب الغوث ، وستكون اموالـكم ـ ان لم تنقذوها ـ في أيدي عدوكم ، ولست أشك في أن الهلاك ينتظر رجال القافلة . بالامس مرت أيام (نخلة والابواء وعشيرة) ويخيل لي اننا سنضيف الى أيامنا السود هذه يوما اخر ، فما بالكم استنمتم على الضيم وقبلتم الهوان . ماذا تنتظرون بعد أن سفه دينكم ودنست معتقداتكم واحتقرت الهتكم ، انكم ان ســـمحتم

للمسلمين تماديهم فعاقبتنا جد وخيمة ·
الى القتال ، معاشر قريش ، فأما حياة عزيزة كريمة والا فالموت أجدى من حياة الذل والهوان ، لنضع حدا لـكل هذا ، فانتهزوا الفرصة وقولوا كلمتكم والا ضاعت · ولات ساعة مندم ·

- ٢ -

المسلمون في بطاح المدينة المنورة بعد أن خرجوا لاعتراض طريق القافلة القريشية الا أنها نجت نتيجة تغييرها طريقها فاستعدت قريش لحربهم·

المقداد بن عمر الكندي: وكأنه يتم حديثا سابقا ـ فيا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا : انا ها هنا قاعدون : ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون · فوالذي بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله ولو سرت بنا الى (برك الغماد) لجالدنا بالسيوف معك من دونه حتى تبلغه ·

قادم مسلم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

الجميـــع : وعلى القادم القادم الكريم السلام ، تفضل

القـــادم : انني أحمل ، معاشر المسلمين ، من أخبار قريش واستعدادها لحربنا الشيء الكثير ·

صحـــابي : ماذا ؟ قـــل

القـــادم : هكذا أمام القوم ، انني أريد أن أقولها لرســول الله وحده ·

صحـــابي : ان رسول الله منصت اليك ، وأمرنا شورى بيننا ، فاخبر القوم بما تعلم ·

القـــادم : لقد انقسمت قريش على نفسها بعد ان نجت القافلة عندما سلكت طريق الغرب بمحاذاة البحــر وأراد قسم منهم الرجوع حيث لم يروا ثمة داعيا للحرب ·

صحـــابي : وهل عرفت من هم أولاء الذين لا يرتأون الحرب ·

القـــادم : عرفت أن من كبار حملة هذا الرأي عتبة ابن ربيعة وأخوه شيبة ·

صحـــابي : أبوك يا أبا حذيفة لا يريد قتالنا ·

القـــادم : ولذلك اتهمه أبو جهل بأنه انما يعارض الحرب حفاظا

على دم ابنه عندما قال لهم : « والله لان أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو واحدا من عشيرته ؛ يا قوم : إعصبوها برأسي وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون اني لست بأجبنكم »

صحابي : لله در أبي جهل ما أجهله ٠

صحابي آخر : بل هو التعطش لدمائنا وهو الخصم العنيد ٠

القادم : كما انه ذكر عامر بن الحضرمي بمصرع أخيه في يوم (نخلة) ٠ ولقد رأيت بعيني رأسي عامرا يصرخ ويصيح : واعمراه : واعمراه ٠

صحابي : اذن قر رأيهم على القتال ٠

القادم : نعم ، وهو ما جئتكم به من الخبر اليقين ٠

صحابي آخر : كنا نقدر كل هذا ولذلك اجتمعنا لنتبادل الرأي ٠

صحابي آخر : لقد صح عندنا اذن عزم قريش على قتالنا ٠واستمعنا لرأي المهاجرين على لسان المقداد بن عمر الكندي فليت شعري ما هو رأي الانصار ٠

صحابي آخر : الرأي عند سيد الاوس سعد بن معاذ ٠

سعد بن معاذ : لقد امنا برسول الله وصدقناه وشهدنا ان ما جاء به هو الحق وأعطيناه على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ٠ ولعلكم تخشون ان تكون الانصار ترى ان لا تنصره الا في ديارهم وها أنذا أقول عنهم « أظعن حيث شئت وصل حبل من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من اموالنا ما شئت فما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت »فأظعن يا رسول الله لما أردت فنحن معك ٠ فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا العدو٠ وانا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك ما تقر به عينك فسر على بركة الله ٠

قادم اخر : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

الجميع : وعليك السلام ورحمة الله ٠

القادم : معاشر المسلمين أصغوا الي « جاءني أن قريشا أنفذت أحد أفرادها لاستطلاع قواتنا وقد جاءهم بأخبار فيها لصالحنا الشيء الكثير »

صحابي آخر : كيف ، ماذا تقول ؟

قال لهم صاحبهم أن عددهم ثلثمائة رجل ولكن يا

معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا فهم خرس لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الافاعي ، لا يريدون أن ينقلبوا الى أهلهم • قوم ليس لهم متعة الا سيوفهم، ووالله ما نرى أن نقتل منهم رجلا حتى يقتل منكسم رجل • فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

صحابي : الحمد لله الذى زرع الرعب والفزع في قلوب أعدائنا

صحابي آخر : نحمده ونشكره ، انه نعم العون ونعم النصير ••

- ٣ -

- المعركـــة -

صـــوت : يا رسول الله ان هذا غبار خيولهم فلنستعد للمعركة

جماعة من الانصار : نحن الفداء يا رسول الله •

جماعة من المهاجرين : بل منا الفداء •

صحـــابي : المسلمون سواسية وكلنا فداء ديننا •

- مؤثرات لاقتراب خيول قريش -

صـــوت : استعدوا يا شباب الانصار

مناد من قريش : بل ارجعوا فما لنا بكم من حاجة

عتبه بن ربيعه : يا محمد ، اخرج لنا أكفاءنا من قومنا •

عبيده بن الحارث : أنا يا رسول الله •

حمـــزة : وأنا يا نبي الله •

صحـــابي : لقد قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ان الصبر في البأس مما يفرج به الله تعالى الهم وينجي به الغم : وها نحن أتيناكم نفرج همومنا فاستعدوا!•

الاسود المخزومي : من قريش : تتهكمون ها ؟ أعاهد الالهة لاشربن من حوضكم ولاهدمنه أو لاموتن من دونه •

صوت أسلامي : بل ستموت بعون الله ، خذها طعنة اسلامية

الاســود : آه •• قتلتني شلت يداك •

أصـوات : الله أكبر ، الله أكبر •

صوت قريشي : قتلتم الاسود ، ان دمه بدمائكم جميعا •

صوت أسلامي : وسنلحقك به •

القريشي : أنت ؟

المسـلم : نعم أنا ، وهاك خذها من يدي •

صوت أسلامي : نصر الله الاسلام ، قتل شيبة بن ربيعة •

من قريش : يا لليوم التعيس ، قتل الوليد ، لنهجم هجمة رجل واحد .

من الاسلام : لنكر علي عتبة وننصر عبيدة .

من الاسلام : الله أكبر ، نصر من الله وفتح قريب .

من قريش : يا معشر قريش ، هل تطيب لـكم حياة بعد مقتـل عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد ، اهجموا وأوردوهم حياض الموت .

من قريش : نحن معك ، نحن معك . نعاضدك ونشد أزرك .

ـ مؤثرات لاحتدام المعركة ـ

صحـابي : يا معشر المسلمين ، ان رسول الله يوصيكم « ان دنا القوم منكم فأنصحوهم واستبقوا نبلكم ولا تسلـــو السيوف حتى يغشوكم » .

صحـابي : سمعت بأذني رسول رسول الله صلوات الله عليـــه يناجي ربه ويقول « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها تحاول ان تكذب رسولك فنصرك الذي وعـدتني ، اللهم اني انشدك عهـدك ووعدك ، اللهم ان تهلك هذه العصابة فلا تعبد » .

أحد المسلمين : يا معشر المسلمين ، أني أزف لكم بشرى ، لقد انتبه رسول الله من خفقة نعاس فخرج وتناول حفنة من ترابه رمى بها وجه العدو وصاح قائلا « شـــاهت الوجوه » .

مسلم اخر : الله اكبر ، الله أكبر ، وما النصر الا من عند الله .

صحـابي : يا معشر قريش ، لقد سمعت رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يجهر بصوته ويقول « والـــذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابـــرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » .

عمير ابن الحمام : بخ ، بخ ، ما بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ، والله ان بقيت الوك هذه التمرات انها لحياة طويلة .. الى الارض (يرمى بتمرات كن في يده) :

« ركضا الى الله بغـير زاد الا التقى وعمـل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضه النفاد
غير التقى والبر والرشاد

عوف بن الحارث : يا معشر المسلمين ، لقد سألت رسول الله عما يرضى الله من عبده فقال « غمسة يده في العدو حاســرا » فأغمسوها ونولوا رضا الرب .

صوت اسلامي : مكاننا جد منيع وحوض الماء خير ضمان لنا .
صوت آخر : بورك الحباب بن المنذر من رجل .
الصـــوت : مكاننا المنيع هذا اختاره الحباب ؟
الصوت الاخر : بلى ، فقد سأل رسول الله عندما نزلنا في أدنى ماء من بدر : أهو منزل انزلنا به الله فلا نستطيع تغييره أم هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال الرسول ، بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال اذاً يا رسول الله ان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزل ثم نردم ما وراءه من الابار ثم نبني عليه حوضا فنملأه ونقاتل فنشرب ولا يشربون .
الصـــوت : نعم الرأي .
أصوات دعاء : ـ من قلب المعركة ـ

اللهـم ، لا عيش الا عيش الآخرة

اللهـم ، ارحم الانصار والمهاجرة

صـــوت : يا لله ، ان رسول الله يقاتل بنفسه .
آخـــر : الله واكبر ، انها نهاية الفداء .
صـــوت : ان رسول الله أشدنا بأسا .
بلال الحبشي : هوذا ، هوذا ، أليس هو ؟
صحابي : من يا بلال؟
بـلال : امية ابن خلف ، سيدي في أيام الضلال .
الصـحابي : نعم ، انه هو .
بــــلال : أمية رأس الكفر ، لا نجوت ان نجـــا ، خذها يا عدو الله .
أميــــة : انت يا لعين ، لقد قتلتني شلت يداك .
صـــوت : لله بطولة ابي عبيدة من بطولة نادرة .
آخـــر : بطل نادر وايم الحق ، لكن بطولته قتلت أباه .
الصـــوت : وماذا يعمل ، لا خيار له في الامر ، كان عليه أما ان يقتل أو يقتل ، ان أباه قصده فولى عنه ابو عبيدة فلم يكف عنه والح في قتله فكان لابد ممـــا ليس منه بـــد .

ـ أصوات دعاء ـ

اللهم لا عيش الا عيش الاخرة .

صوت من المسلمين : ابو جهل ، انت ، رأس الكفر ، خذها من يدى يـا عدو الله .

ـ أصوات مبارزة ـ

صوت اسلامي	: احد ، احد ، الله اكبر ، الله اكبر .
صوت اسلامي	: قتل أبو جهل ، لحق بعتبة وشيبة والوليد .
صوت اسلامي	: لقد نصر الله دينه وعلت كلمة الحق .
صحابي	: اشتدوا وطاردوا الفلول ، هيا جنود الله .
صحابي آخر	: مرحى جنود الحق ، دعوهم يهربوا أمامنا ، ما أجمل مرآهم يهربون .
صحابي آخر	: انها حلاوة النصر .
صحابي آخر	: معاشر المسلمين لا تتوانوا ، اقتلوهم والا فاقبضوا عليهم أسرى فما أرادوا الا ابادتنا .
صحابي آخر	: وهل بقي منهم من يخشى بأسه ؟
صحابي آخر	: نحمد الله الذي أمدنا بنصر من عنده « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ».

أصوات غناء بالدفوف :

طلع البدر علينــا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينــا مــا دعــا لله داع
ايها المبعوث فينــا جئت بالامر المطــاع

= النهـــاية =

مزايا الحرف العربي *

ان الحرف العربى ـ فضلا عن تميزه بجمال الشكل ـ يعتبر اختزالا للكتابة .

محمد رضا الشبيبى

اننا أمة انتفعت بحرفنا أمم أخرى فكتبت به .

عبدالرزاق محيى الدين

تتمثل فى الخط العربى ـ مع جمال حروفه وأشكاله ـ سهولة الكتابة وسرعتها .

عبدالعزيز الدورى

الخط العربى يمكن عده أجمل الخطوط العالمية قاطبة .

ناجى معروف

• • •

قال العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة .

عندما أقدمت بعض الدول الشرقية أو الاسلامية على التخلي عن الحروف العربية الى الحروف الافرنجية في كتابتها وذلك قبل نحو من أربعين سنة تقريبا ، ظهر في الشرق العربي من يدعو الى ترسم هذه الخطوة ومنهم بعض الكتاب اللبنانيين والمصريين وقلدهم في هذا بعض العراقيين .

وحجتهم في ذلك تجنب الاوهام والاخطاء فان الحركات في الخطوط الافرنجية مدمجة في الكلمة نفسها وليست الحركات في الحروف العربية كذلك ..

(*) من خطة « الاقلام » طرح ما يهم من المواضيع على ذوى الرأى والاختصاص لتثبيت آرائهم فيها ، وستتابع المجلة خطتها هذه فى سائر أجزائها .

وقد ثار على أثر ظهور هذه الآراء في الشرق العربي نقاش كثير رجحت فيه كفة المدافعين عن الحرف العربي ٠

ان الحرف العربي ــ فضلا عن تميزه بجمال الشكل ــ يعتبر اختزالا للكتابة ، فما يحتاج الى صفحة في الخطوط الافرنجية لا يحتاج لاكثر من نصف ذلك في الكتابة العربية ٠٠

وقد دارت بحوث ومناقشات في هذه المسألة بيني وبين غير واحد من المعنيين بهـذه القضـايا ــ لا في العراق حسب ولكن في القـاهرة وغيرها ــ وقـداستقر الرأي عنـدي عـلى أن العرب والمسلمين أحوج ما يكونون في هذه العصور العصيبة التي شنت فيها الغارات على ثقافتهم وحضارتهم ان يحتفظوا بمشخصاتهم ومقوماتهم مهما كلفهم الامر ٠٠ ومن تلك المشخصات والمقومات هذه الحروف العربية التي دون بها محصول الثقافة العربيـة والاسلاميـة ٠٠

وقد علمنا أن غير واحد من رجال الفكر في بعض الدول التي أقدمت على الاخذ بالحروف الافرنجية بدلا من الحروف العربية وقفوا موقـف المعارض المندد بهذه الحركة وما زال موقفهم كذلك حتى اليوم ٠

والمشكلة المزعومة في الكتابة العربية هي مشكلة تورط القراء ببعض الاوهام والاغلاط ، وقد بالغ من بالغ بهذه المشكلة فهي لا تستدعي التفكير في استبدال الكتابة العربية باحدى الكتابات الافرنجية ٠٠ هذا مع العلم بأن الكتابات الافرنجية لا تخلو من مشكلات ومن شواذ كثيرة خصوصا في اللغة الانكليزية ومثلها اللغة الفرنسية وهما اشهر اللغات الغربية ٠٠

ومن رأينا أن هذه الفكرة بعد وضعها على بساطها التمحيص كما تقدم قد طوي بساطها ونستبعد أن تقوم لها قائمة بعد اليوم ٠

ولا يخفى أن عضوا واحـدا من أعضاء مجمع اللغة العربية أثار هـذا الموضوع في مؤتمر المجمع قبل أكثر من عشرين سنة وقد جوبه بنقد دقيق واتخذ المجمع يومذاك قرارا بتأجيل البحث في الموضوع الى أجل غير مسمى ولم يتقدم أحد باثارة البحث بشأن الاقتراح المذكور حتى اليوم ٠

وقد وقفنا على نماذج غير قليلة من الحروف المقترحة في أضابير مجمع اللغة العربية في القاهرة وفي عدد من الرسائل المنشورة والمخطوطة التـي تدعو الى اختزال الحرف العربي وتحويره فلم أجد أنا ولا غيري من أعضاء المجمع اللغوي على الاكثر مزية ترجح الاخـذ بشيء من هـذه النماذج عـلى الاطـلاق ٠٠

وقال الدكتور عبد الرزاق محيي الدين نائب رئيس المجمع العلمي العراقي :

الكتابة طريقة من طرق التعبير عن الافكار ، وكما ان لكل امة ذات شأن لغة وأسلوبا في التعبير باللسان كذلك فان لها طريقـة في التعبيـر

بالكتابة ، وتنازل الامة عن أى منهما يعني التنازل عن أهم مقوم من المقومات .. لذلك فان الدعوة الى العدول عن الكتابة العربية بالحرف العربي يؤدى بقصد وبدون قصد الى التنازل عن بعض مقومات تلك الامة .. ولقد ترضى بعض الامم التى لم تكن لها منزلة الامم ذات الشأن ان تتنازل لسبب وآخر عن لغتها او عن كتابتها ولكن لم يحدث لامة كالامة العربية ان تنازلت عن حرفها وطريقة كتابتها ..

والكتابة العربية منذ نشأتها حتى عهد قريب قبلت التطور والتغيير كلما اقتضتها ضرورة التطور والتغيير فبعد أن كانت حروفها غير معجمة ورأت ضرورة الاعجام أعجمت تلك الحروف ..

وبعد ان رأت حاجتها الى الحركات والسكنات اوجدت تلك الحركات والسكنات ، ومعنى هذا انها كتابة قبلت التغيير والتطوير كلما اقتضاها ذلك .. والاملاء العربي او الخط العربي يقوم على أساسين من فلسفته :

الاول : الاستغناء عما يمكن الاستغناء عنه من الحروف لان تركه لا يضير بالفهم ، وزيادة ما يجب زيادته من الحروف لانفي زيادته مايستوجب العون على فهم المقصود ، فليس في الكتابة العربية حرف يحذف الا لعدم وجود ضرورة له ، وليس في الكتابة العربية حرف يزاد الا لضرورة تقتضي هذه الزيادة ..

فالالف بعد واو الجماعة تزاد من اجل التفريق بين الفعل للجماعة وبين الفعل المعتل بالواو المفرد .. والالف تحذف اذا وقعت بين علمين وفي سطر واحد من كلمة « ابن » لان الغاءها لا يضير بفهم المعنى .. ان بعض الحروف توصل بما قبلها حينا وتفصل عما بعدها حينا من أجل التمييز بين الحرفين لاختلافهما في المعنى كما في كلمة (ما) الكافة و(ما) الموصولة حين تقترن بهما « ان » ، وكما في حذف ألف (ما) الاستفهامية والاكتفاء بالميم المجردة ، وكما في كلمة الذين واللذين للتمييز بين الجمع والتثنية .

اخرج من هذا الى أنه لم يستزد حرف ولم ينقص حرف الا من أجل قصد التفهيم والتمييز والايضاح ..

والاساس الثاني : القصد الى التزيين والتحسين في شكل الحرف ، ولهذا اختلفت اشكال الحروف بين خط عربي وخط عربي آخر وأصبح للعربية أكثر من خط واحد تنوعا في الكتابة وذهابا وراء الجمال .

وعليه فأى تغيير في الخط العربي لا يعتبر حدثا جديدا ولا شيئا نابيا اذا احتفظ للامة بالتمييز الخطى الذى حافظت عليه طيلة القرون الماضية ، واذا لم يؤد ذلك الى الجهل بقراءة الكتب السابقة واقامة حاجز بين أجيالنا وبين آثار امتهم السابقة ..

نحن امة نختلف عن كثير من الامم ، ذلك اننا امة ليست حديثة الوجود وليس تراثها الحضارى بالشيء الذى يمكن ان تستغني عنه ، وليس حالنا حال الامة التى لم تفقد شيئا لانها ما كانت تملك شيئا ، ولا حال

الامة التي تريد ان تنشىء لها « أبجدية » من جديد ، وليست لغتنا لهجة من امة اخرى حتى ترجع الى لهجة الام ٠٠ لذلك فان أمرنا يختلف عن حال هذه الامم التي غيرت من خطها ومن حرفها ، بل نضيف الى ذلك اننا امة انتفعت بحرفنا أمم اخرى فكتبت به وانتفعنا بعقول أمم اخرى لانها كتبت بخطنا والتقت عقولنا وعقولهم في هذا المحيط الحرفي ٠٠

ونحن اذ نترك هذا الحرف ـ لو تركناه ـ فسنترك مالنا وما للامم الاخرى التي شاركتنا الانتفاع بهذا الحرف ٠

ومع اعترافي بأن تعلم الخط العربي فيه مشقة ، ولكنها مشقة لا تخلو منها كتابة في العالم ٠٠ ولعل بعض الامم التي نحاول تقليدها الان هي اكثر منا شعورا بالمشقة التي تعانيها من كتابتها ٠٠ وخلاصة رأيي ان اي تغيير في الخط العربي يجب ان يتم على الصورة التي حدثت فيها التغييرات السابقة فالخط العربي كما قلت ليس واحدا في كل العصور ٠٠ واختلاف كتب الاملاء وطريقة الكتابة تشهد بان التطور كان يحدث بين جيل وآخر ٠٠ فالتغيير بمعنى التطوير ممكن وغير مضر ، والتغيير بمعنى المسخ واخذ حرف أجنبي، مضر وغير ممكن٠٠والامر ليس أمر رغبة فردية أو رغبة جماعة وانما هو امر هذه الامة بمجموعها ، وافتراض شيء على أمة من هذا القبيل عبث لا يستجاب له ٠٠

ومع هذا فاني لا أجد بأسا ولا أحول دون ان تتخذ تجارب وتسلك سبل في تعلية الخط العربي وتوضيحه ، على أن يترك امر ذلك الى الناس في حالة رفضه او قبوله ، وان لا يعمد الى القوة والتشريع المجمعي في فرض نوع من الكتابة على الناس ٠٠ ولا أن يبلغ الالحاح بصاحب الدعوة الى تسخيف ما كان عليه الخط او تزييفه ، فان ذلك يعني في نظري الجهل بفلسفة الخط العربي القديم والتحامق في فرض الاراء على الناس ٠٠

وقال الدكتور عبدالعزيز الدوري رئيس جامعة بغداد :

ان أية لغة أصيلة ، تكون وحدة متماسكة في كلماتها وأصواتها وأساليب التعبير فيها ووسيلة كتابتها أو حروفها ٠

وهذا يصدق بوضوح على العربية فهي في تكوينها وفي جوهرها وفي حروفها تمثل وحدة متكاملة نشأت وتمت في البيئة الثقافية العربية ٠

لقد عرف اسلاف العرب سكان الجزيرة ـ الذين نسميهم مجازا بالساميين ـ بعبقريتهم في ايجاد وتطوير حروف الكتابة ولم يتعلموا الحروف من غيرهم بل كانوا معلمين لغيرهم في كثير من الحالات ، وقد قام العرب بنفس الدور فيما بعد في حروف الكتابة العربية ، ويتبين من تتبع تاريخ الحرف العربي انه بدأ من اوليات قديمة أوجدها أسلافهم وانه نما وتطور وتفرع وتكامل عبر التاريخ ، ليكون ملائما لمستلزمات اللغة العربية وحاجاتها

ومنسجماً مع الذوق العربي ومع النفسية العربية - وتمثل في اشكال الحرف العربي وطرق رسمه جانب مهم من الاستعداد الفني عند العرب ومن مواهبهم الفنية ٠

ولا يخفى ان تطور الخط العربي مرتبط كل الارتباط بنشوء الفصحى وتطورها ، وان حروفه استجابة واضحة لها ٠ فمع وجود لهجات او لغات محلية عربية قبل الفصحى ، ومع استمرار اللهجات بعد قيام الفصحى والى الان فان الحرف العربي هو حرف للفصحى ووعاء لها ٠ وهذا هو الذي يفسر عدم وضع حروف معترف بها لبعض الاصوات الموجودة في اللهجات العامية رغم سهولة ذلك وتوفره ٠

وتتمثل في الخط العربي – مع جمال حروفه وأشكاله – سهولة الكتابة وسرعتها اذا قيس الحال بالحروف اللاتينية٠ وهذه ظاهرة استرعت انتباه الكثيرين ٠ ويتضح ذلك اذا لاحظنا أن العربية لا تكتب بالحروف المنفصلة المتباعدة كما هو حال اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية بل تتصل الحروف في رسم الكلمات ، باشكال تكون فنا رفيعا قائما بذاته ٠

ومن هذا يتضح ان الحروف العربية ليست ملابس نخلعها ونستبدل بها غيرها ٠ فهي جزء من كل متماسك هو اللغة العربية ، وهي وعاء لتراث ضخم ، وهي جانب رئيسي في الفن العربي وفي الريازة العربية ٠

قد تكون الدعوة للتخلي عن الحرف العربي جزءا من الدعوة الى تقليد الغرب ، والتنكر للذات ٠ وقد تكون الدعوة تعبيرا عن رأي من يريد التخلي عن الفصحى ويريد الرجعة الى اللهجات العامية وهذا ما لا نرتضيه ولا نقره٠ وقد يتعلل آخرون بالميل الى البساطة ، وهذا تعليل لا يخلو من طرافة ولكنه لا يتمشى ومنطق الحضارة او التاريخ او الواقع ٠

ورد الاستاذ ناجي معروف عميد كلية الآداب بجامعة بغداد ، على سؤال الاقلام بالمقال التالي :

هذا سؤال وجهته الي مجلة الاقلام التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد بواسطة أحد محرريها الذي زارني في كلية الاداب – وبعد مناقشة طويلة قلت له : سأحدثك عن هذا السؤال من ناحيتين : الاولى شكلية ٠ والثانية موضوعية ٠

أما الناحية الشكلية فالخط العربي يمكن عده أجمل الخطوط العالمية قاطبة ، قديمها وحديثها ، بدليل ان العرب ، والمسلمين استعملوه في الكتابة، وفي الزخرفة في البلاد العربية والاسلامية كافة ، سواء أكان ذلك على الآجر ، والرخام ، والحجر ، والخشب ، والجبس ، والجص ، والبرنز ، والفخار والخزف٠ أم على الاقمشة، والملابس، والانسجة، والحلل المختلفة٠ أم على المسكوكات النحاسية ، والفضية ، والذهبية ٠ وسواء أكان ذلك في دور

الطراز ، أم في المساجد ، والمدارس ، والربط ، والزوايا · أم على الاسوار ، والقـــلاع ، والقناطر ، والجسور · أم في المخطوطات في العالمين العربـــي والاسلامي ، وعند الامم الاجنبية ·

وقد استطاع الفنان العربي أو المسلم أن يبدع فيه ما شاء له الابداع والابتكار على شكل حروف ، وكتابات هندسية ، وعلى شكل حروف مشجرة مزهرة او مورقة فابتكر صورا فريدة ، ونماذج رائعة من هذا الخط بأنواعه المختلفة من نسخي ، ورقعة ، وديواني ، وتعليق ·· الى آخر ذلك مما هـو منسوب الى أشهر الخطاطين الذين نبغوا بفضل هذا الخط وجودوه وجعلوا له اصولا فنية وقواعد علمية · كابن البواب الملقب بـ « قلم الله في أرضه » وابن مقلة وهو تحفة الخطاطين ، والمهندس الاول للخط العربي ببغداد على رأس الثلاثمئة من الهجرة · وهو الذي طوره ووضع القواعد لحروفه · وتفنن في تنويعه حتى قالوا فيه : « أفرغ الخط في يده كما أوحي الى النحـــل في تسديس بيوته » · وياقوت المستعصمي الملقب بـ «قبلة الكتاب» وتاج الدين بن السباك الحنفي الذي كان خطه « رياضـا مونقـة مايرضي أن يكون ياقوت المستعصمي فصا في خاتمه » ·

وقد نابت هذه الروائع عند المسلمين مناب التماثيل ، والمنحوتات ، والتصاوير التي عند الامم الاخرى ، وكان من ذلك ثروة ضخمة لايشبهها ماعند الاجانب ، يعتز بها كل عربي وكل مسلم · ولذلك فان تبديل هذا الخط الجميل بغيره يحرم العالم العربي والاسلامي من هذه الصور الفنية التـــي تتمنى الامم الاجنبية ان يكون لديها مثلها أو ما يشبهها ·

ان الاجانب ما يزالون يرون في هذا الخط العربي نوعا جميلا من أنواع الزخرفة الفنية ، فالاسبان كما رأيتهم في غرناطة سنة ١٩٦١م يحاولون احياءه في مصنوعاتهم الخشبية حين ينقشون عليها « ولا غالب الا الله » أو حين يطرزون بعض المطرزات من أفرشتهم وبعض ثيابهم · ولا تـزال المصنوعات الايطالية تحمل تقليدا للخطوط العربية في بعض الانسجة ، والاقمشة ، والصواني والاواني · ولا سيما المصنوعة من الصفر أو الشبه وهو النحاس ·

وفي الوقت نفسه ما يزال الاوربيون يعتزون بالاحقاق العاجية المطوقة بالكتابات العربية ، والتي تحمل بعض آثار قديسيهم ، كما يعتزون بملابس رجال الكهنوت ، وبزاتهم الدينية ، ومخلفاتهم الاخرى التي رسمت عليهـا الحروف العربية في مختلف الكنائس وبخاصة تلك التي في صقلية وايطالية واسبانية والبرتغال حيث مدن العرب هذه الاقطار · ولبثوا فيها قرونا عديدة ويعتبر الاوربيون ذلك من تراثهم المقدس على الرغم من جهلهم بما قد تدل عليها من فكرة التوحيد والاعتراف برسالة محمد (ص) ·

أما من الناحية الموضوعية فان كل المؤلفات العربية المخطوطة منهـــا والمطبوعة تعد اليوم بالملايين في البلاد العربية والاسلامية ، والاجنبية · وان

تبديل حروفها العربية بغيرها سيحرم العالم العربي والاسلامي وحتى الاجنبي من تراث ضخم يمتد مئات السنين قد تبلغ نحو أربعة عشر قرنا . وفي الوقت نفسه لا يستطيع العرب والمسلمون أن يستعيضوا عنها بأحسن منها .

ويتبادر الى الاذهان سؤال هو : ما الذي يحملنا على تغيير هذا الخط الجميل ذي التراث العظيم بخط أجنبي نجهله ولا يمت الينا بصلة ؟ فان كان السبب في ذلك هو تأخر العرب بسبب حروفهم فان هذا الخط العربي لم يؤخر العرب ولا المسلمين في العصور الوسطى أن يكونوا سادة الامم ، وأن يقدموا للعالم تلك العلوم ، والآداب التي درسها العرب والمسلمون والاجانب ونبغوا فيها ، وكان منهم علماء عظام دونوا نتاج افكارهم بهذا الخط العربي الذي انهارت أمامه خطوط أمم ، وحضارات أقوام عريقة. فقد انهار أمام الخط العربي الخط الهيروغليفي بمصر ، والخط المسماري في العراق ، وخطوط فارس والهند. كما انهاوت أمام حضارة العرب الحضارات المصرية والفارسية والعراقية والاغريقية والرومانية ، وبقي العرب حتى اليوم أمة قائمة لها وجودها وكيانها ومقوماتها ، من لغة بليغة ، وتاريخ مجيد ، وأمجاد رفيعة . بينما أصبحت تلك الامم وعلومها وخطوطها في ذمة التاريخ أمما اثرية لا وجود لها . وغدت أطلالا دراسية ينقب فيها علماء الآثار ، وهيئات التنقيب . ويدرسونها في المتاحف ومعاهد الآثار .

بينما نجد أن مؤلفات العرب ، ومصنفات المسلمين المدونة بالخطوط العربية قد أصبحت مصادر لتاريخ تلك الامم ، ومراجع لجغرافية بلادهم وثقافاتهم المختلفة . وكان الاوربيون يسارعون الى الارتشاف من مناهلها الثرة إبان عصر النهضة الاوربية عن طريق الاندلس وصقلية وبلاد المشرق .

ولنفترض ان العرب رضوا بتغيير هذا الخط ورغبوا في تغييره فعلا فما النتائج التي ستنتج عن تحقيق هذه الفكرة الخاطئة المجرمة بحق العرب وحق تراثهم الحضاري الزاهر ؟ يمكننا أن نجيب على ذلك بالامور الآتية :

١ ـ لما كانت الامة العربية اليوم لا تحكمها دولة واحدة فلا يمكن أن يفرض هذا التغيير على كل البلاد العربية . ولو أخذ بذلك أكثر الدول العربية وبقيت دولة عربية واحدة او امارة عربية واحدة أو أكثر فستحصل البلبلة من دون شك بين العرب . وسيكون من نتائج ذلك : التباعد بين العرب أنفسهم .

٢ ـ ولو أن العرب أجمعوا على تبديل هذا الخط ولم تتخلف دولة واحدة من دولهم أو اماراتهم ـ وهذا غير ممكن ـ فهل من مصلحة الامة العربية أن تبتعد عن أمم ودول عديدة تكتب بخطنا ، وتعتز بتراثنا وعددها يزيد على خمسة أضعاف العرب أو بما يقدر بنحو ٤٠٠ مليون ممن يكتبون بالخط العربي في آسية وافريقية وأوربة ، ويعتزون به منذ ما يزيد على ألف سنة، وهم يحرصون عليه كل الحرص؟. أضف الى ذلك أنهم اليوم ينتشرون

تراثنا العربي المخطوط بهذا الخط في مطابعهم المحلية ، كالهند وباكستان وايران ... الخ .

٣ ـ لو افترضنا اننا قمنا بثورة على خطنا وأخربنا بيوتنا بأيدينا ، فماذا سنفعل بثروتنا المطبوعة والمخطوطة عند تبديل هذا الخط بغيره؟ وماذا سيكون مستقبل ذلك التراث التالد الخالد ؟ هل سنعيد طبع هذه الالوف المؤلفة من كتبنا بالحرف الجديد ؟ أليس هذا ضربا من الجنون وأمرا مستحيلا عجزت عنه تركية وهي قطر واحد محدود الرقعة وليست مثل العرب في سعة بلادهم وامتداد اطرافها وتعدد أقطارها ودولها . ثم ألم تتأخر أكثر من قرن من الزمن بشهادة الخبراء الاجانب ! ألم تعجز عن الافادة من مخطوطاتها ومطبوعاتها المكتوبة بالخط العربي ! أضف الى ذلك أنها انفصلت عن ماضيها الذي كان قوام حياتها وعزها ..

٤ ـ ان خطنا العربي هو خط عربي الاصل والنشأة ، وجد في جزيرتنا العربية ولم نستعره أو نقتبسه من غيرنا لنتساهل في نبذه أو تبديله بمثل هذه السهولة! ولذلك فالتفريط فيه تفريط في شرفنا وفي تراثنا وفي حضارتنا الاصيلة . ولا يمكن تركه أو الاستهانة به . ولئن فعل ذلك غيرنا فنبذوا حروفهم وخطهم فلانهم لم يكن لهم خط يعتزون به ولا تراث يعضون عليه بالنواجذ. ولذلك كان سهلا عندهم أن يغيروا خطا أجنبيا بخط أجنبي آخر.

٥ ـ ان خطنا قد نما وتطور خلال العصور ، ولكنه لم يتغير عن أصله بل بقي ثابتا بحروفه وحركاته منذ أول نشأته حتى اليوم فهو بذلك كاللغة العربية يمكن فهم نصوصها ومدوناتها القديمة منذ العصر الجاهلي بيسر وسهولة كفهم نصوصها الحديثة ، بخلاف اللغات الفرنجية فهي اليوم غيرها قبل أربعة قرون أو أقل . بينما العربية هي اليوم نفسها قبل نحو خمسة عشر قرنا أو أكثر .

والخط العربي الذي دونت فيه هذه اللغة وآدابها وتراثنا الحضاري كله يمكننا ان نقرأه ونفهمه ونستوعبه بكل سهولة بينما تغير الخط الفرنسي والانكليزي خلال العصور واختلف رسمهما كثيرا بحيث أصبحا يختلفان عما كانا عليه قبل بضعة قرون . وأنت ترى أن هذه ميزة كبيرة للخط العربي واللغة العربية ، لا تجد مثلها عند الامم الغربية الحديثة .

٦ ـ اننا اذا غيرنا هذا الخط بغيره فان الاجيال العربية القادمة ستنظر الى التراث العربي الخالد وكأنه تراث أجنبي لابد لفهمه من تعلم الخط العربي الى جانب الخط الجديد الموهوم ، ومما لاشك فيه ان العربي أو المسلم ينكر هذا انكارا تاما ولا يرتاح له . واذا كانت الارقام العربية التي تكتب في المغرب على غير صورتها التي عندنا ونحن في المشرق ننكرها عليهم او هم ينكرون علينا الارقام التي نستعملها ، فكيف بنا لو فعلنا بالخط العربي مثل ذلك ؟ الا يكون التناكر بين العرب أنفسهم وبين المسلمين من الامم الاخرى أشد وأبلغ ؟ ان مثلنا في ذلك كمن يمتلك من الكسب الحلال

ثروة طائلة لا حصر لها ولا عد ، ثم يفرط بها ليستجدي من الغير دراهم معدودات يريد أن يقيم عليها مجده ويبني مستقبله ، اللهم انه لمنكر — اذ يعتز غيرنا بخطنا وتراثنا — أن نعتز نحن بخط غيرنا !! .

من أجل ذلك رحب مؤتمر وزراء التربية الذى انعقد ببغداد قبل عدة أشهر بالاقتراح الذي قدمناه في اللجنة الاولى وهو يقضي أن تحافظ الدول العربية على الخط العربي الى جانب اللغة العربية وقد تبنى المؤتمر هـذا الاقتراح واولاه ما يستحق من العناية باعتباره من صميم مقومات القوميـة العربية .

ونود أن نناقش سؤالا آخر ، هو ماذا يكمن وراء الدعوة الى تغييـر الحروف العربية بالحروف اللاتينية ؟ ولماذا يسعى بعض العلماء والمستشرقين الى اقناع العرب بهذه الفكرة ؟ ولماذا يشايعهم على ذلك بعض المنخدعين من الكتاب العرب ممن لا يدركون خطورة هذه الدعوة ؟ يمكننا تلخيص الجواب على هذه الاسئلة بالامور التالية :

١ — مما لاشك فيه ان الغرض من ذلك ايقاع التفرقة بين العـرب أنفسهم أى بين من يرغب في هذا التبديل وبين من لا يرغب فيه . وبالنتيجة ستكون التفرقة والشقاق بين الـدول ،والحكومات العربيـة ، والشعـوب العربية ، والكتاب ، والمؤلفين ، والمطابع ، وأصحاب المكتبات ، ودور النشر ، والمدارس . وهذه من دون شك كارثة تمنى بها الثقافة العربية والاسلامية ، وتحقيق لهدف استعماري بعيد ينطوي عـلى التفرقة والبلبلة والدس للامة العربيـة .

٢ — ولا شك في أن الغرض من ذلك أيضا هو ابعاد البلاد الاسلامية عن البلاد العربية ، وهي أمنية طالما تمناها المستعمر الذى يرى في الاسـلام أقوى أعدائه ، وألد خصومه ذلك ان العرب ان غيروا خطهم وحروفهم بحروف أخرى فان البلاد الاسلامية التي ستحافظ على خطها العربي ستبتعد عـن البلاد العربية التي غيرت حروفها . وبذلك يضعف الاسلام ككل عن مناوأة الغرب وأهدافه الاستعمارية .

على أننا نعتقد ان العرب ان حافظوا على تراثهم واعتزوا بلغتهم وخطهم وأصبحوا أمة محترمة ، مرهوبة الجانب فستسارع البلاد الاسلامية الى تعلم اللغة العربية واتخاذها لغة رسمية لهم بدلا من اللغات الاجنبية لان العربية لغة القرآن ولغة الدين الاسلامي ، ولكن العرب من هذه الناحية مقصرون كل التقصير في نشر لغتهم على الاقل في البلاد الاسلامية التى تحترم العـرب وتقدسهم ، وتحرص على تعلم لغتهم وخطهم .

٣ — يضاف الى ما تقدم أمر مهم آخر هو : ماذا سيكون موقفنا مـن القرآن الكريم ؟ هل تغير حروفه بالحروف الفرنجية الجديدة ؟ أم نبقيـه بحروفه العربية ؟ واذا غيرته البلاد العربية فما الذى يجبر البلاد الاسلامية على تغييره ؟ أليس في ذلك بلبلة وأي بلبلة بين من يغير هذه الحروف العربية

وبين من يحافظ عليها ؟ ألا نكون مضطرين حينئذ أن نتعلم الخط العربي القديم والاجنبي الجديد في آن واحد ؟ ثم أليس في ذلك من ضياع الجهد ما نحن في غنى عنه .

٤ ـ واذا كان الغرض من هذا التغيير هو تسهيل الكتابة وتيسيرها باعتبار ان الخط العربي صعب على ما يتوهمون فهل الكتابة بالحروف الانكليزية والفرنسية أسهل من الكتابة بالخط العربي ؟

اننا نجد الامر على عكس ما يدعون لان العربية ليست أصعب من الالمانية أو الفرنسية . ولان الخط العربي ليس معقدا كالخط الفرنسي أو الانكليزي بل هو أخف منهما بكثير ، ذلك لان كثيرا من الحروف باللغة الانكليزية لا يتلفظ بها في الكلمية الواحدة . تقول :

Write, Know, Knight, night, light, though.
Thought, through knowledge, neighbour...etc.

ففي كل كلمة حرف أو حرفان أو أكثر لا يتلفظ بها ولا تخضع لقاعدة معينة في الكتابة والرسم ، وهناك عشرات الامثلة التي تثبت ما ذهبنا اليه مما لا نجد له مثالا في العربية .

وفي الفرنسية أيضا تكتب الكلمة بأكثر من عشرة أشكال وتلفظها لفظا واحدا تقريبا وفي كل كلمة حرفان أو ثلاثة أو اربعة أو خمسة لا يتلفظ بها مما لا نجد له مثيلا في العربية لاننا نكتبها كما نسمعها ونلفظ كل حروفها .
ومع ان التصريف في اللغة الفرنسية قياسي يتبع قواعد معينة الا أن التلفظ يكاد يكون واحدا والرسم أو الاملاء مختلف جدا ، فالفعل manger يلفظ كالاسم le manger كما يلفظ مثل ذلك في الصيغ والتصريفات الاتية للمفرد والجمع . تقول : mangés, mangée, mangé
وتقول : je mangeai, je mangeais, j'ai mangé
وتقول : Ils mangeaient, Il mangeait
وتقول : Vous mangez

٥ ـ وهناك أمر آخر له أهميته ، وهو أن عددا من الحروف العربية غير موجود في اللغات الاجنبية كالضاد والصاد ، والعين والقاف ، والحاء ، والخاء ، والطاء ، والظاء ... الخ ولذلك ينبغي في حالة تغيير الخط العربي اضافة حروف أخرى الى الحروف الاجنبية أو تنقيط بعضها ، أو وضع بعض العلامات عليها للتلفظ تلفظا آخر يدل على حروف أخرى كما يفعل المستشرقون والعلماء حين يجعلون مثلا للحرف H الذي يقابل (هـ) بالعربية نقطة من تحته فيكون هكذا Ḥ لينطق (ح) كما يجعلون للحرف نفسه علامة من تحته هكذا H̱ لينطق (خ) ومثل ذلك يقال في الحروف الاخرى التي

لا توجد في الحروف الفرنجية • ومعنى ذلك اننا عسرنا الخط بدلا من تيسيره •

فما أجدر هؤلاء الداعين الى اصلاح لغتنا وخطنا من الغربيين ان يصلحوا الخط الانكليزي والفرنسي وغيرهما من الخطوط الغربية • ثم أليس في عمل الاميركان باتخاذهم طريقة خاصة في رسم خطهم ما يثبت أن الحروف الانكليزية بحاجة الى مثل هذا الاصلاح والتيسير والتسهيل ؟ وكذلك الحال في اللغات الاوربية الاخرى والشرقية التي تعاني مثل هذه المشكلة والتي تصبح مشكلة الخط العربي ـ ان صح وجودها ـ أمرا تافها أمام هذه المشاكل المعقدة التي في الغرب والشرق ، فلماذا يرون الاصلاح لنا ولا يرونه لانفسهم ؟ ذلك ما كنا نشرحه باستمرار لطلابنا في الجامعة في شتى الظروف والاحوال بالشكل الذي نوهت به آنفا • وبهذه المناسبة اذكر للتاريخ ان مناقشة حادة في هذا الشأن جرت ببغداد في سنة ١٩٣١م عندما كنا طلابا في دار المعلمين العالية على أثر ذيوع بعض الاراء الشعوبية الرامية الى تبديل هذا الخط بالحروف اللاتينية وترويج الدعوة لها • وكانت المناقشة بين عدد من كبار أساتذتنا يومئذ أذكر منهم الاستاذ ساطع الحصري والاستاذ أحمد حسن الزيات • والمرحوم طه الهاشمي والمرحوم طه الراوي والمرحوم ناجي الاصيل والمرحوم محمد درويش المقدادي وكان معهم استاذان آخران لم تدرس عليهما ، هما المرحوم عبدالعزيز الثعالبي التونسي والمرحوم معروف الرصافي واذكر ان هؤلاء الاساتذة ـ كما أخبرنا الاستاذ ساطع الحصري في احدى محاضراته الصفية ـ أجمعوا على أنه لا مصلحة للعرب البتة في تبديل الخط العربي بغيره ، وانهم أجمعوا على ضرورة المحافظة عليه، وشجب الاراء المناهضة لهذه الفكرة •

وبعد فأني أرى في تبديل هذا الخط العربي بغيره غاية استعمارية وفكرة شعوبية حاقدة لضرب الحضارة العربية ، والثقافة الاسلامية • وردة تبغي القضاء على العرب والمسلمين ينبغي استئصالها والقضاء عليها •

اللواء والراية

نوري القيسي

١ - في كتب اللغة

الراية واللواء قديمان قدم الحرب نفسها ، لانهما صاحباها منذ البداية وعاشا فى خضمها منذ اول اشتباك وقع بين جمعين ، ولان الغاية من استعمالهما جمع الشمل وتوثيق العرى وتوحيد الكلمة ، فهما الرمز الذى يلاذ به ويلتف حوله ، فاذا رفعا رفعت الروس وغلا فى النفوس حماس الاندفاع للمعركة وأثيرت الهمم ، وهما على الرغم من كونهما خرقا على عصى أو رماح فهما أهيب في القلوب وأهول فى الصدور وأعظم فى العيون·

وقد حمل لنا التاريخ في ثناياه كثيرا من قصص البطولة النادرة لاولئك الابطال الذين حملوا الرايات وظلوا محتفظين بها على الرغم من سيول الرماح المتهاطلة عليهم وحزم النبال المتساقطة ، يدافعون عنها بكل ما يستطيعون ويبذلون دونها الارواح فتتهاوى جثثهم تحت ارماحها لتظل الراية خفاقة ويبقى اللواء مرفوعا ··

لذا فقد اتجهت انظار المقاتلين الى صاحب الراية ، لان سقوطه يعنى سقوطها فاذا وقع أصاب المقاتلين الذعر ، وتملكهم الفزع والرعب وغشيتهم رهبة الهزيمة والتخاذل وعندها يجد الخصوم الفرصة ملائمة لتشديد الهجوم ، مستغلين الضعف المعنوى الذى يصيبهم ·

ومن هنا كان حملة الرايات من أصلب المقاتلين عودا وأثبتهم فى المعارك جنانا وأكثرهم جلادا وتجربة ، وأصبرهم على نوازل الحرب وشدائدها · لان هؤلاء وحدهم يقررون النصر ، وعلى ثباتهم فى المعركة يتوقف الفوز ·

لقد كان للعرب فى جاهليتهم رايات مختلفة ترفع وقت الحرب لتنتظم القبائل تحتها وتتجمع حولها ، فهى امارة القيادة ورمز الجيش ، فاذا خرجوا الى المعركة أخرجوا الراية التى كانت تحفظ عند صاحب الراية ·· فاذا اجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها ··

وقد وردت في الشعر الجاهلي اشارات كثيرة الى الراية واللواء والعلم والعقاب والعصبة والخال ، كما حفلت كتب التاريخ بهذه المصطلحات ·ولكن الذي يصعب تمييزه هو الاختلاط الواضح في استعمالها والملابسات التي تكتنفها ، وان هذه الصعوبة لم ينفرد بها القدماء فحسب بل نجدها قائمة حتى بالنسبة للمعاصرين فأطلقوا كلا منهما محل الآخر بلا تحديد ولا توضيح للفرق بينهما ·

فقد جاء في كتاب النهاية في غريب الحديث والاثر : الراية : العلم · وحديدة مستديرة على قدر العنق تجعل فيه ومنه الدين راية الله في الارض يجعلها في عنق من اذله ·

وذكر صاحب لسان العرب (في مادة لوى) ان اللواء العلم والجمع الوية والويات جمع الجمع قال :

جنح النواصي نحو الوياتها ·

وفي الحديث لواء الحمد بيدي يوم القيامة ، اللواء : الراية ولا يمسكها الا صاحب الجيش قال الشاعر ·

غداة تسايلت من كل أوب كتائب عاقدين لهم لوايا

قال وهي لغة لبعض العرب تقول احتميت احتمايا ·

والالوية : المطارد وهي دون الاعلام والبنود ، وفي الحديث لكل غادر لواء يوم القيامة أي علامة يشهر بها في الناس لان موضوع اللـواء شهرة مكان الرئيس ·

وما جاء في اللسان هو عين ما جاء في الصحاح وغيره من القواميس ·

اما صاحب المخصص فيذكر ان الغاية : الراية وقد غييت غاية ـ عملتها وأغييتها ـ نصبتها · والعلم الراية والجمع اعلام وكذلك العقاب وهي انثى وقيل هي العلم الضخم وعن ابن دريد · الخال : اللواء وام الرمح اللـــواء وما لف عليه ·

وذكر النويري في نهاية الارب ان الام هي العلم الذي يتبعه الجيش ويقال خفقت الراية اذا اضطربت والعلم الراية وقيل الذي يعقد على الرمح، والعقاب العلم الضخم ، والغاية هي الراية واللواء دون الاعلام والبنود ··

وأورد القلقشندي في صبح الاعشى ان الاعلام هي الرايات التي تحمل خلف السلطان ، وهي من شعار الملك القديمة ·

وقد ورد ان النبي (ص) كان يعقد لامراء سراياه الرايات عند بعثها · ثم قد يعبر عن بعضها بالعصائب جمع عصابة وهي الالوية اخذا من عصابة الرأس ، لان الراية تعصب رأس الرمح من اعلاه ، وسميت الرايةبذلك لانها تكون في اعلى الرمح ··

وجاء في بلوغ الارب (للآلوسي) واما اللواء ويسمى العلم ايضا فكان في الاصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه ، قال ابو بكر بن العربي : اللواء غير الراية فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى

عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح ٠٠ وقيل اللواء دون الراية وقيل اللواء : العلم الضخم ، والعلم علامة لمحل الامير ، يدور معه حيث دار ، والراية يتولاها صاحب الحرب ٠ وكانت عادة جميع العرب اتخاذ اللواء في حروبهم ومن عاداتهم جعل الرايات في اطراف الرماح ٠

أما جرجي زيدان فقد اورد في تاريخ التمدن الاسلامي ان اللواءوالراية شيء واحد وربما كان اللواء أصغر من الراية أو ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب ، وهي الاعلام أو البنود أو البيارق في اصطلاح هذه الايام ٠

والراية قديمة في التاريخ اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم وكانت شائعة في عرب الجاهلية قبيل الاسلام وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها ٠

ومن هذه النصوص التي ذكرناها نستطيع أن نلمس الخلط بين هذه المصطلحات والملابسات التي تحيط بكل لفظة من تلك الالفاظ ٠٠ على ان هذا الخلط لم يكن مقتصرا على كتب اللغة والادب وانما تعداه الى كتب الحديث والسيرة والتاريخ ٠٠

٢ ـ في الشعر الجاهلي

اما الشعر الجاهلي فاذا رجعنا اليه وجدنا هذه الالفاظ تتكررفي احاديث الشعراء وتبرز خلال قصائدهم وهي تحمل معاني اخرى الى جانب المعاني الحربية وخصوصا كلمة الراية ٠

وسنحاول في هذا الحديث تصنيف المعاني التي جاءت فيها عبارة اللواء ثم الراية ثم العقاب مستدلين على ذلك بما وجدناه من النصوص ٠

فهذا النابغة الذبياني يخاطب زرعة بن عمرو العامري ويصف قومه فيقول :٠

مستحقبي حلق الماذي يخدمهم   شم العرانين ضرابون للهام
لهم لواء يكفي ماجد بطل   لا يقطع الخرق الا طرفه سام

فلواء قومه يحمله بطل ماجد

وعنتره العبسي يصف قومه في يوم عراعر فيقول

كتائب شهبا فوق كل كتيبة   لواء كظل الطائر المتصرف

فاللواء يخفق فوق كل فرقة من جيش قبيلته وهو كظل الطائر المتنقل
وقيس بن الخطيم يشير الى شجاعة قومه فيقول

وقد جربت مني لدى كل ماقط   وحى اذا ما الحرب القت رداءها
وانا اذا ما ممتر والحرب بلحوا   تقيم بأساد العرين لواءها

وهذا الحارث بن حلزه يفخر بقومه عندما هاجمهم قوم من بني شيبان

فردوهم وقتلوا منهم فيقول .

آية شارق الشقيقة اذ جا ءوا جميعا لكل حي لواء

وقد يطلقون على اللواء اسم الخال كما ورد في قول عنترة في حديثه عن قتل قرواش وقتل عبدالله بن الصمة اخي دريد .

فان يك عبدالله لاقي فوارسا يردون خال العارض المتوقد

وكما ورد في قول الاعشى يرد على بني عباد ومالك ابني ضبيعه مكنيا عن الهزيمة بتقهقر اللواء .

نقيم لها سوق الجلاد ونعتلي بأسيافنا حتى نوجه خالها

والذى نستطيع أن نقوله في ذلك هو ان اللواء كان يرفع في الحرب ويدل على قبيلة معينة كما هو واضح من النصوص المتقدمة ، فالنابغة عندما يصف قومه يصفهم وهم يحملون لواءهم وعنتره يفخر بهم ولواءهم يخفق فوق رؤوسهم وقيس بن الخطيم يشيد بقومه وهم يقيمون اللواء ..

وكما كان اللواء يرفع في الحرب ويحمله بطل ماجد يعرف بين قومه بالشجاعة ، فقد كان يحفظ في بيت من بيوتات القبيلة تتميز بالعزة والرفعه ، فقد ظل اللواء في ربيعة لعظم شأنها في تاريخ العرب ، وكان لواءهم في عنزة وكانت سنتهم أن يوفروا لحاهم ويقصوا شواربهم فلا يفعل ذلك من ربيعة الا من يخالفهم ويريد حربهم ، ثم تحول اللواء الى عبد القيس وكانت سنتهم اذا شتموا لطموا واذا لطموا قتلوا من لطمهم ، ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط وكان لهم غير سنه من تقدمهم ثم تحول الى بكر بن وائل فساءوا غيرهم .. ثم تحول اللواء الى تغلب فوليه منهم وائل بن ربيعه وهو (كليب) فكانت لهم سنة يتبعونها .

وللواء في بيت قصي قصة طويلة تدل على أهمية هذا المنصب .. فقد اجتمعت لقصي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة .

والحجابه سدانة البيت أي تولى مفاتيحه ، والسقاية ، اسقاء الحجيج الماء العذب الذى كان عزيزا بمكه ، واسقاؤهم كذلك نبيذ التمر ، والرفادة اطعام الحاج جميعا . والندوة رياسة الاجتماع كل ايام العام . واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى عدو . والقيادة امارة الجيش اذا خرجوا الى حرب وكانت هذه المناصب كلها معتبره في مكة.

وكان قصي شديد الحب لعبد الدار ، وكان عبدالدار مضعوفا فجعل له بعده دار الندوة والحجابة واللواء والرفادة والسقاية . وقد ظل اللواء في بني عبدالدار حتى كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحه بن ابى طلحه بن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار ، وكان لواء رسول الله (ص) مع مصعب الخير بن عمير بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصي .. وكان لواء

المشركين يوم أحد ايضا مع طلحة بن ابى طلحة فقتله علي بن ابى طالب عليه السلام ·

ثم اخذ اللواء بعده اخوه ابو سعد بن ابى طلحة ، وقامت النساء خلفه وهن يقلن :

ضربا بنى عبد الدار ضربا حماة الادبار

فقتله سعد بن ابى وقاص ثم اخذه عثم بن ابى طلحه وهو ابو شبه ابن عثمان وجعل يقول

ان على كل رئيس حقا أن يخضب الصعدة او تندقا

فقتله حمزة بن عبدالمطلب (رض) ضربه ضربة بدا منها حقوه(١) ثم رجع وهو يقول :

انا ابن ساقى الحجيج ·

ثم حمله مسافع بن طلحة بن ابى طلحه فقتله عاصم بن ثابت بن ابى الاقلح الانصارى ثم اخذه اخوه الجلاس بن طلحه بن ابى طلحه ، فرماه عاصم بن ثابت الاوسى ايضا فقتله فلما احس بالموت دفع اللواء الى أخيه كلاب بن طلحة بن ابى طلحة ، فرماه قزمان حليف بنى ظفر من الانصار فقتله ، فأخذه الحارث بن طلحة بن أبى طلحه فقتله قزمان ايضا ، وكان قزمان منافقا فقاتل حمية ثم اخذه شرحبيل بن هاشم ويقال هو عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار فقتله مصعب بن عمير · وظل ينتقل اللواء حتى اخذه مولى لهم يقال له صواب حبشى فقطعت يمينه ، قطعها قزمان فأخذه بيساره فقطعت فالتزم القناة وهو يقول « أعذرت يا بنى عبد الدار » فرماه قزمان فقتله ووقع اللواء وتفرق المشركون فأخذته عمرة بنت الحارث بن علقمة بن زراره بن عبد مناف بن عبدالدار فقال فيه حسان بن ثابت ·

عمرة تحمل اللواء وولست عن صدور القنا بنو مخزوم
لم تطق حمله الزعانف منهم انما يحمل اللواء الكريم

فلما اسلم بنو عبدالدار قالوا : يا نبى الله ، اللواء الينا · فقال (ص) الاسلام اوسع من ذلك فبطل اللواء ، ولما قتل مصعب بن عمير ، ومعه لواء رسول الله (ص) اخذ اللواء (ملك) تشبه بمصعب حتى دخل المدينة ويقال اخذه ابو الروم أخوه وكان من مهاجرة الحبشة فدخل به المدينة وقال حسان :

فخرتم باللواء وشر فخر لواء الكفر رد الى صواب
جعلتم فخركم جهلا وجبنا لألام واطىء عفر التراب

وكما كان اللواء يرفع فى الحرب فقد كان يرفع للهجاء ، فقد كانت

العرب تنصب الالوية فى الاسواق الحافلة لغدرة الغادر لتشهير فعله الخسيس الذى يفتضح به بين الناس اذا ظهر والى ذلك يشير زهير بن ابى سلمى ٠

وتوقد ناركم شررا ويرفع لكم فى كل مجمعة لواء

وفى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام :لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به ، دلالة اخرى على ارتفاع اللواء لغرض التشهير والاعلام بصفة الغدر ليذمه اهل الموقف ٠

٣ - فى كتب الحديث والسيرة

لقد اشرنا الى الملابسات التى رافقت الفاظ اللواء والراية فى معاجم اللغة والقواميس وما شابهما من الغموض والابهام فصعب التميز بينهما ٠٠ وعلى ان هذا الخلط كما بينا لم يكن مقتصرا على تلك الكتب فقط وانما تعداه الى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، فقد جاء فى صحيح البخارى فى باب ما قيل فى لواء النبى (ص) اللواء بكسر اللام والمدالراية وهى العلم أيضا أو هو غيرها ، وهى ثوب يجعل فى طرف الرمح ويخلى كهيئته تصفقه الرياح ٠٠ والعلم يعقد أو هو دونها أو هو العلم الضخم ، وعلى التفرقة قوم كالترمذى ويوءيده حديث ابن عباس المروى عنه واحمد ٠ كانت راية رسول الله (ص) سوداء ولواوءه ابيض ومثله عيد الطبرنى عن بريده ٠

والذى صرح به غير واحد من اهل اللغة ترادفهما ، فلعل التفرقة بينهما عرفية وقد كانت الراية يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه ، واما العلم فعلامة لمحل الامير يدور معه حيث دار ، وكان اسم رايته عليه السلام العقاب ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يدفع الى كل رئيس قبيلة لواء يقاتلون تحته ، وقد أعطى الرسول (ص) الراية للامام على (رض) ففتح الله عليه خيبر وقال (ص) : لاعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ، وعن نافع بن جبير قال ، سمعت العباس بن عبدالمطلب يقول للزبير بن العوام (رض) امرك النبى (ص) أن تركز الراية ٠٠

ومن هذا نستطيع أن نقول بأن الراية لم تكن خاصة بشخص بعينه بل كانت تعطى فى كل غزوة لمن يريده الرسول (ص) وان الراية لا تركز الا باذن الامام أو القائد لانها علامة عليه وعلى مكانه ولا يمكن أن يتصرف فيها الا بأمره ٠

ويذكر ابو داود فى سننه فيقول حدثنى يوس بن عبيد مولى محمد بن القاسم قال : بعثنى محمد بن القاسم الى البراء بن عازب يسأله عن راية رسول الله (ص) ما كانت ؟ فقال : كانت سوداء مربعه من نمره (هى

برده من صوف يلبسها الاعراب فيها خطوط من بياض وسواد) .

وفي حديث لابن الزبير عن جابر يرفعه الى النبي (ص) انه كان لواوءه يوم دخل مكه ابيض وفي رواية عن سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم قال : رأيت رسول الله (ص) صفراء وعن ابن اسحاق وابن سعد . لم تكن الرايات الا يوم خيبر وان الرسول (ص) فرق الرايات يومئذ بين ابى بكر وعمر والحباب بن المنذر وسعد بن عبادة (رض) وانما كانت الالوية وكانت راية رسول الله (ص) سوداء من برد لعائشة (رض) تدعى العقاب .

وفي كلام المقريزي لما ذكر رتب الرياسة في الجاهلية ذكر ان العقاب كان في الجاهلية راية تكون لرئيس الحرب وجاء الاسلام وهي عند ابى سفيان .

وفي سيرة الحافظ الدمياطي كانت له (ص) راية سوداء مربعة من نمره مخملة يقال لها العقاب وكان له راية صفراء ولواوءه ابيض دفعه الى الامام علي كرم الله وجهه .

ويذكر الحافظ الدمياطي ايضا انه كانت الويته (ص) بيضا وربما جعل فيها الاسود ولعل السواد كان كتابة في ذلك العلم ولعل هذا اللواء الذي فيه الاسود هو المعني بما جاء في بعض الروايات .

ويذكر صاحب السيرة الحلبية في مكان آخر ان قوله (ص) لارفعن الراية اطلاق على اللواء ومن ذلك قوله (ص) لعلي كرم الله وجهه ، خذ هذه الراية وتقدم ، فالراية قد يطلق عليها لواء هذا وفي كلام بعضهم أن أبا سفيان كانت اليه الراية المعروفة بالعقاب التي كانت لا يحبسها الا رئيس اذا حميت الحرب . ولعل تسمية رايته (ص) بالعقاب لكونها كذلك .

وفي رواية أخرى ان النبي (ص) البس الامام عليا درعه الحديد وشد ذا الفقار في وسطه وأعطاه الراية ووجهه الى الحصن فخرج علي (كرم الله وجهه) بها يهرول حتى ركزها تحت الحصن ، وقيل دخل (ص) وعلى رأسه المغفر وقيل عليه عمامة سوداء حرقانية قد ارخى طرفيها بين كتفيه بغير احرام ورايته سوداء ولواوءه اسود وعن عائشة (رض) كان لواوءه يوم الفتح ابيض ورايته سوداء تسمى العقاب .

واما تكثير الرايات وتلوينها واطالتها فقد ذكر ابن خلدون ان القصد به التهويل لا اكثر وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الاقدام وأحوال النفوس وتلوناتها غريبة . ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات ، فمنهم مكثر ومنهم مقلل بحسب اتساع الدول وعظمها ، فأما الرايات فانها شعار الحروب من عهد الخليقه ، ولم تزل الامم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات لعهد النبي (ص) ومن بعده من الخلفاء .

---

(١) الحقو بالفتح : الازار وشده والخصر .

من مظاهر تأثير الأدب العربي في الأدب الفارسي

احمد نصيف الجنابي



شغل الباحثون المحدثون ببيان (تأثير الادب الفارسي في الادب العربي) خلال عهود الاتصال التام بين البلدان الاسلامية(١) وتوسعوا في البحث حتى غالوا في بعض الاحايين في تعيين نوع التأثير ومداه

ومع اعترافنا بأن التأثير موجود ، ولكن لا كما صوروه أو أرادوا تصويره • ومع كثرة البحوث التي تناولت تأثيرات الادب الفارسي في الادب العربي فلا نجد تلك الكثرة في بحث (تأثير الادب العربي في الادب الفارسي) ، مع وجود [تأثيرات متبادلة] بين الادبين • ولهذا بحثت في تأثير الادب العربي في الادب الفارسي ومظاهره •

مظاهر التأثير :

(أولا) أول مظهر للتأثير ترك كثير من اهالي ايران بلادهم الى «بغداد» أو غيرها من عواصم البلدان الاسلامية ، وامتزاجهم بأهلها ، لان الاسلام قد جمع بينهم فهو وطن وجنسية ولم يكن احدهم يحتاج الى شيء لكي يدخل اي بلد من بلاد الاسلام سوى الاسلام . حتى في عهود التفكك السياسي في القرن الخامس والسادس وحتى السابع والثامن وما بعدها . وقد حدث الامتزاج منذ القرن الثاني الهجري . حتى اتى زمن لا يعرف فيه الابناء لغة آبائهم واجدادهم ، وتأريخ الادب زاخر بهذه الاسماء(٢) ... وكان قسم من الادباء المعروفين في تأريخ الادب يتقن الفارسية والعربية(٣) . وأشهر هؤلاء (سعدي الشيرازي) شاعر ايران العظيم الذي امتد اثره الى اوربا فأثر ، على وجه الخصوص ، في شاعر المانيا الشهير جوته(٤) . ومعنى ذلك ان الادب العربي أثر في الادب الالماني عن طريق سعدي بصورة غير مباشرة .

(أ) حافظ وجوته والادب العربي :

لقد أثر حافظ في الادب الالماني وخاصة في أدب جوته Goethe تأثيرا واضحا(٥) ، وقد صرح بذلك جوته نفسه في ديوانه الذي سماه « الديوان الشرقي » ، الذي مجد فيه الشيرازي وعظمه . فقد خصص في ديوانه هذا كتابا سماه (كتاب حافظ)(٦) وقد اعلن جوته عن هذا الكتاب في المجلة الشرقية (سنة ١٨١٦ رقم ٤٨ صفحة ١٨٩) ، ما يأتي: (ماهو ذا كتاب حافظ ، وقد كرس لوصف هذا الرجل العظيم وتقديره وتمجيده . كما أن به تعبيرا عن الصلة التي تربط بين الشاعر الفارسي والشاعر الالماني الذي تحمس له وتعلق به الى درجة من الوجد هائلة ونعته هنا بأنه لا يستطيع أن يبلغ شأوه ، ولا أن يلحق به) . وسمى الكتاب التالي: (كتاب العشق او عشق نامه)(٧) وهو مأخوذ عن سعدي أيضا . وفي الديوان اشارات كثيرة الى حافظ وتصريحات واضحة على لسان جوته بأنه تأثر بحافظ واقتفى أثره(٨) .

(ب) حافظ والادب العربي

ولد مصلح الدين عبدالله بن شرف بن مصلح بن شرف المعروف بالشيخ سعدي في شيراز (كما يقول في كلستان صفحة ١٣٦) في أوائل القرن الرابع الهجري . وكان رجال اسرته كلهم علماء . ومات والده وهو طفل (راجع كتابه بوستان صفحة ٧٠) وفارق شيراز لانها كانت مضطربة (قبل سنة ٦٢٣هـ) فأتى بغداد(٩) وأقام بها مدة طويلة ودرس في النظامية واتصل بأساتذتها وأشهر من اتصل بهم :

١ ـ ابو الفرج عبدالرحمن بن محيي الدين المعروف بابن الجوزي ويقول سعدي عنه :«أمرني الشيخ الاجل أبوالفرج ابن الجوزي بترك السماع»(١٠).

٢ ـ شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمد السهروردي ، وهو غير السهروردي صاحب المذهب الاشراقي المعروف المقتول سنة(٥٨٧ هـ = ١١٩١م) واسم الاخير يحيى بن حبش بن اميرك السهروردي(١١).

وقد عاصر السعدي سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم وقتل كثير من أهلها سنة ٦٥٦ للهجرة ، فرثاهم بقصيدته العربية المشهورة التي تزيد على تسعين بيتا . واولها :

حبست بعيني المدامع لا تجري	فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها	تمنيت لو كانت تمر على قبري
لان هلاك النفس عند أولي النهى	احب لهم من عيش منقبض الصدر
تسائلني عما جرى يوم حصرهم	وذلك مما ليس يدخل في الحصر
أديرت كؤوس الموت حتى كأنه	رؤوس الاسارى ترجمن من السكر
بكت جدر المستنصرية ندبة	على العلماء الراسخين ذوي الحجر

وسافر من بغداد الى الشام وتركيا (بلاد الروم آنذاك) وزار كثيرا من الممالك الاسلامية ثم رجع الى بلدته شيرازومات(١٢) هناك سنة (٦٩٤ هـ) وأكثر سعدي الاقتباس من الامثال العربية والقصص وتجدها مبثوثة في ثنايا كتابه « كلستان » . وقال مجد العلى « اغلب قصص كلستان الاستاذ الاجل سعدي ـ مثل أكثر الكتب الفارسية المعتبرة ـ ترجمة من الاخبار والآثار العربية»(١٣).

كما أنه أكثر من أخذ معاني الشعر العربي وخاصة من (المتنبي) :

فقد أخذ من معاني المتنبي ما يزيد على مائة معنى(١٤) وأعجب بالمتنبي كثيرا ، وهو القائل : « كنت انظر في جزء من شعر المتنبي سفينة بحر المعاني الحافل بالدر النفيس»(١٥).

وقد تأثر سعدي بغير المتنبي ولكن تأثير المتنبي فيه لا يقارن بغيره . فقد « كان سعدي عارفا معاني اللغة العربية كامل الاطلاع على دواوين شعرائها ، وقد استعمل تلك المعاني بمهارة تامة(١٦)».

(ثانيا) ومن مظاهر التأثير (المتبادل) ، ذلك الامتزاج العجيب بين المؤلفات الادبية التي كتبت بالفارسية حتى « ان كثيرا من المؤلفات الادبية في هذه الفترة لم تكن فارسية خالصة وليست عربية خالصة ، بل انها مزيج من ذلك . حتى الكتب الفارسية كانت تجمع كثيرا من الاستشهادات العربية الخالصة»(١٧).

فالراوندي يروي في كتابه (راحة الصدور) كثيرا من الشعر العربي الخالص(١٨) مع ان الكتاب فارسي . والدراسة الفاحصة لكتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط (المتوفى سنة ٥٧٣ هـ)

ترينا مدى امتزاج البلاغة الفارسية بالعربية في القرن السادس الهجرى · والكتاب ذو أهمية خاصة من هذه الناحية ·

وأزيد الامر وضوحا فأقول : ان أشهر الشعراء الذين نظموا اشعارهم بالفارسية او كتبوا كتبا فى الادب الفارسى ، وكانت الغاية منها تقديمها الى قراء الفارسية فى ايران خاصة ، كانت تحتوى على مئات الكلمات العربية او على كثير من الاستشهادات العربية · بل بعض الكتاب كان يورد بيتا شطره الاول بالفارسية والثانى بالعربية ويتبعه ببيت شطره الاول يحتوى على تفعيلات لوزن عربي وشطره الثاني شطر شعر عربي(١٩) ·

(ثالثا) وثالث هذه المظاهر يمكن حصره فى نقاط اهمها ما يأتى :

(أ) ظهور موءلفات بالفارسية لا يتمكن من مطالعتها الا من اتقن الفارسية ومع ذلك فهى ذات عناوين عربية خالصة · ومن امثلة ذلك : « راحة الصدور » للراوندى ، و « حدائق السحر فى دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط و « المعجم فى معايير اشعار العجم » لشمس الدين محمد بن قيس الرازى وغيرها كثير ·

(ب) انتشار الكلمات العربية بكثرة فى المؤلفات الفارسية بحيث نستطيع ان نقول : انه لا يوجد كتاب فى الفارسية ــ كتب منذ القرن الثانى حتى الان ، الا وفيه قوائم بالتعابير والكلمات العربية ، حتى أنك تجد احيانا كلمات فارسية نسى أصلها الفارسي وأخذت عن العربية ، كما أورد الثعالبي فى فقه اللغة ·

(ج) وجود كثير من معانى الشعر العربى فى الدواوين الشعرية الفارسية بل ان أكثر من تأثر بالشعر العربى هم أكثر شعراء ايران شهرة واليك قائمة بأشهرهم مرتبة حسب تواريخ وفياتهم(٢٠):

(١) العنصري المتوفى سنة ٤٣١ هجرية (٢) المنوچهري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ (٣) قطران التبريزى المتوفى سنة ٤٦٦ هجرية (٤) الاديب صابر المتوفى سنة ٥٤٦ هـ (٥) الانورى المتوفى سنة ٥٦٥ هجرية (٦) سعدى المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ·

وأكثر من تأثروا به هو ابو الطيب المتنبى · ويوءيد هذا الاديب الايرانى رشيد الدين الوطواط فيقول « كل الشعراء الاسلاميين عيال على المتنبى(٢١)» وكان سعدى يطلق على ديوان المتنبى « سفينة بحر المعانى(٢٢)» · ويظهر أن كتاب سعدى المعروف بالكليات كثير التأثر به(٢٣) ·

ولعل ذلك يرجع ــ فيما أرى ــ الى أن كلا من المتنبى وسعدى كانوا يميلون الى الحكمة والفلسفة فى شعرهم ·

ومما يرجح ذلك أن الشعراء العرب الذين أكثر الشعراء الفرس اخذ المعانى الشعرية عنهم هم :

المتنبى بالدرجة الاولى

ابو تمام بالدرجة الثانية
صالح بن عبدالقدوس بالدرجة الثالثة
ولا يخفي ما في شعر هوءلاء من معان فلسفية كثيرة وحكمة ٠

أما ما أخذوه من الشعراء الاخرين فلا يكاد يخرج عن هذا الحكم فى الغالب ٠

ويوءيد رأينا أن الانورى الشاعر الايرانى المشهور (المتوفى سنة ٥٦٥ هجرية) لم يشر فى ديوانه الا الى قصيدة المتنبي) احاد ام سداس فى احاد)، ولا يخفى ما فى هذه القصيدة من معان فلسفية ٠

فقد فسر البيت الاول من القصيدة وهو

أحاد أم سداس في احاد   لييلتنا المنوطة بالتنادي

بالبيت التالى :

كأن بنات نعش فى دجاها   خرائد سافرات فى حداد

وقد فسره «ماسينيون» كذلك وجعل العدد (٧) رمزا لبنات نعش واعتبر طه حسين رأى «ماسينيون» طريفا(٢٤)٠

ولا غرابة فى ذلك فقد كان المتنبى ـ كما يقول الاستاذ ضيف ، مثقفا بالثقافة الفلسفية التى عاصرته يستعير حكمها وبعض أفكارها وما يطوى فيا من اقيسة منطقية وقوالب فلسفية(٢٥)٠

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ١/١٨٢ وما بعدها (الطبعة الخامسة ١٩٥٦) ، وشوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى صفحات ١١٧ـ١٢٩ (الطبعة الرابعة ١٩٦٠) ٠

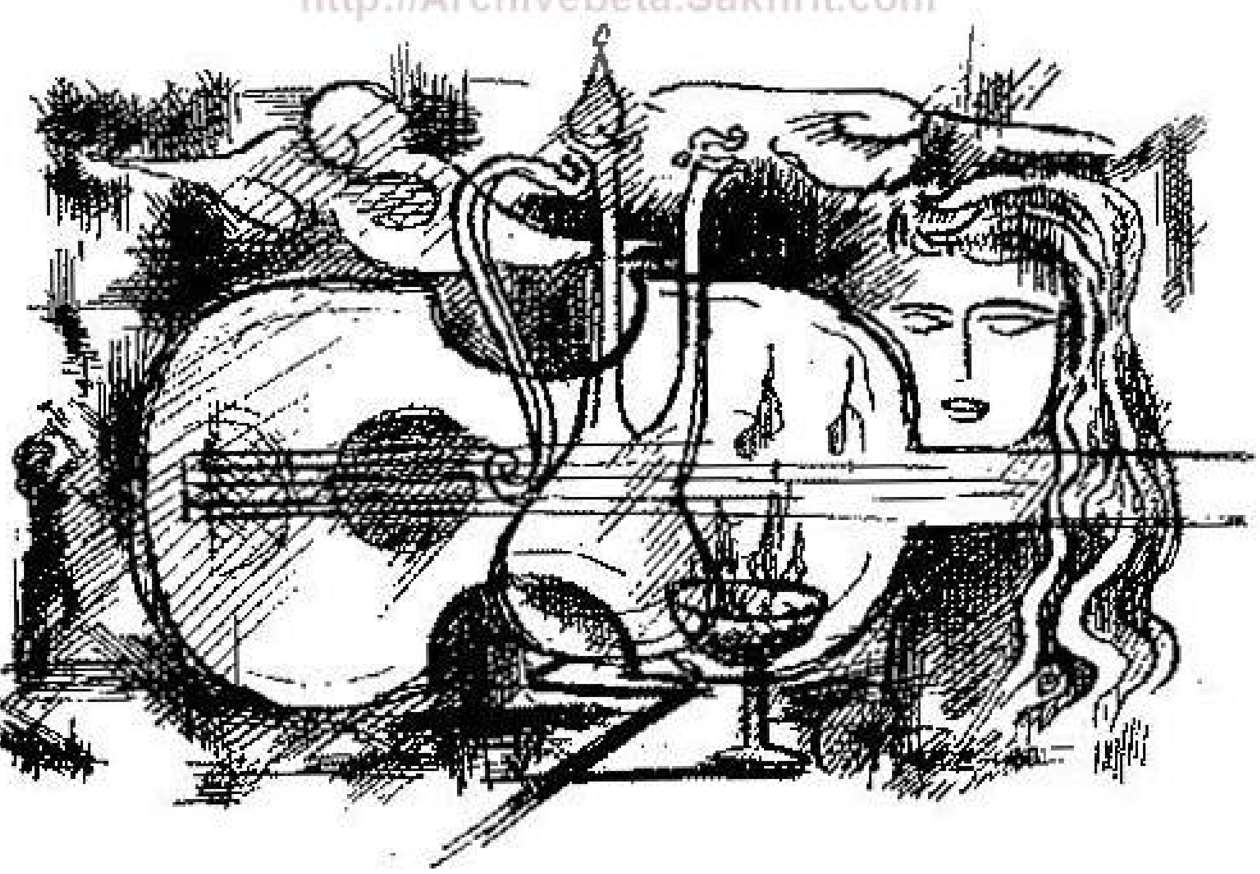
(٢ ، ٣) على بن الحسن الباخرزى : دمية القصر ص ٢٨٧ ومواضع متفرقة ٠

(٤) ولد « جوته » فى فرانكفورت ١٧٤٩ وتوفي فى ١٨٣٢ فى فايمار Weimar واشهر موءلفاته « فاوست » ، و « آلام فرتر » و «الحقيقة والشعر» : والاخير تاريخ حياته ٠

(٥) الشرق والاسلام فى ادب جوته : صفحات ٦٩ وما بعدها ٠

(٦) جوته : الديوان الشرقى للموءلف الغربى ، صفحات ١١٥ـ١١٦ ترجمة عبدالرحمن بدوى طبعة مصر ١٩٤٤ ٠

(٧) نفسه ١٣٨ وما بعدها .
(٨) نفسه ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٦٢ .
(٩) الدكتور حسين محفوظ المتنبي وسعدى صفحات ٥ وما بعدها .
(١٠) سعدى الشيرازى : كلستان ص ٦٥ ، (عن الكتاب السابق) ، وانظر ابو الجوزى: تلبيس ابليس ص ٢١٤ وما بعدها لمعرفة معنى « السماع ».
(١١) عبدالرحمن بدوى : شخصيات قلقة ص ٩٥ .
(١٢) المتنبى وسعدى ص ٧٣ .
(١٣) نفسه ٦٤ .
(١٤) نفسه : صفحات ٢٢٦ ــ ٢٧٩ .
(١٥) نفسه ص ١٦ .
(١٦) المتنبى وسعدى ص ٦٤ .
(١٧) بحثنا : مدارس الشعر فى العراق وايران فى القرن الخامس والسادس ، المدخل (لم ينشر بعد).
(١٨) انظر الراوندى : راحة الصدور صفحات ٢٤٠ ــ ٢٤١ .
(١٩) انظر المتنبى وسعدى ص ١٥ ، ١٦ .
(٢٠) المتنبى وسعدى : ص ١٨ .
(٢١ـ٢٣) نفسه : صفحات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .
(٢٤) مع المتنبى : ص ٨٥ (ط دار المعارف بمصر ١٩٤٩) .
(٢٥) شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٢٢٨ (ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠).





لقاء مع الفنان

أكرم شكري

رسمت «الاقلام» لنفسها خطة تستهدف عقد اللقاءات التي تطرح فيها للنقاش أبرز قضايا الفكر والعلم والفن. مع واحد او أكثر من المبرزين في تلكم المجالي

الاستاذ أكرم شكري مدير المعارض العام وكان ضيف العدد الاول الرسام المعروف

قلنا للفنان « شكري » حدثوا الاقلام عما تختارونه من موضوعات الساعة

في مجالات فن الرسم ... فقال اعطوني مفاتيح النقاش لالج الموضوع ..
فكان السوءال :
ـ هناك من يذهب الى أن العراق يحتل مكان الصدارة في فن الرسم بين الاقطار العربية ، كما ان له مكانته العالمية .. ما هو رأيكم في ما ذهب اليه إصحاب هذا الرأى ... ثم ، كفنان معاصر ينتهج المدرسة الفنية الحديثه .. ما رأيكم بالقديم والحديث وما بينهما ؟
قال الاستاذ الفنان اكرم شكرى :
موضوع « طليعية » العراق فى فن الرسم موضوع طالما طرق ونوقش وأختلف فيه .
وعندى اننا اذا ما أردنا ان نقيم المسألة ونثمنها على اسس فنية مدروسة لابد لنا ان نضع جانبا نزوات الشباب وتطرف المحدثين ومبالغات العاطفيين.
انني لا اشك مطلقا في ان حركة فن الرسم بالعراق تتمتع بخير وعافية لكن ذلك لايعني البته (طليعية) العراق في هذا الفن. والواقع انني ـ انطلاقا من واقع ملموس ـ ارى ان الحركة الفنية فى عراقنا طفرت طفرات بارزة فى فترات معينة ولكن ذلك لا يعطيها مكان الصدارة ولا يبوأها منزلة السمو . ولنضرب على ذلك مثلا من واقع الحركة الفنيـة العربيـة ـ وارجو أن يكون واضحا انني أقصد بالحركة الفنية حركة فن الرسم دون غيرها من الفنون ـ أقول : المعروف أن في الجمهورية العربية المتحدة أكثر من عشرة فنانين لهم مكانتهم الفنية دوليا ويتمتعون بكل امتيازات الفنان العالمي بينما لا نجد فى العراق اكثر من فنانين اثنين لهم سمعتهم الدولية وان لم يبلغوا الشأو الذي بلغه الزملاء فى الجمهورية العربية المتحدة .
واذكر فى هذا المجال ان الجمهورية العربية المتحدة شاركت فى معرض (بروكسل للفن الحديث) وفي معرض (فينس الدولى المسمى البيانالة) بأربعة فنانين بينما لم يشـارك العراق . فهلا ينفى ذلك رأى الـذين يصـرون على (طليعية) العراق بين الدول العربية فى فن الرسم ويدحضه ؟.
والسبب عندى يكمن في حقيقة موضوعية تلك هي ان فن الرسم هناك ـ في الجمهورية العربية المتحدة ـ تدرج تدرجا طبيعيا ودرس وفحص وقدرت نتائجه وقيمت اهميتها بينما قسح العراق مجال « الطفرة » الفنية ، فحـدث اكثر من خروج جانبى واحد عن المفهوم الفني المعروف . ولنتساءل بعد ذلك كله ـ وما دام السؤال يتناول موقفي ـ كفنان ـ من مدرسة الرسم الحديث، هل ان حركة الرسم الحديثـة هى كل الفـن ـ اعنى فن الرسم ، ام انهـا جزء منه ؟.
قبل كل شيء اود ان اثبت هنا انني لا زلت من ممارسيها ـ حركة الرسم الحديث ـ ولكن ذلك لا يعني عندى انها طليعة الفن . انني انتهجتها طريقة ولى فيها رأى .. اصار حكم انني اشعر بضرورة اعادة النظر في موقفي وانني اذا سرت في درو بمعينة فعلي أن أرجع قليلا الى الوراء أتفحص الاثر وأتدارس

الامر •

•• انني أؤمن بالتطور وأشترطـه في الفن فذلك لا يعني أبـدا ان اضع رساما حديثا أبدع في لوحة او لوحات مكان الاساتيذ من ذوى الخبرة القديمة والامكانيات المشهودة ••

وقد يسألني سائل عن تقدم وتطور فن الرسم بالعراق •• فاقول مجيبا على السؤال ، ان حركة فن الرسم كانت متقدمة فعلا في العراق ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٦ • ولكن ـ بعد ذلك ـ اضر النفع الخاص بالمستوى الفني واهبطه وما من شك في ان اجادة الفنان تقل اذا ما شغلته المادة •

ولذلك اسباب كثيرة • تتحمل اكثرها السلطة ويتحمل اقلها الجمهور ••

اذكر في هذا المجال اننا عرفنا عند اقامة المعرض السوري في بغداد قبل عام ان وزارة الثقافة والارشاد السـورية في عهد الوحـدة بين سوريا ومصر رسمت لنفسها سياسة تستهدف تشجيع الفنون ، كل الفنون ، وبمختلف السبل والوسائل وقد استمر تنفيذ هذه السياسة بعد الانفصـال وكان من ثمارها المعرض المشار اليه •

والمهم ـ في رايي ـ ان تكون الحركات الفنية مدروسة ومنتظمة الخطى وان يكون لها من يدفع مسيرتها الى الامام •

ومن الطبيعي انني لا اتشيع للون معين من الفن في فترة معينة وارفض ما عداه ، وليست المسألة مسألة قدم فحسب •• وليس ادل على ذلك من واقع ومكانة فن الرسم في باريس مثلا ••

فهناك مئات ان لم نقل ألوف الفنانين فيها ومدرسة باريس في الرسم مدرسة عالمية وكل كبار الفنانين اضطروا ان يعيشوا بباريس فترة من الزمن لمواكبة الحياة الفنية ومدارستها هناك ولكن ـ ومع ذلك كله ـ لا توجد اليوم دولة ناشئة تقبل بالحركة الفنية الدولية في باريس لانها لا تخلو من اشياء كثيرة يرفضها الفنان الاصيل ومن بينها ، وبصراحة ، الدجل والتفسخ •

ان الفن الحديث تجمعه اليوم عشرات المدارس الفنية ولكنني اتلمس اصبع « بيكاسو » في كل مدرسة منها •

وبيكاسو هذا رجل يوءمن بفلسفة « خالف تعرف » ويريد الى حد القرف ان تلوك الالسنة اسمه ••• انه يرغم نفسه ويكرهها على عمل شيء ما وان لم يكن هناك ايحاء ذاتي لتجسيد العمل الفني ، ومدرسة كهذه تستهوى الشباب ولا شك • وهناك من يشجعها لاسباب سياسية • واستنتاجي هذا ـ أعني تشجيع تلكم الفنون بدوافع سياسية ـ مبني على حقيقة موضوعية ، فمثلا ، لنفرض وجود جالية اجنبية في العراق وان لهذه الجالية نشاطات وفعاليات من بينها تشجيع الحركة الفنية فهل من المنطقي والمعقول أن تشجعني ـ هـذه الجالية ـ انا الفنان ـ على رسم الموضوعات القومية والقضايا الوطنية ؟ •

لا شك ان الجواب السلبي على هذا التساؤل امر من تحصيل الحاصل • ولكن من المعقول جدا والمنطقي الى أبعد الحدود ان تشجعني على رسم القضايا

البعيدة عن المحتوى الوطني والتي تخدم أهدافها ، من قريب أو من بعيد ٠

تلك حقيقة لا تحتمل الخلاف ٠٠٠ وعندي صراحة ، ان أهداف النفوذ الدخيل ، أيا كان نوعه ، وبأي لباس تسربل تعمل على تشجيع الجنوح عن الاطار القومي والمحتوى الوطني في البلد الذي تطمع في السيطرة عليه ، كلا أو جزءا ، وما تشجيع «الفرنجة» و «الافتعالات الفجة» و «التظاهر السقيم» فى ذوات بعض الادباء والفنانين عندنا من قبل ذوى الاطماع الا من ذلك المنطلق والهدف ٠

فمصالح الطامعين تتوسل بكل السبل وبمختلف الوسائل والاستعمار دائما وأبدا ـ في صراع عنيف مع الشعور القومي والروح الوطنية ٠

ذلك استطراد عام قادني اليه سؤالكم ، ومن تداعي الخواطر ومواصلة الاستطراد أود أن أشير الى أنني أرى في حركة النحت العراقي ما يبشر بخير للمستقبل وان كانت الحركة ذاتها لما تزل حركة ناشئة ٠

وعندى ان الفنان (محمد غنى حكمت) بدأ يرتاد الطريق السليمة التى ـ لا اشك ـ فى انها ستوصله الى الهدف المرجو يوما ان هو واصل خطاه بعيدا عن مغريات المال ٠ انا لا اشك مطلقا ان المال عصب الحياة وان الفنان ـ اى فنان ـ قد يحتاجه اكثر من غيره ولكنه قد يخسر الفنان فنه ان هو اندفع فى



طلبه وغالى فيه وهذا هو الذى غير خط الكثير من فنانى النحت الذين انصرفوا الى الرسم وتركوا هوايتهم الاصلية جانبا ·

بعد كل هذا اود ان اتساءل ، فى معرض الاستطراد ، وعلى ذكر الفن ، قديمة وحديثه ، : هل ان الفن الحديث هو كل الفن ؟

المعروف ان الانطلاقات الحديثة فى الفنون ـ كل الفنون ـ بدأت فى أوقات متقاربة في أوربا والسبب واضح جلي فان للتطور أحكامه ، وهناك موءثرات مشتركة يخضع لها الفنان وتوءثر فيه ويتفعل بها فتنعكس فى فنه· فالحرج الاقتصادى مثلا يجعل الفنان ينفعل انفعالات خاصة ·· يتطلع ·· يندفع ·· يعانى الكثير من اللحظات المنفعلة ، ولهذا كله أثره في الفن ·· ثم هناك الشعور والتحسس بتجارب الحياة المعاشة ذاتها ، هذه الاختراعات ، الاكتشافات ، الصعود الى الاقمار ، مبدعات الحضارة الحديثة بما فيها من زخم وقوة ·· كلها دفعت الفنان الى ان يجدد نفسه ، وفنه ، ويوءطر انفعالاته واحساساته في آهاب فني جديد فكانت المدرسة الحديثة ·· ولكن ·· هناك جملة تساوءلات تعقب على اراء الفنانين المتباينه · فالمحدثون يقولون : اذا كان الفن هو شعور وعواطف فليس ثمة فائدة ترجى في أن يجهد الفنان نفسه لكي يرسم موضوعا معينا : وطبيعى ان قاموس الفن لا يورد كلمة « فائدة » اصلا·· وغيرهم يذهبون الى ان الموضوع هو هدف الرسام وغايته · ولست اشك في ان المحدثين اذا ما راجعوا انفسهم يجدون انهم تطرفوا كثيرا · انني اوءمن بأن هناك فنا قديما له أسسه الرصينة وهناك الفن الحديث واذا ما تحقق هذا عبر تطورات فنية منطلقة من ذلك فهو عندي الافضل · فكما ان هناك من نقاد الشعر من يرى ضرورة اتقان الشعر القديم واوزانه وقوافيه كمقدمة لازمة قبل ممارسة الشعر الحديث فنقاد الرسم ـ او بعضهم على وجه الدقة ـ يذهب هذا المذهب · وطبيعي ان ذلك لا يعني مطلقا اننا نرفض فنانا حديثا مبدعا لانه لم يتقن مدرسة الفن القديم ··

وبعد ، اننا لا نستطيع ان نضع للفن حدودا ، كما تحدد قضايا العلم ، وهذا هو السبب الذى جعل « الخروج » و « الانعطاف » و « المحاولات » التى يقدمها الفنان اجزاء لا تنفصل عن الكيان الفنى ·

واود ان اذكر في هذا المجال ان الشعور الذى يعطينا اياه الفن الحديث يشبه الى حد ما ما كنا نحسه ونحن اطفال عندما كنا « نبرم » قلم الطباشير على السبورة المبللة فيعطينا منظرا يسحرنا ·

فاذا كان الفن الحديث يشبه ذكريات الطفولة فلا شك ان هذه الذكريات لا تنتج لوحات ذات مكانة فنية · اما اذا كان هناك غير ما هو شبيه بتلك الذكريات فالفنان الحديث مطالب بالتفسير على ان لا تخرج تفسيراتهم عن مفاهيم مقبولة بعيدا عن حذلقة الالفاظ ومطاطية الجمل · كأن يقال مثلا في نقد كتب عن معرض احد الفنانين « البناء فى لوحات الفنان تام بشكل مرجانى على قواعد تغوص فى اعماق المحيط · وهى لذلك لا تمثل تجميع الافكار

من نثر الحياة اليومية بل تذهب بعيدا الى ما وراء الظاهرات لتحل بلغتها دون اللجوء الى «اية بنية تشكيلية» معروفة ، ما هو مخبوء وراء الحقيقة المتطورة •

وفي هذا الاتحاد الصوفي بالذات وهي تسبح في مداراتها الازلية ، تصير الرموز اشكالا مستقلة عن كل ما هو خارجي ، ذات «لغة لا يعرفها الا في التصوير نفسه» • يجدر بنا هنا أن نذهب بعيدا في اكتشاف العالم الذي بناه الفنان بجهده لنعرف الى أي مدى يكون فيه عمل الذهن واليد •• الشعر والحقيقة •• الصورة والجوهر ، وقد تحولا الى مثال صاف بلوري النغمة أجش صارخها » •

وقد يسألني سائل ، كيف تتكلم هكذا وأنت من الفنانين المحدثين ؟ •

حقا أقول ، لقد سئمت الطريقة الحديثة في الرسم لانني أشعر شعورا معمقا ان بقيت مائة سنة ارسم هذا الفن الحديث فسوف لن ازيد شيئا على تجاربي ، الامر الذي يجعلني امام ضرورة تغيير الخط الذي بدأته لكيما احقق النتيجة التي اريدها • لقد اخترت الفن الحديث بعد سأم ثقيل ، وها انني أسأم ثانية فأحاول أن أتخذ طريقة جديدة في الفن أقرب الى الواقعية »•

بعد ذلك قلنا للفنان شكري :

« المعروف ان حركة الادب ـ والمسرحي منها بوجه خاص ـ مرت عبر القرن المنصرم بثورات وانقلابات تمثلت في الواقعية التي دعت الادباء والفنانين الى دراسة الانسان دراسة علمية منطلقة من واقعية العصر وروحه محترمة هذا الواقع ، شاجبة تزييفه ، رافضة التحليق في اجواء خيالات ادباء الرومانسية ، وفي « المذهب المنطقي » الذي مثل قمة التطرف بالنسبة للواقعية • كما مرت بعد ذلك بمذاهب الوجودية والسريالية • وقد نادى السرياليون بأفلاس العقل والمنطق الانسانيين بعد ان عجزا عن الوصول الى حل لمنع الحرب العالمية الاولى واكدوا على ان الامر والنهي في الانسان انما يعود الى مجهود ما نسميه بالعقل الباطن أو اللاواعي •• وكذلك فعلت الوجودية فقد ارتفع صوتها في القرن العشرين منادية بحرية الانسان لنفس السبب داعية الى ان يكون الانسان هو قدر نفسه بعد هذا الافلاس الشامل ـ من جراء الحرب ـ ولتكن له حريته في اختيار مصيره وليكن هو وحده المسؤول عن هذا المصير ، فالانسان هو الحرية كما يقول الوجوديون •

ما رأيكم في هذا كفنان رسام ، وهل تعتبرون الفنون الجديدة في الرسم نظيرة لتلكم المدارس في الفكر والادب ؟

قال الفنان :

الواقع ان الاختلافات في مجالات فن الرسم جزئية اما الاسس فتكاد تجمع عليها الاراء • ولقد لعب (التكنيك) دورا بارزا في مدارس الرسم الحديثة حتى ان الكثير من الفنانين الجدد بدأوا في التكنيك مدرستهم الفنية ومنه انطلقوا الى تأطير فنونهم وتحديد شكلها ومضمونها • وليس ادل على ذلك من

اننا نجد بعض المدارس الفنية تعتمد التكنيك المحض

ولو سألتني رأيي في هؤلاء لما ترددت في القول انهم يهدفون الى الشهرة والشهرة وحدها الامر الذى جعل الاندفاع من اجل (بعد الصيت) يلعب دوره الكبير في واقع فن الرسم المعاصر ٠

ولئن كانت (البوهيمية) طرز من التفكير والسلوك الحياتي ففي مذاهب الوجوديين ما يشابه ذلك الى حد بعيد ٠ والواقع ان ليس هناك فن وجودي صرف ولكن (الدادائية) فيها من «السأم واليأس» ما يقرب من الوجودية او يوازيه ٠

وهذه الحركة في الفن ـ اعني الدادائية ـ نشأت من جراء عدم الثقة بمثل المجتمعات الاوربية اثر ما جرته الحرب العالمية الثانية من ويلات ٠ وقد اتجهت الى التمرد على كل اتجاه بناء الامر الذي جعل تطورها يسير نحو الهدم بشكل واضح ٠ وحيث ان تذمرها بلغ حدا لا يخلو من الشذوذ والخروج على القيم العامة فقد اضمحلت وتلاشت بسرعة ٠

من هذا التمهيد نستطيع ان نتابع اتجاهات المدارس الفنية الجديدةالتي تمردت على الاساليب القديمة ٠

في عصر النهضة مثلا كان (مايكل انجلو) عبقري عصره ولقد دان له كل فناني مدرسته الا ان الفنان الحديث رفض ان يدين لاحد ـ ايا كان ـ وعمل على تأكيد ذاته وانه ـ هو الاخر ـ يستطيع ان يفكر وان يوجد طريقة جديدة مبتكرة في الفن ٠

لقد كان على الفنان القديم ان يظل في رعاية الفنان الكبير ـ الاستاذ ـ ردحا طويلا من الزمن حتى يصل الى المكانة التي يريد وقد لا يصلها البته ، بينما نجد اليوم كل شاب فنان ـ في باريس مثلا ـ يطمح بالمجد وان كان مغمورا ٠ ومن هذا المنطلق بالذات اتجه بعض الفنانين الى جمع الاوراق الممزقة الكالحة الالوان ولصقها بشكل زخرفي يلفت النظر الامر الذي جعلها تبهر البعض فأعتبروها انعطافا فنيا واشتهر الفنان ٠٠٠ هكذا ، وبهذه البساطة ٠ ولا شك ان هذه احدى وهدات فننا الحديث ٠

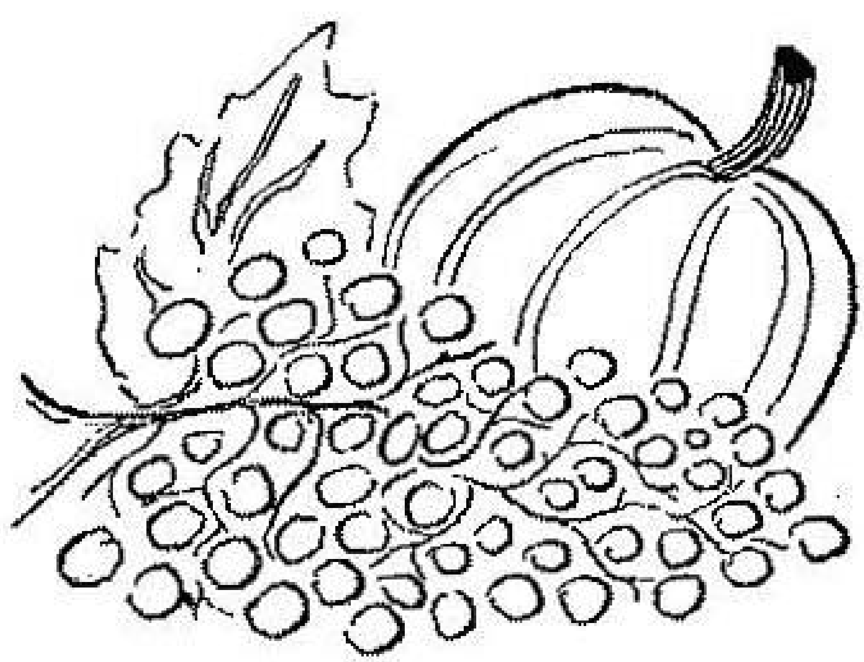
ان منطق العصر ومدنيته يفرضان ـ لا شك ـ على الفنان قيما جديدة ـ سلبا او ايجابا ـ ولعل الكثير مما نشاهده اليوم من نتاجات هو حصيلة منطق عصرنا الحديث ٠

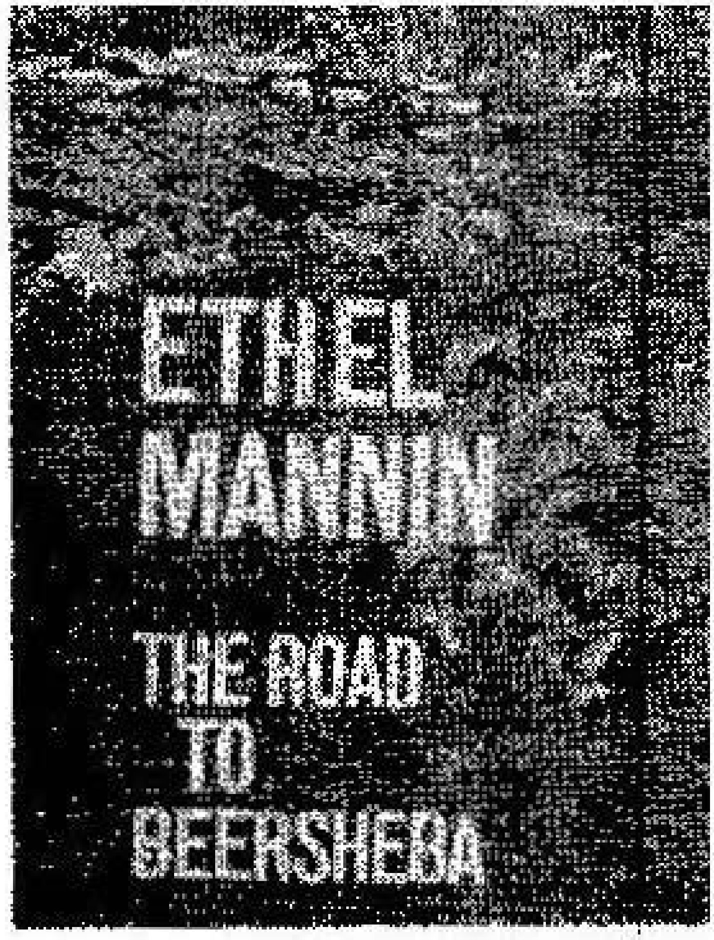
●

و «الاقلام» اذ تشكر الفنان الاستاذ أكرم شكري على حديثه الصريح ، الطريف ، الممتع ، تضعه ـ بروح نقدية متسامية ـ موضع النقاش وتأمل أن تكون صفحاتها معرضا للرأى الحصيف ومسرحا للفكر الخلاق ٠

أكرم شكري :

- من مواليد عام ١٩١٠ .
- سافر بعد اكماله الثانوية في بعثة دراسية الى انكلترا لدراسة الرسم والنحت .
- درس بعد عودته فن الرسم بالثانويات ثم نقل عمله الى مديرية الاثار القديمة العامة عام ١٩٣٦ وبقي فيها حتى اختير مؤخرا مديرا عاما لمصلحة المعارض العامة في وزارة الثقافة والارشاد .
- قام وجماعة من أصدقائه بتأسيس (جمعية أصدقاء الفن) التي واصلت جهودها الفنية واقامت المعارض الموسمية والسنوية أكثر من خمس سنوات . وفي هذه الفترة شاركت الجمعية باشرافه ــ نتيجة للجهود التي بذلها لاقناع المسؤولين يومذاك ــ في معرض دولي أقيم في القاهرة عام ١٩٤٧ .
- وفي عام ١٩٤٨ تمكن من اقناع المسؤولين على مشاركة العراق في المعرض الفني الذي أقيم في بيروت بمناسبة انعقاد مؤتمر اليونسكو الثالث فيها ضمن معرض الدول العربية وباشرافه .
- حصل على زمالة عام ١٩٥٣ للاطلاع على المتاحف الفنية في أوربا وأمريكا وبعد رجوعه ادخل طريقة الرسم ب (البايروكسلين) التي كان لهـا أثرها بين الجماعات الفنية .
- في الفترة التي تلت ثورة تموز عام ١٩٥٨ أخرج من جمعية الفنانيين العراقيين ثم عاد الى مزاولة نشاطه فيها بعد ثورة رمضان عام ١٩٦٣ ، حيث انتخب رئيسا للجمعية .





كتاب الطريق الى بئر سبع

للكاتبة الانكليزية **ايثل مانن**

عرضه ولخصه وعلق عليه

الدكتور جميل سعيد

هذه القصة جديرة بأن يقرأها كل عربي ، لا لتثير احزانه الى فلسطين وأهلها . ان نفوس العرب قد امتلأت بأحداث فلسطين ، بمثل ما تمتلىء به مياه البحار ، مرارة وملحا . ولكنها جديرة بأن تقرأ ، لانها ليست من هذا القصص الحزين ، الذي يملأ النفوس حزنا ، فيثبط عزيمتها ، ويذلها او يميتها . على نحو ما يقرأ القارىء العربي في « عبرات المنفلوطي » مثلا ، او في « آلام فرتر » . ولكنها من هذا القصص الذي يكون فيه الحزن وقودا لايقاظ النفوس ، وشحذ الهمم وحثها على العمل المتواصل والتضحية .

ومن هنا كانت جديرة عندي بأن يقرأها كل عربي . وانا ـ لهذا السبب ـ اتحدث عنها الان .

* * *

والقصة طويلة تكتبها الكاتبة الانكليزية ايثل مانن Ethel Mannin تتحدث بها عن عدوان اليهود ، على العرب في فلسطين ، ومساندة الانكليز خاصة ، ودول هيئة الامم عامة ، لهذا العدوان .

والكاتبة لندنية ، من اصل اسكتلندي ، يعرفها الغرب كاتبة شهيرة في السياسة والاخلاق ، وقاصة شهيرة . بدأت كتاباتها تشيع منذ عام ١٩٢٢م ، وكان عمرها اذ ذاك اثنتين وعشرين سنة . ومنذ ذلك الحين، وهي توالي كتاباتها فتخرج قصة في كل عام . هذا علاوة عما تخرجه من كتب أخرى في الرحلات ، وفي السياسة وفي دراسة الشعر والشعراء .

وقد طوفت في الدنيا برحلات كثيرة ، زارت بها البلدان واطلعت على أحوال الامم ، فأكسبتها هذه الرحلات خبرة واطلاعا . وجعلتها تحس بما

يحسه أهل هذه البلدان ، ولا سيما الشرقية منها ، فكتبت عن الهند ، وعن اليابان ، وعن بورما • وطوفت في فلسطين وكتبت قصتها الطويلة هذه •

وقد ترجمت كتبها الى الفرنسية ، والالمانية والهولندية ، والاسبانية، والايطالية ، والى اللغات الاسكندنافية • وقد ترجمت قصتها هذه الى العربية •

ومع ان ملامح الناس ، لا تكون دائما صادقة الدلالة عليهم ، مع هذا فالصور في كثير من الاحيان تعبر التعبير الصادق عن اهلها • وان صورة الكاتبة لتطلع عليك بطلعة قديسة ، تفيض بالاحساس والعطف والرحمة• وتقرأ ما سطرته في قصتها هذه باحساسها بأدق العواطف ، فتتمثل لك الطلعة الخيرة ، تحب الخير ، ايا كان • وتكره الشرير ، ايا كان ، ولو كان من جنسها ، وبني قومها •

وتشعر بالكاتبة تهيوءك لجو القصة • على نحو ما يفعل اهل الموسيقى التصويرية ، حين يقدمون موسيقاهم على الاحداث يظهرونها على شاشة المسرح • انهم يهيئون لاجواء الجريمة بموسيقى تطيف صور الجريمة ، صور الرعب في النفوس • وتراها تفعل هذا في السطرين اللذين وضعتهما في مقدمة القصة ، تهديها : « الى اللاجئين الفلسطينيين ، الذين قالوا لي :••• لم لا تكتبين قصتنا ، قصة الخروج Exodus الثاني خروجنا نحن »•

لقد استعملت كلمة Exodus التي ترجمت في كتاب « العهد القديم » بكلمة « الخروج » • ولا ارى المعنى المعجمي الان يوفي هذه اللفظة حقها • ان سفر الخروج هو ثاني اسفار « العهد القديم » • وقد افاض في الحديث عن « خروج » بني اسرائيل من مصر • ان معنى اللفظة الايحائي ، يوحي بالعذاب والظلم ، الذي يفضل معهما المواطن أن يهجر بيته ووطنه ويرتحل • وقد اعطيت لهذا المعنى صورة كبيرة عند العرب في اسلامهم • قال تعالى : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم ، أو اخرجوا من دياركم، ما فعلوه الا قليل منهم (سورة « النساء ») » فقد قرن ـ سبحانه ـ صورة الخروج عن الديار بصورة القتل ، وسوى بين الصورتين ، بل ربما جعل الصورة الثانية اقسى واعنف ، واشق على الانسان •

اقول : بهذا الجو قدمت القاصة مقدمتها • وزادت عليها ان نقلت عبارة « العهد القديم » : « وأعطيتكم ارضا لم تتعبوا عليها ، ومدنا لم تبنوها ، وتسكنون بها • ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون »فأوحت بعبارتها هذه بتلك المدن التي سلبوها من العرب ، وتلك البيوت التي اخرجوهم منها ••• وليس عليهم الا ما يستر بعض اجسامهم من ثياب ، واخذوا مزارعهم ، كرومهم وزيتونهم ، وسائر شجرهم الذي نشأوه ، ورعوه، وربوا معه ، وصاروا يحسون انه جزء من اجسامهم وارواحهم • وان الحسرة لتأخذ القارىء حين يستمع الى « منير » احد اشخاص القصة وهو يقف

بحيث يرى مزرعته ، ويقول : « تلك زيتوناتي وتحتها حديقة خضرى ايدرى من يشترى ثمارها الان انه يشترى سلعا مغصوبة مسروقة ! »٠

وتقرأ القصة فتحس ان نفسك تتعلق بها ساعة تبدأ بالقراءة ، وتراها تهز قارئها هزا عنيفا ، توقظ بها أحاسيسه ومشاعره ٠ ان من القصص ما يقروءها قاروءها فيحس ان نفسه تنساب معها انسياب انفس الاطفال مع اللحن تهدهدهم به امهاتهم ، فيغمضون عيونهم ويرقدون ٠٠٠ ومنها ما ترى الكاتب يأخذك فيها بحديثه ، حتي اذا أحس انك كدت أن ترقد هزك هزة عنيفة اعادك بها الى يقظتك ثم ما يلبث ان يوالى قصصه ويعود الى تنبيه « قارئه ، بين الفينة والفينة ، من هذه القصص قصة الحرب والسلام» للكاتب الروسي تولستوي ٠

ومن القصص ما تتعلق به نفسك ساعة تقع عينك على الاحرف الاولى، او الاسطر الاولى منها ٠ وتأخذ في قراءتها فتحس القاص يهز عواطفك هزا عنيفا ، يحفظ به عليك انتباهك ويقظتك ، بل قد تراه يوالى وخزك بمثل الابر ، ويوالى لذعك بمثل الجمر ـ وهذه هي قصة الطريق الى « بئر سبع »٠

لقد أخذت في قراءتها فأنستني وجبة الغداء ، ومنعت عيني ان تغمض فى ظهيرة تموز فى بغداد ، أتراني احسست هذا ، لانى عربى قدر لى ان جبت فلسطين وعاشرت الكثير من اهلها ، فتمثلت لى فى القصة صور اصدقائي ، وقد حيل بينهم وبين اهليهم وبيوتهم ومدنهم !؟

ان الذى كتبته الكاتبة يفيض بالعواطف الانسانية ، التى يحزن بها كل الناس ٠ حتى ليخيل الى لو ان يهوديا قرأها ، وقدر ان رزق شيئا من الانسانية فى احاسيسه ، لما استطاع الا ان يغتم ويحزن ، لما يراه من صور البشاعة تتمثل فى الظلم وفى الاعتداء ، وفى هتك العرض ، وفى السلب والنهب ، والغصب والقتل ٠٠٠ ثم لا يكون لهذا كله مبرر ، ولا موجب ، ولا دافع ٠

ان عناصر القوة فى القصة تأتيك من حديث الكاتبة عن الظلم بابشع صوره ، والوحشية بأرهب صورها ، صور اغتصاب الاموال وصور هتك الاعراض ، وصور قتل الارواح بغير ما تعفف عن شيء او رحمة لشيء ٠ ويزيد الصورة رهبة ان اليهود هم الذين يفعلون هذا كله ٠

لقد بينت ان الانكليز خاصة ، يعرفون اليهود لاجئين مطرودين من اوربا ، وحين بين لهم « انطون » بطل القصة انه لاجيء ، لم يتصوروه الا يهوديا ، لان اليهود وحدهم هم اللاجئون عندهم ٠ وقد عجبوا ان يكون لاجئا ، وهو مسيحى عربى فلسطيني ٠ اقول : يزيد شعور القارىء نقمة، على ما يقروءه فى القصة ان اليهود هم الذين يرتكبون هذه الفظائع ، على حين يجب أن يكونوا ابعد الناس عنها ، لانهم وحدهم ذاقوا طعم المذلة ، والقتل والطرد ، ثم يكونون هم انفسهم الذين يمثلون هذه الادوار الكريهة ، التى خبروها وذاقوا طعمها ٠

ويزيد الصورة بشاعة ان العرب كانوا يعاملونهم في فلسطين ، وفي غيرها من بلدانهم ، معاملة المواطنين ، فمدرسة العميان ، التي تحدثت عنها الكاتبة ، في «يافا» لا تفرق بين عميان المسلمين وعميان اليهود ، وعميان النصارى · ان الكل عندها سواسية ، يوزنون بميزان واحد ··

ويأخذك الهم حين ترى ان الاعتداء يقع على النفوس الصافية النبيلة ، تحسن فيرد اليها احسانها اساءة · يطلب الماء جنديان يهوديان من البيت ، ويستجيب أهل البيت لطلبهما ، فيكون الجزاء اعتداء صارخا على العرض ·

وينتصر اليهود ، ويتم استيلاؤهم على المدينة ، مدينة « اللد » فيجمعون اهلها في جامع المدينة ، ثم يقتلونهم في الجامع ، بعد ان ينجسوا الجامع بقذاراتهم ·

هكذا يكون القتل في مكان العبادة المقدس ، ثم يكون قتلا اجماعيا ، وبغير حالة حرب ·

وتتعلق نفسك بالقصة حين ترى الكاتبة تقول الحق ، في كل ما تسطره اليك · هي انكليزية ، ومع هذا تقول عن الانكليز انهم نقضوا عهودهم مع العرب في الحرب العالمية الاولى ، وانهم هم الذين اسلموا بلد العرب الى اليهود في الحرب العالمية الثانية · وان قصتهم مع العرب هي قصة الخيانة والغدر ·

ثم هي تجعل الفتى الذي يسلك طريق « بئر سبع » عاد من انكلترا ، ليتسلل الى طريق « بئر سبع » · وانه كان يعيش مع امه الانكليزية ، وجده الانكليزي وجدته الانكليزية · وانه مع هذا كله لم يرض بفعل الانكليز ، وهو يشعر ان طريقه تحفه المخاطر والمهالك ، ولكنه مع هذا احس ان واجبا يدفعه الى المغامرة والموت · انه واجب الوطنية بل واجب الانسانية، الذي تعاون الانكليز واليهود على اهداره ·

والقصة كتبت عن العرب باللغة الانكليزية · وقد اجادت الكاتبة حين جعلت القصة ، نصفها تقع احداثه في فلسطين ليقرأه العرب ويحسوا بما به ، ونصفها الاخر تقع احداثه في انكلترا ليقرأه الانكليز ويشاركوا الكاتبة احساسها فيه · وأجادت حين جعلت اشخاصها مشتركة بين العرب والانكليز ، واوضحت صور التعاون بين المسيحيين والمسلمين بأبهى ما تكون الصور ، وابهى ما يكون التعاون · ان السيد «خليل» وهو مسلم يتزوج «منى» وهي مسيحية · وان «بطرس منصور» وهو احد إبطال القصة ،يوصي بأن يعهد الى السيد خليل ، وهو مسلم برعاية املاكه بعد وفاته ، ولا يعهد بهذا الى اخيه «فريد» وهو مسيحي ·

ويكون «خليل» وهو مسلم اول المسرعين لاستقبال «انطون» وهو مسيحي · ويكون «وليد» وهو صديق «انطون» الذي حبب اليه التسلل الى طريق «بئر سبع» مسلما ، ويظل على صداقته مع انطون وهو مسيحي ·

ان الحديث عن قصة «بئر سبع» حديث طويل ، انه حديث العرب

الطويل في استرداد وطنهم ، الذي اغتصبه اليهود جملة ، وطردوهم منه جملة ... وان الحديث عنه يغري بعضه ببعضه ، كما تغرى بالدموع الدموع ...

على اني قبل ان اقف بقلمي هنا اود ان ابعث التحية الى صديقين كريمين ، احدهما هو الدكتور ناصر الحاني ، سفير جمهوريتنا في اميركا، فقد تفضل مشكورا فبعث الي نسخة القصة هذه هدية من هناك ، وكان قد تفضل من قبل فبعث الي كتاب They are Human too «انهم بشر أيضا» للكاتب السويدي بير اولو أندرسون Per-Olow Anderson عن اللاجئين • والكتاب مجموعة من الصور الفوتوغرافية ، سجلها الكاتب بآلة تصويره للعرب اللاجئين ، ثم قدم للكتاب مقدمة باكية تستدر العطف ، وتستحث امم الدنيا على العدالة والانصاف لهؤلاء اللاجئين • وعسى ان اتحدث عن هذا الكتاب في العدد القادم ان شاء الله •

والصديق الثاني هو صديقي الكريم رفعت صدقي النمر • كنا منذ نحو عشرين سنة بجامعة القاهرة ، كنا صديقين نعيش في بيت واحد ، وندرس في صف واحد .. وكنا نترك كلية الاداب ساعة الظهيرة ، فنسير في حر الصيف ، في شمس القاهرة التي تتسلط على الرأس ، وكأنها اللهب، ونصل الجيزة ، حيث نسكن ونسرع الى زجاجات البرتقال ، نشتريها من الباعة لنروي عطشنا • ويقدم البائع الزجاجة ، ويتناولها بيده منه ، ثم ما يلبث ان يردها عن فمه ، وهو يقول : « هذا برتقال اليهود ! » • وكان يثقل علي ان اراه يظل على ظمأه ، فأروح احاوره ، في ان القرش الذي يدفعه للبائع ، لايؤثر في امر اليهود كثيرا ، ولا يفعل اكثر من ان يبقيه على ظمأه هو • وكنت احاول ان اثنيه عن رأيه ، ليروى عطشه فلا ينثني •

لقد كان بجامعة بيروت الاميركية ، ومنها انتقل الى جامعة القاهرة ، وكان اثمن ما حمله معه صوره مع الثوار الفلسطينيين المقاتلين ، صوره معهم في الكهوف ، وصوره معهم في السجن •

ايها الصديق الكريم ! ان صورة « وليد حسين » صورة الثائر العربي المسلم ، المتسلل الى « بئر سبع » هي صورتك بعينها • أترالا حدثت الكاتبة بحديثك ، فدونته على الورق ، ام هي صور فلسطينية اخرى كثيرة ، لها مثل احداثك وحديثك ؟!

انني ابعث التحية اليك ، حيثما انت • وسلام الله عليك ، وعلى كل بلد يحتويك •

ملخص القصة

وطلع الصبح على أهل « اللد » ولم يكونوا ناموا ليلتهم ، ان شوارع المدينة تردد اصداء مكبرات الصوت يذيع بها جنود اليهود اوامرهم صائحين :

اخرجوا ... اخرجوا الى الملك عبدالله .

وكان بين الجموع المتقاذفة المتزاحمة التي يسوقها الهول والخوف ، فتى في الثانية عشرة من عمره ، وضع يده بيد فتى اخر اعمى اسن منه . انه «انطون» بن بطرس منصور يقود «امين» ابن خادم ضيعة ابيه .. وسار الفتيان وسط الجموع المتلاحقة المتدافعة . لقد تعلق الاعمى بسيده الصغير تعلق الغريق بمنقذه . وشد الفتى يده على يد صاحبه الاعمى شدة الصغار ، يحرصون على الاشياء يخافون ان تسلب او تنهب منهم . وسار الفتيان وقد عقد لسانهما الهول والخوف ...

كان الصغير بين الفينة والفينة يمد نظره يبحث عن امه وسط الجموع المتزاحمة المتدافعة ، ثم يضغطه الحشد ويدفعه ، فيشدد قبضة يده على صاحبه ، ويحث الخطى ويسير ...

كانت درجة الحرارة في السهل الساحلي اكثر من مائة درجة في الظل الهزيل ، ظل اشجار الزيتون او ظل الصخور . وكانت كتائب اليهود تصيح بالناس تطردهم بعيدا عن الدروب والطرق العامة تدفعهم دفعا الى حيث يوغلون في البرية ، برية الاردن حيث التلال الجرداء الفسيحة التي لايقع البصر فيها على نهاية . يسيرون والطائرات السود الصغيرة ، تحوم محلقة فوق الرووس كأنها الطيور الجارحة تنقض على فرائسها . وراحوا يضربون في الارض الرملية اوقدتها حرارة الشمس وصارت الاقدام الحافية لاتطوءها الا كما يوطأ الجمر . فان ابتعدت عنها فالى الشوك والحسك . او الى الحصى وقطع الصخر كأنها السكاكين وضعت بالنار الموقدة ..

وتئز الطائرات فوق الرؤوس ، وبرية الاردن الواسعة قد عجت بالناس ، ومعظمهم من النساء احتضن أطفالهن يسحبنهم بالايدي مرة ويحملنهم على الظهور اخرى . والعجائز يتساقطن على الارض ، وينهض بعضهن ، وبعضهن يظل حيث سقط ..

ويلتفت «انطون» يبحث عن امه وسط الجموع فتمتلئ عيناه بالاكوام البشرية التي خلفها الجمع وراءه ، فيشد قبضته على يد صاحبه الاعمى ، ويدفعه الهول دفعا فيسير ...

وتعود الطائرات السود باصواتها المخيفة الغريبة ، ويحس الفتى ان شيئا في رأسه قد تفجر مع اصواتها . انه الدم قد تدفق من انفه وراح ينهمر .. ويتلكأ في مسيره فيحس يدا رفيقة تلمس رأسه ، ويرفع بصره فيرى « امه » قد وضعت يدها على رأسه ، وحاولت أن توقف النزف ، ثم ما لبثت أن ضغطتها الجموع فأبعدتها عنه .

واشتدت الظهيرة ، وازدادت الارض اتقادا ، وتعالت اصوات الناس باللهاث ، يتعاون عليهم الحر والاعياء والعطش ، انطون وهو يحس بمثل الدوار ، رأى امرأة تتخلى عن طفلها الذى كانت تحمله ، في حفرة . وتتركه

صارخا وتمضي وحدها ، ويظل الطفل ..

واحس انطون ان قواه تخور وهم ان يقعد ، ولكن الجموع الزاحفة تحلق فوقها الطائرات السود قد ضغطته فشد يده على يد صاحبه الاعمى وراح ينقل خطوه ، بغير ارادة منه ..

* * *

ان الجمع في طريقه الى « رام الله » المدينة الجبلية الصغيرة التي تبعد بضعة اميال عن القدس .

هذا « بطرس منصور » ، والد انطون يسير مع اخيه « فريد » ، ومن ورائهما « ماريان » زوجة بطرس الانكليزية ، وماجدة زوجة فريد ، وابنتهما الكبرى نادية ، ومن ورائهم طفلا « نادية » يتعثران ويشكوان التعب والعطش ، لقد ابيضت شفاههما ، ولم يعودا يستطيعان المضي ، فراحت « ماريان » الانكليزية تتناوب حملهما مع سلفتها ، وهما تترنحان وتتعثران اما « نادية » فكانت تضرب في الارض في حالة ذهول الهتها عن كل ما كان الناس فيه .

وتخلخل الجمع ، وهلك منه من هلك ، وتخلف من تخلف ، وانقسم قطعا ، تترامى كلما ظفرت بظل ، وقعد انطون وصاحبه امين ليستريحا وقد ألح عليهما العطش في ظل هزيل تلقيه خميلة من أشجار الزيتون ، وهما في انتظار بقية الاسرة . قال امين : كنت ارعى قطعان المعز مع ابي ، يوم كنت ابصر الدنيا . وكنا نستقي من آبار بين « اللد » و « نعلين » .

واصغى انطون اليه وهو يرقب ببصره وحسه ، حشد الناس وقد تراموا تحت ظلال الزيتون . استلقى بعضهم على الارض ، والقى بعضهم بظهره الى جذوع الشجر . وترامى حولهم الاطفال يبكون من العطش ، وكان بين الجمع امرأة شابة تحمل على صدرها طفلها الذي مات ، وهي تحملق في وجهه ذاهلة من غير ان تتكلم . وتبكي ، وقد تركت طرحتها البيضاء منسدلة تغطي نصف وجهها . واقبلت الجموع متعاقبة تتحرك ببطء وجهد الوف من الناس متجهة صوب الشرق ، صوب الاردن . واخيرا وصل والد انطون ، وبقية آل منصور ، وارتموا في الظل ونظر الفتي الى امه ليملأ عينه ونفسه منها .

انها اصغر من ابيه بعشرين سنة ، وهي اقوى منه بنية . ومع ذلك فقد كان اكثر قلقا عليها منه على ابيه . كان يحس ان اباه ، وهو عربي لاخطر عليه رغم سنه وعلة قلبه . اما امه وهي انكليزية فليست لها قدرة ابيه ، يضاف الى هذا ، حالتها السيئة حين صيح بهم بالرحيل وترك « اللد » مدينتهم . لقد ترامت بجوار ابنها ، ثم مدت بصرها اليه . وحين التقت عيناهما منحته ابتسامة خافتة .

لقد ناهزت الاربعين ، وكانت لاتبدو كذلك لمن يراها قبل الان ، اما الان فقد بدت عجوزا متعبة ، شفتاها متشققتان يقطر منهما الدم ، وتحت

عينيها بدت ظلال التجاعيد ، كانت مثال الاناقة ، اما الان فهي اشبه بغجرية ، مضت ليلتها نائمة في حفرة .

وقعدت نادية بجوار ماريان ، وقد شحب وجهها الجميل وراحت ترسل بصرها في الفضاء . كانت ذاهلة . يرى فيها الناظر ما يراه في الفتاة تسير في نومها . انها تحملق في الفضاء ولا تتكلم ..

اما بطرس واخوه فريد ، فقد التصقا فوق صخرة صغيرة ملساء . القى بطرس ثقله على عصاه ذات المقبض الفضي ، يعتمد عليها ورأسه منحرف الى الوراء قليلا ، وراح يرسل بصره الى حافة الوادي الذي يقود سالكه الى جنوبي قرية « نعلين » حيث ينبغي ان يرووا ظمأهم ويقضوا الليلة هناك .

اما فريد ، فكان اصغر من اخيه بعشر سنوات تقريبا . وكان اقل منه مهابة ووسامة . وغير بعيد منه ، ترامت زوجته ماجدة الى جوار نادية ، وراحت تحاول ان تسلي الطفلين اللذين لجا في النحيب ، من شدة الاعياء والظمأ .

وقعد ال منصور ذاهلين ، وقد شغلت كلا منهم خواطره التي تدور في نفسه ، ولم تترك له فرصة الحديث الى غيره .

ان احداث المدينة انستهم ماهم فيه من اهوال هذا الرحيل . تذكر انطون حالة الروع التي كانت فيها امه بالامس . حين ترك دارهم جنديان يهوديان من جنود (الهاجانا) . انه يجهل تفاصيل الحادث ولكنه يدري اي صراخ واي ذعر احدثاه ! كان آل منصور كلهم ينتحبون حين غادر الجنديان البيت ، وكان عليهما ان يقاتلا النساء اللواتي انهلن عليهما ضربا وخمشتهما باظافرهن . وفزع الفتى حين رآهما يشهران مسدسيهما ويشرعان في اطلاق النار ، ثم يتجاوزان عتبة الباب . ويظل الصراخ والنحيب في البيت ، وتنهار النسوة الثلاث في البيت : امه وابنة عمه « نادية » وخادمتهم « رندة » .

ووجمت ماريان ، وكانها تفيق من حلم الامس المروع حين طرق باب « دارة الخير » وهو اسم بيت ال منصور ، جنديان يهوديان ، وتظاهرا انهما يطلبان الماء ، وكيف ان نادية رأت الا يفتح لهما ، والا يعطيا الماء ولكن « ماريان » قالت : خذي الماء في ابريق بلوري ، فنحن هنا يجب ان نريهما اننا شعب متحضر ، لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته . هما ضيفان طارقان على اية حال .

واحضرت « راندا » الماء ونزلت ، وما لبث من في الدار ان جاءوا مسرعين لصراخها ومناضلتها ، واندفعت ماريان تنزل السلالم لاتبصر طريقها من شدة الغضب والحيرة ، وراحت نادية تسابقها خطوها لتتبين الامر . وما ان بلغتا نهاية السلم حتى تعلق الجندي الاخر « بنادية »واطبق ذراعيه عليها ، وهو يضحك بوقاحة وهي تصرخ ، ترفس وسحلها عبر البهو الى الحجرة ، وفي باب الحجرة دفع « ماريان » خارج الحجرة بعنف

وصفق الباب بوجهها ، وادار المفتاح فيه • وظلت ماريان تخبط الباب ، وهي تستمع الى صرخات نادية ومناضلتها ورفسها ••

ظلت ماريان تدير هذه الصور ، والرعب يلفها لفا • أتراها مسوءولة عن كل ما حدث ؟ أكان الاولى بها ان لاتفتح الباب والا تأذن بالماء ؟ أكان الاولى بها ان تتركهما ينسفان قفل الباب بالرصاص ، ويقتحمان الدار على اهلها ؟! ـ أكان الاولى بها ان تترك هذا كله ، واكثر منه يحدث ، وهي في هذه الحالة غير مسوءولة عما يحدث • لقد أذنت باعطائهما الماء ، وما خطر لها ان سيكون بعض الذى كان •••

اما « نادية » فقد ظلت مصعوقة ، زائغة البصر • ان زوجها « نصرى دجاني » لم يعد ، ولم تره الى الان • أتراه قتل؟ وكيف قتل ، ، وايـــن ظلت جثته ؟ أتراه حيا ؟! لعله يعود اليها • واذا أتخبره بالذى حدث ؟ وما مصيره ومصيرها حين يبلغه هذا النبأ ؟ أتراها تكتم الامر عنه ، وتبقـــى عليه وعلى نفسها !؟ ما تراها فاعلة ، وما تراه فاعلا حين يلتقيان ؟

كانت اسرة آل منصور ، قد الح عليهـــا العطش • ولكنها قعـــدت صامتة قد اذهلتها عن الكلام ، بل وعن التوجع والشكوى ، صدمة الامس ••• وكان سيد الاسرة « بطرس منصور » قد اصابه العطش الكبير قبـــل أن يبدأوا السير ويضربوا في التيه • بدأ ظموءه من الامس، وهو في المسجد الكبير • كان بالمسجد ماء في الميضأة ، حيث يتوضـــأ المصلون قبـــل الصلاة ، ولكن الحراس اليهود ، نجسوه ببولهم ، وهم يقهقهون مشيرين الى من بالمسجد ، ان يذوقوا طعمه • وطال حبسهم بالجامع متزاحمين ، لايجد المرء مكانا يتسع لجلوسه ، ولا مقرا لجبيس منهـــم ، فتصـــاعدت روائح النتن وصعب عليه ، وهو من اهل الثراء ، ان يحتمل هـــذا ••••
يضـــاف الى هـــذا كله ان الجمع كله كان يستمع لاصوات المدافع الرشاشة تأتيه من صوب المسجد الصغير بالمدينة • لقد اقتادت جنود اليهـــــود المسلحة رجال المدينة من مختلف الاعمار اليه ، وهم الان يسمعون اصوات الرصاص تحصد من فيه • كان قريبهم « نصرى دجاني » هناك ، وهم لا يرونه بين الجمع الضارب في التيه الان بينهم • ليته عرج على المسجـــد الكبير معهم !

كان رأى الرجال المقيمين في « دارة الخير » ، دار منصـــــور ، ان يتوجهوا جميعا الى المسجد الصغير ، لانه اقرب الى دارهم وانهـــم فى طريقهم اليه يتحاشون روءية المجندين والمجندات اليهود • كانت المجندات اليهوديات ، بسراويلهن القصيرة التى تظهر تحتها افخاذهن العـــارية ، يحملن مدافع ستين ، وينطلقن انطلاق اناث الكلاب الضـــارية على المارة • هذا كله حبب الى الرجال ان يسيروا الى المسجد الصغير • اما منصور فحبذ التوجه الى المسجد الكبير ، لان اشاعة سرت فى المدينة مفادها ان ثـــلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربي ، قد ظهرت فى مشارف المدينة •وان

هذه السيارات الثلاث ، هي الطليعة ، وسيكون المسجد الكبير قبلتها وربما كان اول ما تحرره ..

ترى أين هذه الكتائب العربية التي كانوا بانتظارها !؟ ان السبيل قد اخلي لهم ، واصداء مكبرات الصوت تردد في شوارع المدينة :« اخرجوا .. الى الملك عبدالله .. »

لقد جردهم اليهود من كل شيء . من نقودهم ، وساعاتهم ،واقلامهم وخواتم الزواج . وكانت المجندات يجمعنها ضاحكات في حقائب كبيرة مفتوحة ، ولم يتركوا لهم الا بعض ما عليهم من ثياب .

وانطلق بطرس الى داره ، وهو لايتذكر الان كيف مشي وكيف وصل. وكل الذى يتذكره انه وجد بباب بيته امرأة ورجلين قد وقفوا الى جانب سيارته . وتقدمت المرأة اليه فغرست في ظهره مدفع ستين ، وصاحت به بسلاطة ووقاحة : اتتكلم الانكليزية ؟

قال : نعم .

وقبل ان ينهي كلمة «نعم» طلبت مفاتيح السيارة منه . وفتحت الباب وركب صاحباها ، وبصقت بوجه « منصور » ، وهي تقول : حياتكم جميعا ، لاتساوى ثمن رصاصة واحدة ، فاتركوا الدار على عجل . وضحك رفيقاها ، وانطلقت مزهوة بوقاحتها . وظل بطرس ينظرها وهي تبتعد .. وما الهاه عنها الا اصوات مكبرات الصوت تصيح بالناس ، تمهلهم نصف ساعة فقط يكونون بها قد جاوزوا حدود مدينة « اللد » .

واسرع آل منصور يتركون بيتهم وقد وقع اليهود في الناس سلبا ولا سبيل الى حديث او سؤال .

* * *

وافاق آل منصور من ذهولهم ، على صوت « ماجدة » زوجة فريد وهي تنظر الى طفلي نادية الباكيين قائلة بحيرة وحسرة ؟ وكيف نصل بالطفلين الى هناك ؟ وترد عليها « ماريان » تشجعها :

ساعتان ونصل الى هناك .

ويلتفت انطون الى امه والى العائلة بقوله :

امين رأى بعض الآبار ، أيام كان يرعى قطعان المعز مع ابيه ، في هذه النواحي .

وانحدر الجمع الى مجرى الوادى الصخرى . انه عذاب من ضرب آخر جديد . ان حجارته تلهب الاقدام المتورمة الدامية . لقد عج بالبشر يبلغ تعدادهم عشرات الالوف ، وكلهم متجهون الى قرية « نعلين » التى يقود الوادى سالكيه اليها .

ونظرت ماريان الى ثوبها القطني بلله العرق وخالطه التراب ، والى حالتها المزرية . ودار بخاطرها ، لو انها قدر لها الا تتزوج هذا الفلسطيني ، والا تلقى هذه التعاسة ... ولكنها ما لبثت ان كبحت خواطرها بخاطرة اخرى ،

وهي : من يدرى ربما كانت لقيت حتفها فى احدى غارات الالمان على الانكليز ··

وحولت نظرها الى زوجها ، ومدت بصرها الى السماء : اعطه القوة يا رب انه شيخ ، بدين ، وعلته بقلبه ··· لا جدوى ببقائنا ، انا وانطون بعد ان يهلك ··

وشغل بطرس عما اصابه واصاب اسرته بما تلقاه هذه الجموع · قال ، وكأنه يناجي نفسه : منذ ثلاثة ايام ذبحوا ثلاثمائة رجل فى الجامع الصغير، وهذه مذبحة أخرى تتلوها ، يقضي بها على النساء والاطفال والشيوخ · انها مذابح الابرياء ··

ويلتفت بطرس ، فيرى « ماريان » زوجته ، تضلع فى مشيتها ، متحاملة على نفسها فى صندلها الذى مزقته الحجارة ، وعلق به التراب والشوك · انه يكن لها الحب والرعاية ، ويحس انه عاجز عن ان يسدي اليها معونة ، ويكون احساسه بعجزه هذا من أقسى ضروب الالم على نفسه ·

وينظر الى ابنه انطون ، فيراه قد شد يده على يد صاحبه الاعمى امين ، فتشرق في ذاته شارقة تبدد الظلام المخيم على نفسه · كل مشغول بنفسه · لقد ذهلت الامهـات عن أبنائهن ! ولكنه ما زال يقود صاحبه الاعمى وهما يسيران معا صامتين ··

ووصل آل منصور الى البئر ، ووجدوا الناس قد سبقوهم اليها · انها بئر غائرة ، اذا نظرها حاد البصر الفى بلعان الماء الخافت في القاع · لقد عقد الناس مناديلهم بجزازات من ثيابهم ، وربطوها بحجارة ، وصاروا ينزلونها في قعر البئر ·· ويخرجونها فيسرع الناس الى هذه القطع المتبللة بالماء الموحل، يضعونها فى افواههم يرطبون بها شفاههم · وكان الحصول على خرقة مبتلة غاية لا تدرك ·

ومزقت ماريان اهداب ثوبها وأثواب النسوة معها ، وربطـت المـزق ببعضها ، فتناولها انطون ، وترك الفتى الاعمى معهم ، وانطلق يمدها فى قاع البئر مع غيره · وعاد فاقتسم آل منصور الحبل ، اخذت بعضه النساء واخذ بعضه الرجال ، يرطبون شفاههم الجافة المتفطرة ·

ووالى الجمع سيره فى الوادي ، وبدا الوادى جحيما من العذاب ، على انهم فضلوا السير فيه لان طريقه مأمونة الضلال ·· وكان أنطون بين الفينة والفينة يترك يد أمين ليأتيه بشيء من أشجار الخروب ، التي يتدافع الناس اليها ··

* * *

وجنحت الشمس الى الغروب · والح عليهم العطش والتعب ·

وتزاحمت الجموع على جانب الوادي ، على النبع الصخرى الذى يستقى منه اهل « نعلين » وترامو فى ظل اشجار التين على مقربة من النبع · هذه المحلة الصغيرة تدفق عليها مائة الف من الجياع ، والعطاش المتهكين ولقد أصابهم مس من الخبال ، من فرط ما صب عليهم قبل ان يهجروا بلدهم ،

ومن هول ما عانوه من حرارة الشمس ، والتعب ، والظمأ ، والجوع • وصار شارع القرية الاوحد ، وقد غص بهم اشبه بنهر ضيق تزحمه موجة المد الكبيرة ، فيفيض بها وتفيض على جوانبه •

قال انطون وهو ينظر الى الجموع : قد تمضى الساعات ولا نقترب من الينبوع أترى يا امين ان ندور في القرية علنا نجد قلبا رحيما يهبنا كوب ماء، ولقمة عيش • ودارا في القرية • ان ابواب الحوانيت والبيوت مفتحة ، ولكنها خالية من الناس • لقد فراهل المدينة حين بلغهم سقوط اللد وما احدث اليهود من فضائح بأهلها • ويا لشدة فرحة انطون حين عثر على أرغفة من الخبز ما زالت في التنور • لقد فر أهلها ولم يستطيعوا انتظارها ـ وحملها الفتى ، وأعطى شيئا لامين ، ثم عادا يبحثان عن آل منصور ـ •

لقد احس أن يده التي ظلت قابضة لساعات على يد صاحبه أمين صارت تؤلم الان ، ولم يعد من السهل عليه أن يبسطها كما كانت من قبل ••

وعادا الى النبع فوجدا الحشد قد تناثر تحت أشجار الزيتون • كان بعضهم يقول : «ستعود جميعا بعد ايام ، لان الجيش العراقي قد خف لنجدتنا» •

وأحس انطون ، وهو ينصت بشغف لهذه الاحاديث ان يدا تضغط كتفه ، ورفع بصره فاذا بعمه فريد يقول له :

الى اين ؟ بحثنا عنك في كل مكان !

وقبل ان يرد عليه عاوده النزيف ، فشغله عن الحديث •••

وترامى آل منصور حول النبع، وقد تعلق بعضهم ببعض، وراح أنطون وصاحبه امين يغطان في نومهما بعد تعبهما وظلت « نادية » و « بطرس » في يقظة • تورقها كارثتها بالجندي اليهودي وتورقه خواطر المسجد الكبير ••

وغادروا « نعلين » مع الصبح • وقبل ان تعلو الشمس وتشتد الهاجرة بعث اليهم صهرهم « خليل » سيارته • والقوا انفسهم بها ، وكأنهم الغرقى ظفروا بشاطىء الامان • وبقى انطون خارج السيارة يقبض على يد صاحبه امين • ان السيارة لا تتسع للاثنين ويصيح امين : اتركوني ، واذهبوا راشدين ! وانطون يصر أن يظلا معا او يركبا معا •

وتكدسوا ••• وسارت السيارة وعيون الناس معلقة بها ، وبمن تحمله من المحظوظين •

واستقبلتهم « منى » عمة انطون وزوج « خليل » في باب بيتها • وخليل هذا رجل اشقر طويل ، ذو مهابة ووسامة ورزانة، وهو من كبار ملاك الاراضى • وزوجته « منى » قد استأثرت بجمال آل منصور وسحرهم • لقد أغضب زواجهما رؤوس اسرتيهما ، ذلك لانها مسيحية تتزوج مسلما •

ومع هذا فقد بقى بطرس ، على حبه وعطفه لاخته • واندفعت منى الى ابن اخيها بطرس تحتضنه وتقبله • واندفع زوجها خليل بهيبتـه ووقـاره يحتضن اصهاره فيعانقهم ويقبلهم ، واحتضن أنطون فرآه يظل قابضا على يد غلامه فهمست ماريان مشيرة الى أنه صديقه وان اسرته ستتصل عما قريب •

قال خليل : مرحبا به ، هو في بيته معنا ٠

* * *

واقبل الليل ، ونام آل منصور وراحوا يغطون بنوم عميق بعدما عانوا من تعب ، وسهر ، وظمأ وجوع ، وخوف ٠ ناموا الا « نادية » ٠ لقد رقدت في حجرة ومعها طفلاها ٠ ومع الليل عاودتها خواطرها ، هذا مكان زوجها (نصري) ٠ أترى اليهود قتلوه في مذبحة المسجد الصغير ؟ أتراه بقي حيا ، وسيفرج عنه ؟؟ وهل تراه في ثورة العار والغضب حريا بأن يقتلها حين يصك سمعه نبوءها ؟ ام ترى الاولى لها أن تقتل نفسها قبل عودته ؟ ٠ كان النوم يغلبها فتهوم ، ولكنها ما تلبث ان ترى تلك الصورة البغيضة صورة ذلك الجندي اليهودي ، فتصيح ، وتصرخ ، وتبكي ٠

لقد استيقظ آل منصور وآل داود لصراخها ونحيبها ٠ وثقل أمرها على « ماريان »وعلى النسوة الحاضرات للواقعة الاثيمة ٠ اما بقية افراد الاسرتين فظنوها تفعل ما تفعل لتعبها ، وقلقها على زوجها نصري ٠

واستيقظ اهل الدار ، وكان شغلهم الشاغل هو : أينتظر أن يهجم اليهود على «نطرون» بعد أن استباحوا « اللد » و « الرملة » ؟٠ و «نطرون» هذه تقع عند تقاطع طريقين ، أحدهما يفضي الى «رام الله» والاخر الى القدس٠ أتراهم يلقون بمدينة « رام الله » ما لقوه في « اللد »؟ أليس الاجدر أن يهاجروا الى «اريحا» من الان ؟ قال انطون : يقال ان قوات الفيلق العربي معسكرة في لطرون ــ والجيش العراقي قادم لنجدتنا ٠

ووقف خليل ، يودع آل منصور قائلا : ستعودون بعد اسبوعين من «أريحا» الى «رام الله» في طريقكم الى «اللد» ان قوات الفيلق العربي لم تكن كافية ٠ ولكن العراقيين لم يصلوا الى هذه المنطقة بعد ٠

وأجابه آل منصور بقولهم : « ان شاء الله » وانطلقت بهم السيارة ٠ واستقبلهم خادمهم بباب بيتهم في « اريحا » هذا هو البيت الذي جساءته «ماريان» بصحبة ابيها روبرت ملبي ، لزيارة صديقهم بطرس ٠ وهنا لاول مرة تفاهمت عيناهما وصمما على الزواج ٠ لقد عارضت امها الانكليزية هذه الرغبة ، لان الرجل يكبرها بعشرين سنة ، ولانه مطلق هجرته زوجته ، ولكن أباها لم يمانع في الزواج ٠

كان « روبرت ملبي » معلما بمدرسة العميان في « بيت لحم » ، وكانت ماريان تعمل معه في المدرسة ، واتصل امرهما ببطرس لانه عضو في ادارة الجمعية ٠ وكان الرجل متحمسا لاستقلال بلده فلسطين ، وكان « روبرت ملبي » يرى معه الحق في استقلال اهل فلسطين ، ومن هنا غضب رجال ادارة الجمعية في لندن على روبرت هذا ، سيما بعد ان شنقت السلطات الانكليزية بعض الوطنيين الفلسطينيين وكانوا اصحابا له ٠

لقد استدعوه الى «لندن» وبقيت «ماريان» ومعها ابنها الصغير أنطون في اللد ، وظلت الرسائل بينهم ٠ وصار آل منصور يقضون صيفهم ــ منذ

ذلك الحين ـ في اللد وشتاءهم في « اريحا » . وعلى هذا « فأريحا » بلدهم ايضا ، وان كانت ليست كاللد .

لقد انقضت سنة على سقوط اللد ، وانطون لا يفتأ يسأل اباه عن جيش التحرير الكبير ، وعن الجيش العراقي الذى سيرد اليهود على اعقابهم ، وابوه يرد عليه ان المحنة التى مروا بها جعلتهم يكادون ييأسون من هذا ..

لقد بقي الجيش المصرى يدافع عن قطاع غزة . اما الجيش العراقي فكان في شمال الاردن . وقد غصت التلال المحيطة « باريحا » بخيم الالوف من اللاجئين من اهل فلسطين ، ضربوا خيامهم باشراف شرطة شرق الاردن .

وقد استولت قوات اليهود « على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر سبع) من جهة الجنوب . وفي اليوم التالي لسقوط (بئر سبع) اوقف اطلاق النار رسميا ، واقام الفيلق العربى مراكز دفاعية في أسفل قرية (الظهيرية) على الطريق الى (بئر سبع) ...

كان أنطون ينظر الى اللاجئين في خيمهم ، ويتذكر رحيلهم ويتذكر بيتهم حين داهمه اليهوديان ، ويتذكر حالة البيت ، ولاسيما حالة امه المريعة . وكان لا يفتأ يسمع جدل الناس الذى لا ينقطع : لو فعل العراقيون ، ولو فعل الفيلق العربى ، ولو فعل فاروق . ويرى الناس يستقر رأيهم اخيرا : « ان فلسطين لا يحررها الا اهلها » .

مرت سنة على خروجهم من (اللد) ، فحرص بطرس احياء لهذه الذكرى ، ان يسافر الى الحدود وينظر عبر السهل الساحلي الى البحر . وربما استطاع ان يقف في موضع يبصر منه « اللد » مدينته . واغتمت « ماريان » حين اخبرها بهذا ، وقالت : أتتحمل ان تنظر الى « اللد » من غير ان تستطيع دخولها ؟ اخشى الا تطيق هذا . قال بطرس : سيصحبني انطون في رحلتي هذه ، وسنحصل على ترخيص بهذا ، اما انت فبوسعك ان تظلى هنا . قالت « ماريان » : بل نكون معا ، كما كنا معا يوم خروجنا منها .

قال بطرس : لا غنى لنا عن هذه الرحلة يا عزيزتى ، انها اشبه بالذهاب الى الكنيسة في عيد الميلاد . انها قرار مقدس ـ بل هي حج .

وقام آل منصور بالرحلة يصحبهم وليد صديق انطون .

ووليد هذا ، فتى اسن من انطون . تعرف عليه انطون في زحمة من زحام كرة القدم ، وبعد حديث قال وليد : نحن من بلدة « بئر سبع » كان ابى مدرسا هناك ، ولكننا هاجرنا منها بعد ان دخلها اليهود . لقد انتقلنا الى « الظهيرية » حيث يقيم أهل أبي . أنا من اسرة فقيرة ، عدد أفرادها كثير ، والذى ينفق على هو عمى . واشتدت اواصر الصداقة بينهما سيما وان انطون قد خلت حياته من صديقه امين ، الذى كان قد ارسل الى مدرسة العميان في بيت لحم . واستأذن انطون والديه بأن يدعو صديقه الجديد الى دارهما في اريحا ، فتعرف وليد على العائلة وقد أحلته ماريان من نفسها محلا ، واعجبه حديثها بالعربية . ولولا ان صديقه قد اخبره ان امه انكليزية لما عرف

انها كذلك ٠

وفكر وليد ان يستزير صديقه في عطلة عيد الفصح ، وقد هفت نفسه لزيارة « بئر سبع » والتطلع اليها ٠ ورأى ان هذا المشروع يتطلب الحصول على ترخيصين ، سيتكفل عمه بالحصول عليهما ٠ وسيتوجهان الى «الظهيرية» ومن هناك يستطيع الصبيان ان ينظرا الى « بئر سبع » وقد يستطيعان التسلل اليها ٠

وذهبا الى « الظهيرية » وقال وليد هذا عمي منير الذى هاجر معنا من « بئر سبع » ٠ قال منير : كانت لنا في ضواحيها ارض واسعة ، وكان لى غيضة برتقال ، ولى دواجن ، وحديقة خضر ، كنت ابيع غلتها كل اسبوع فى سوق المدينة ٠ وقد صارت هذه الاراضى كلها وراء خط الهدنة الان ٠ ان خط الهدنة الاردنية الاسرائيلية قد قسم البيوت الى نصفين ، جعل الحجرات الامامية للاردن ، والحجرات الخلفية لليهود ٠ لقد شتت البيوت والعوائل والقرى ٠ وقد حدث هذا لاكثر من مائتي قرية عربية حرم سكانها من مصادر رزقهم ، وسلبوا اراضيهم التي يعيشون على زراعتها ٠ وابتسم منير وقال : لقد اشرف على هذا كله الوسيط الامريكى ، الدكتور بانش ، وقد كوفىء على عمله بأن اعطيت له جائزة نوبل للسلام ٠ قال وليد ، كنت أحلم أن أزور والدتى فى المالحة يوم قالوا : ان القوات العراقية التي كنا نبصر معسكرها خارج البلدة ، ستتحرك ، وتعيد لنا شملنا ، وبيوتنا ، واراضينا ٠ ولكن هذا الحلم قد راح ٠٠٠ «ان فلسطين لا يحررها الا بنوها » ٠

وهاجت الذكريات فى نفس وليد ، فأقترح الذهاب لمشاهدة « بئر سبع » فتطوع منير ان يصحبهما الى التلال الى حيث يطفىء حسرته بالنظر الى مزرعته التى يستغلها اليهود الان ٠ قال : اننا لا نستطيع ان نتجاوز « الظهيرية » بأكثر من تسع كيلومترات ، بسبب خط الهدنة ٠ لقد أصبح طريق « بئر سبع » مهجورا ، وهو الطريق الذى كان يسلكه الناس الى القاهرة بغير عائق ٠٠٠

واستعار وليد دراجتين وانطلقا في الطريق المترب ـ طريق « بئر سبع » صوب الحدود ٠ والطريق كثير المنحنيات ، تحف به التلال الجرداء البركانية، وتملؤه الان كتل الحصى وقطع الصخر ٠ وعبر الطريق كانت خيام اللاجئين، ولا مورد لهم الا عطف اهالى المنطقة الفقراء ايضا ٠ ووقفوا على تل ، فانفسحت امامهم الارض ٠ قال منير ، وهو يلمس ذراع انطون ٠

اترى شجرة الزيتون تلك ؟

نعم ـ تلك التى هناك

تلك زيتونتى وتحتها حديقة خضرى ٠ الا يدرى من يشترى ثمارها الان انه يشترى سلعا مسروقة ٠ نعم سلعا مسروقة مغصوبة من أهلها الشرعيين٠ قال انطون ، وهو يغالب تأثره بحديثه ٠ « ستزرع هذه الارض ، مرة أخرى ٠٠ » قال منير ، وقد تضافر عليه الحزن والغضب ٠ نعم سأعود

اليهـا ٠

ووقفوا صامتين ينظرون — ودارت بكل منهم خواطره واحزانه ، فصار مشغولا بها عن الحديث الى صاحبه ٠

واستداروا بصمت عائدين الى الطريق الرئيسى ٠٠ وقد صار طريق « بئر سبع » باديا للعيان بوضوح ، تحت اقدامهم ٠٠ ذلك الطريق الضيق الذى يتلوى ويتعرج وتطبق عليه التلال من الجانبين ٠

قال وليد لصاحبه انطون ، ليس في وسعك ان ترى « بئر سبع » من هنا لانها تتوارى وراء تلك التلال ، التي يخيم حراس اليهود عليها ٠ قال منير : اننا كثيرا ما نراهم ، ونحن نعمل فى الحقول ، ينظرون الينا وكأنهم يرقبوننا ٠ على هذا الجانب نقطة مراقبة بها الحرس الاردنى ، وبتصريح منهم تستطيع ان تصل الى الاحجار البيض الدالة على خط الهدنة ٠ فاذا جاوزت ذلك وجدت طلقات اليهود فى انتظارك ٠ قال سعيد : وهو من اهالى المنطقة : « كل التفاصيل واضحة في ذهن وليد ، حتى كأنه أعد خطة للتسلل » ٠

قال وليد : نعم لابد لي من قضاء عطلات هنا ادرس بها كل صخرة وكل مسلك ، وأصير بحيث يسهل على التعرف على طريقى ، بليلة مظلمة لا قمر فيها ٠ وفلسطين لا يحررها الا اهلها ٠ ونظر منير الى ابن أخيه نظرة اكبار ، وتناول يد صديقه انطون ، وادارو وجوههم ٠٠

وعادوا الى الدار واستغلوا في أحاديث الهجرة واليهود ، وهي أحاديث منغصة ، وسمعوا من انطون تفاصيل عن حياته فقال منير :

ابق مع « وليد » يا انطون ولا تذهب الى انكلترا ، انك واحد منا ٠ وهز انطون رأسه وابتسم ، وقال : « سنعود ، سنعود » ٠٠

وخرج الجميع ، وأكثرهم من النساء والاطفال ، يودعونهما بـ (مع السلامة ، مع السلامة) ٠

قال وليد ، وقد خنقته عبرته « ان الحزن يلفنى عند وداعهم ٠ ولكنى سآتي يوما ، وأعيش بينهم ، وسيكون معي والدي ٠ ثم سكت ووجه الحديث الى صديقه : سنكون عندئذ معا مرة أخرى على طريق « بئر سبع » واني لارجو ان تأتي معنا وتستقر ، وسنعد العدة للتسلل الى « بئر سبع » لتنظيم اهلها ٠ سنكون معا في طريقنا الى « بئر سبع » يا عزيزي أنطون ٠

قال انطون بحماسة : « ان شاء الله ، ان شاء الله » ٠

تركت زيارة «الظهيرية» هذه فى نفس انطون اثرا بالغا ، وظل يدير الامور التى حدثه وليد وعمه عنها ، حول طريق « بئر سبع » ، ذلك الطريق القديم ، الذى لا يجسر انسان على المضى فيه الان بسبب قناصة اليهود المتربعين فى اعالى التلال المتعرجة التى تلف الطريق وتحتضنه ٠٠ وكانت احاديث وليد وعمه عن التسلل ، وانشاء حركة مقاومة داخل اسرائيل ، خيالات صبيان ، ولكنها بذور غرست فى ذهنه الغض ، وراحت تنمو على الزمن ٠٠ وعاد الى المدرسة فى « رام الله » ، مدرسة الاصدقاء الاميركيين ،

فأخذته زحمة الدروس ، وراحت الصور تخفت وتخبو في ذهنه ووليد نفسه شغله ما شغل صاحبه في الدراسة ايضا ٠

* * *

وفي البيت كان بطرس يصغي الى الانباء ، تنقلها اذاعات الدنيا وبطالع الصحف ، العربية وغير العربية ٠ ومن كل هذا اصبح احساسه بالكارثة تاما ٠ ان فلسطين قد مزقت ، وقد ضم ما بقي من الوطن الجريح السليب الى الاردن ٠ هيهات هيهات ان يلتئم الشمل او يعود البلد ، وان الكارثة ساحقة ماحقة ٠ ان احاديث السياسة ، اكره ما يكره الخوض فيه ، يحاوره اخوه فريد بأحاديث جيوش العرب ، وباسترداد أهل فلسطين بيوتهم واراضيهم ومدنهم ، فيرد عليه بطرس ، بعبارة مقتضبة : « لقد قضي على وطننا ، وقضي علينا وعلى شعبنا بالتشتت » ٠ واسرف في الشراب ٠٠ وكانت ماريان تعنفه وتشير الى ان الشراب مضر بصحته ، فيرد عليها أن الشراب أقل ضررا من الكارثة التي يبعثها تفكيره في حالهم وفي مصيرهم ٠ وكان يتجنب المناقشة في أمر فلسطين ، لان حديثها يثير ما في نفسه من أشجان لا يحتملها ولا يقوى عليها ٠

وكان يغبط اخاه فريدا ، حين يرى تفاؤله ، وهو يجادل في عودة فلسطين ، وعودة اللاجئين ٠

* * *

واحتفلوا بعيد ميلاد انطون ، وفي ساعة مبكرة من صباح اكتوبر ، خرجت ماريان من حجرة نومها لتستنشق هواء الصباح في الشرفة كعادتها ، فأرجعها راكضة صوت حشرجة من ورائها ٠ لقد رأت زوجها جالسا على الفراش ، يحملق فيها ولا يتكلم ٠ واقبلت اليه راكضة بالدواء ، ولكنه سقط بثقله كله بين ذراعيها ٠ وصاحت : انطون انطون ٠ واسرع الصبي الى امه ، فرأى وجه ابيه وادرك كل شيء ٠

وفي الليل رقد الفتى وامه في الظلام جنبا الى جنب ٠ وذكرت امه حديث ابيه ليلة الامس ، كان يقول : « سيتولى خليل ادارة هذه الضيعة بعدي ، وستغل لكل ما يكفي لحياتك وحياة أنطون في انكلترا ٠ أما أنا فقد انتهت حياتي منذ ان غادرت « اللد » مدينتنا » ٠ هذه اذا مشيئة ابيه ٠

وحطت الطائرة بمطار لندن ٠ واسرع روبرت ميلبي ، الى ابنته التي لم يرها من سنين ٠ لقد كتبت لابيها من قبل ان الفتى يشعر بأنه ينتمي الى آل منصور العرب أكثر من انتمائه الى آل ميلبي الانكليز ٠ ويشعر انه عربي من سلالة شعب مظلوم مضطهد ، ومن هنا تلقاه جده بضمه اليه ، ويحيه باللغة العربية ٠ قال الفتى : انا اعرف الانكليزية ، فرد عليه جده : أعرف هذا ، ولكني احب العربية ، واحب ان اسمع وقع حروفها في أذني ، ولقد طال شوقي الى هذا ، قالت ماريان وهي تشير الى ابنها : لم يكن راغبا في المجيء ٠ قال ابوها : لست الومه على هذا ، وسيعود الى بلده فلسطين ٠

وسألت ماريان عن امها ، فقال ابوها : انها انشغلت عن المجيء باحدى الجمعيات الخيرية ، وستجدها في انتظارنا في البيت ·

كان روبرت يحب فلسطين ، ويحب يافا خاصة ، لانها مدينة اسلامية خالصة ، أو على حد تعبيره عربية خالصة ·· وانه ما زال يحن الى المدرسة التي كان يديرها هناك ، وهي تضم المكفوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ·

حدث حفيده مرة في احدى نزهاتهم قائلا : ان الانكليز نكثوا وعودهم للعرب في الحرب العالمية الاولى ، حين منوهم بالاستقلال وهذا ما فعلوه في الحرب العالمية الثانية · ان قصتهم مع العرب قصة الخديعة والخيانة التي لا تنتهي ·

لقد تعلق الفتى بجده لشبهه بأبيه ··· وقد جذبه اليه ان ماريان اندمجت في قسم التحرير بصحيفة الشرق الاوسط ، لمعرفتها بالشرق وباللغة العربية · على ان انطون ظل خياله متعلقابفلسطين، بتلالها وخمائلها وآجامها·وظلت صور «اللد» واقتحام اليهود عليهم بيتهم،وهجرتهم مطرودين من بلدهم ··· ظلت هذه الصور تثور في نفسه فيترأى له طريق « بئر سبع » وظل على اتصال بصاحبه وليد · ووليد يذكره بعهدهما وسرهما ·

وفوجئت ماريان مرة بسؤال ابيها ·

ماذا ترين في ان يقضي انطون سنة العمل التدريبي في الاردن ؟ وربما كان هذا في مدرسة المكفوفين في بيت لحم ؟

ان ماريان تدرى انهم يشترطون سنة تدريبية لدخوله في مدرسة العلوم الاجتماعية ، وحين ترددت قال ابوها : انه يشعر بالحنين الى وطنه يا ماريان، وتستطيعين ان تعرجي على زيارته في اسفارك الصحفية · وترددت ماريان ، ثم قبلت الفكرة على مضض ، اما امها فلم توافق على السفر ولكنها غلبت على امرهـا ·

وجاءت العائلة لتوديع فتاها ، فدنت امه وقالت ، وقد غصت بعبرتها : سمعتك مرة تقول ان بامكان العرب ان يتسللوا الى الاراضي العربية المحتلة ، ويؤلفوا طابورا خامسا هناك ارجوك بل استحلفك الا تتورط بهذا · عدني الا تقدم على عمل طائش كهذا مع صاحبك وليد · عدني يا بني · ورد الفتى على امه بأنه لم يعد طفلا ··

وحطت الطائرة بمطار عمان ، وعانقه وليد ، وعانقه زوج عمته خليل ورأى العائلة في استقباله ، وعلم منهم ان « نصرى » يعمل الان في الجيش العربي · وفي المطار حيته فتاة جميلة قالت انها « ثريا » سابا التي تعرفت عليه مرة في بيت عمته «مني» · وشعر انطون بشيء يشده الى الفتاة حتى نسي معها الحديث الى صاحبه وليد ··

وكثرت زيارة ثريا لبيت انطون في « اريحا » واتصل الود بينهما ، واتصلت الرسائل تبعثها اليه من الجامعة الاميركية ببيروت وهي تدرس

الطب هناك ٠

وعمل انطون بمدرسة العميان ، وحدثه وليد عن صديقه « طالب حمادى » ، المدرس بمدرسة العميان ايضا ، وقال انه من اهالى « بئر سبع » وان له اخا لا يزال يقيم هناك ، وانه مقتنع بفكرة التسلل ، وهو يعمل لها ايضا ، وسيكون بيت اخيه هناك مقرا لهم ٠

وسافر انطون وطالب معا بالسيارة العامة من بيت لحم الى «الخليل» ٠ واستقبلهما وليد ، وقال ان عمه منير في المدينة ، وسيصحبهما ٠

وتوجه الثلاثة الى مطعم شعبى ، وقعدوا فدارت في ذهن انطون برقية والدته ، انها قادمة فى طائرة الساعة السادسة الى عمان ٠ لقد كتب لها بالمجىء لتحضر عقد قرانه على ثريا سابا ٠ وبعد جدل بينهم ، قال وليد : يبدو أنك لم تعد تؤمن الا « بثريا سابا » ، اما طريق « بئر سبع » ، والتسلل ، والمقاومة فلا شأن لك بها ٠ ثم قال : هناك سيارة عامة تقوم بعد الظهر الى بيت لحم ، ومن الخير ان تستقلها وتعود ٠ لم تعد وطنيا كأبيك ولكن انجليزيا كأمك ٠

وتركهما انطون وظل يصارع افكاره ٠ ثريا وامه في ناحية ، وابوه ووطنه في الناحية الاخرى ، وما كان الاصيل الا وقد غير وجهة سفره من « بيت لحم » الى « الظهيرية » ليحاول اللحاق بصاحبيه ٠

ووصل « الظهيرية » وراح الى بيت منير ، فقالوا له : « لقد ذهبا منذ نصف ساعة وقد لا تلحقهما الان في الظلام ٠٠ انهما الان في مرحلة الشقة الحرام ، وطالب يعرفها شبرا شبرا ، ووليد قضى الاعوام الاخيرة يتفقدها متظاهرا برعى الاغنام والعمل في الحقول ، وانت لا تعرف المنطقة ٠

واصر انطون على اللحاق بهما ، وجاءه منير بالخريطة وكان قد تدرب على قراءة الخرائط بالمدرسة ، وودعته الاسرة بالباب ٠ وسار وصور التلال بذاكرته ، وحديث الحراس اليهود الكامنين فى أوكارهم في التلال ٠٠ ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش ٠ وطلع الصبح على وليد حسين وطالب حمادي وقد دخلا الى « بئر سبع » ، وعلى طائرة ماريان وقد حطت فى مطار عمان ٠ وعلى عصبة من الحرس اليهود وهى تحمل ، الى خطة التقسيم جثة شاب فلسطينى لتسلمها الى حرس الحدود الاردنيين ٠ وتجمع الناس على الجثة ينظرونها واجمين ٠ لقد اشيع انها جثة متسلل عبر الحدود ٠

وبين الجمع الواجم وقف منير حسين ، وابنه سعيد ينتظران ، وقد التصقت ابصارهما فى الطريق الى « بئر سبع » ٠

أضواء على السياسة العالمية

السياسة الداخلية

تميزت احتفالات الذكرى السادسة لثورة ١٤ تموز المباركة بأعلان انتصارات عظيمة قدمتها حكومة الثورة لابناء الشعب واهمها القوانين الثورية الاشتراكية التي تمثلت بتأميم جميع المصارف والبنوك وشركات التأمين وثلاثين شركة كبيرة كما نصت هذه القوانين على مساهمة العمال والموظفين في ادارة وارباح الشركات التي يعملون فيها ٠

واهم ما تميزت به قوانين التأميم هذه ان الحكومة حرصت على تعويض المساهمين في تلك الشركات والبنوك ، وقد اتبعت الحكومة قرارها آنف الذكر بالاعلان عن تعويض حملة الاسهم من ذوي الدخل المحدود بصورة فورية وتسليمهم اثمان اسهمهم حفظا لحقوقهم ٠ وقد استقبل الناس هذه القوانين على انها التطبيق العملي للشعارات التي طالما سمعوا بها ورددوها من دون أن يجدوا السبيل الى تنفيذها ٠

ولا شك ان مثل هذه القوانين تجد معارضة من قبل الدوائر الاستعمارية والرجعية واصحاب المصالح المتضررة ، الا ان الحكومة لم تلتفت الى هذه الدوائر طالما شعرت بالنفع المتوقع من هذه القوانين والفوائد التي لم يقصد منها الا اسعاد المواطنين وبث روح الطمأنينة والعدالة بينهم ٠

ولقد احسنت الحكومة الوطنية صنعا حين جعلت استيراد الادوية والمواد الكيماوية والمبيدة مناطا بمؤسسة حكومية منعا للتلاعب والاحتكار والتصرف بمقدرات الناس ٠ كما اوضح ذلك السيد وزير الصحة والسيد وزير الاقتصاد في حديث اذيع من محطتي الاذاعة والتلفزيون ٠ وقد كان السيد وزير الصحة موفقا في حديثه كل التوفيق ووجد الناس فيه معبرا عما يجول في اذهانهم عن موضوع استيراد الادوية وما يرافقه من التلاعب وما يرافقه من التحايل والغش على حساب ابناء الامة ٠

وعلى الصعيد الشعبي فقد انبثق الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق

وانعقد مؤتمره الاول حيث اعلن الرئيس عبدالسلام محمد عارف مشروع ميثاق الحركة العربية الواحدة ومشروع النظام الاساسي للاتحاد وقد تولى امانة الاتحاد السيد عبدالكريم فرحان وزير الثقافة والارشاد ، وفي ارجاء الجمهورية اقيمت احتفالات رائعة بهذه المناسبة وقد تلقى ابناء الشعب هذه الانتصارات بفرحة كبيرة لم يسبق لها مثيل فلاول مرة يتحقق حلم الشعب مجسدا بالقوانين الاشتراكية وبالتنظيم الشعبي ٠

وتيمنا بهذه المناسبة السعيدة فقد افتتحت عدة مشاريع في جميع انحاء الجمهورية ٠

الذكرى الثانية عشر لثورة ٢٣ يوليو - تموز العظيمة

وفي اليوم الثاني والعشرين من تموز اقام الاتحاد الاشتراكي العربي اجتماعا جماهيريا ضخما شهده الرئيس جمال عبدالناصر وعدد من ضيوف الجمهورية الذين حضروا مؤتمر القمة الافريقي أو الذين وفدوا للتهنئة بعيدالثورة وقد القى السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية كلمة جاء فيها :

« باسم قوى الشعب العاملة من العمال والفلاحين والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية نحيي الملوك والرؤساء الذين اردوا ان يشاركوا الشعب احتفالاته بعيدة الثورة » وقال « ليأذن لي سيدي الرئيس ان ارحب باسم الاتحاد الاشتراكي العربي بوفد العراق الشقيق الذى اصبحت تربطنا به منذ ٢٦ مايس وحدة تتجدد فيما تتجدد روابط الاخوة والصداقة ٠ اننا حينما شاركنا العراق في احتفالاته هذا العام بثورة ١٤ تموز الذى اعلنت خلاله القرارات الاشتراكية شعرنا بان كل من الجمهورية العربية المتحدة والعراق يسير بوحدة فكرية على طريق الحرية والاشتراكية » ٠

ثم القى بعد ذلك السيد الفريق طاهر يحيي كلمة نقل فيها شعور عرب العراق الى عرب مصر وتهاني ١٤ تموز الى ٢٣ تموز وجاء في كلمة السيد رئيس الوزراء ما يلي :

« احييكم في بلد الوحدة والعروبة والاشتراكية تحية العروبة والوحدة والاشتراكية ٠ احييكم تحية الرافدين الى النيل وتحية بغداد الثورة الى مصر الثورة وتحية البطل الثائر عبدالسلام محمد عارف الى البطل الثائر جمال عبدالناصر ٠ وقال: ان ثورة مصر كانت بحق بابا للثورة العربية الكبرى حيث اطلقت الحرية والقومية ٠ واشاد السيد رئيس الوزراء بالديمقراطية التى حققتها ثورة يوليو المجيدة وبالتقدم الاجتماعي » ٠

ثم القى بعد ذلك الرئيس جمال عبدالناصر خطابا مفصلا تحدث فيه عن انجازات الثورة خلال عام وعن المكاسب الاخرى التي حققتها الثورة للشعب وحيا فيه كذلك قادة افريقيا الذين شاركوا الشعب العربي احتفاله بعيد ثورته ٠

ابناء الجنوب العربي المحتل يفضحون مؤتمر لندن الاستعماري

وفي الرابع من تموز اى بعد اربعة ايام من انعقاد ما يسمى بمؤتمر الجنوب العربي في بريطانيا اعلن السلطان احمد بن عبدالله الفضلي سلطان امارة الفضلي بأن سلطنته انفصلت عن الاتحاد وقال ان الاتحاد كان مؤامرة استعمارية تستهدف القضاء على العناصر الوطنية في شبه الجزيرة العربية ثم وصل السلطان الفضلي الى الجمهورية العربية المتحدة فأدلى بتصريحات هامة بين فيها تآمر بريطانيا في الجنوب على الجمهورية اليمنية وتآمرها على العالم العربي المتحرر .

مؤتمر القمة الافريقي

عقد في القاهرة في السابع عشر من تموز ١٩٦٤ في قاعة الاجتماعات الكبرى في مبنى الجامعة العربية مؤتمر القمة الافريقي الذى افتتحه الرئيس جمال عبدالناصر . وقد حضر الاجتماع رؤساء وملوك وممثلو ٣٣ دولة افريقية كما حضره عدد من المناضلين الافريقيين في الدول التي لم تحصل بعد على استقلالها بصفة مراقبين ، وقد حضر ايضا المستر ثانت السكرتير العام للامم المتحدة وقد بحث المؤتمر مختلف القضايا الافريقية والدولية ، واختتم اجتماعاته باصدار بيان صحفي تضمن عشرين مادة ، منها الموافقة على البروتوكولات الخاصة بالوساطة والتحكيم الذى قدم في الدورة الثالثة لمجلس وزراء الدول الافريقية والقضاء على الاستعمار ومنح الاستقلال للدول الافريقية غير المستقلة ، ومناهضة سياسة التمييز العنصري ، ومساندة الحركات التحررية في افريقيا ضد الاستعمار ومن اجل حرية شعوبها ، وموضوع روديسيا الجنوبية ، ومقاطعة جنوب افريقيا ، ومناشدة الدول المنتجة للنفط بوقف امداداتها اليها .

قبرص

طغت مشكلة قبرص على الاحداث العالمية خلال شهر تموز ١٩٦٤ بسبب جو الجزيرة المشحون بالاخطار من جراء التعزيزات العسكرية التى تقوم بها الاطراف المعنية في جزيرة قبرص ، ومخاوف القبارصة الاتراك من عودة الجنرال جورج غريفاس الى الجزيرة ، ومخاوف القبارصة اليونان من التهديد بالغزو المحتمل من جانب تركيا .

وبالفعل فقد قصفت الطائرات التركية بعض مدن الجزيرة واستعانت حكومة قبرص بكل من الاتحاد السوفيتي والجمهورية العربية المتحدة وطلبت التدخل لوقف الاعتداءات التركية ثم بذلت المساعي الدولية لايقاف الاعمال الحربية وتوقفت بالفعل غير ان المشكلة ما زالت قائمة بين دعاة تقسيم الجزيرة من الاقلية التركية وتمسك القبارصة اليونانيين بوحدتها ..

فيتنام الشمالية

وفي المجال العالمي ايضا

وفي جنوب شرق اسيا غطت انباء القصف الامريكي لفيتنام الشمالية على الانباء الاخرى ، وقد بررت الولايات المتحدة الامريكية عملها هذا بان زوارق الطوربيد الفيتنامية الشمالية تحرشت بقطعة حربية امريكية خارج المياه الاقليمية وادعت فيتنام ان القطعة الحربية الامريكية اخترقت حرمة مياهها الخ ..

ان المعارك في جنوب شرق اسيا هي معارك بين معسكرين كبيرين تدافع امريكا وتتزعم احدهما وتدافع الصين الشعبية عن المعسكر الاخر.

ومهما يكن من نتيجة هذا الصراع بين المعسكرين فان الملاحظ ان الامريكان يحتلون الاجزاء التي يدافعون عنها بجنودهم بينما يدفع الصينيون اعوانهم ويساعدونهم مستفيدين من خط الحدود الطويل الذى يربط بين الصين وتلك الاماكن .

ان المتتبعين لاحوال الشرق الاقصى يجدون الزمن في صالح الجانب الصيني وليس في صالح الجانب الامريكي اذ أن الرابطة بين الامريكيين والاماكن التي يساعدونها تتحكم فيها المصالح المتبادلة . اما الجانب الاخر فتتحكم فيه عقيدة مشتركة وفرق كبير بين المدافعين عن المصالح والمدافعين عن المبادىء .

- « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم »

قرآن كريم

- « صديقك من صدقك لا من صدقك »

حديث شريف

- « اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة ، فالفضل فيمن له الشكر »

المتنبي